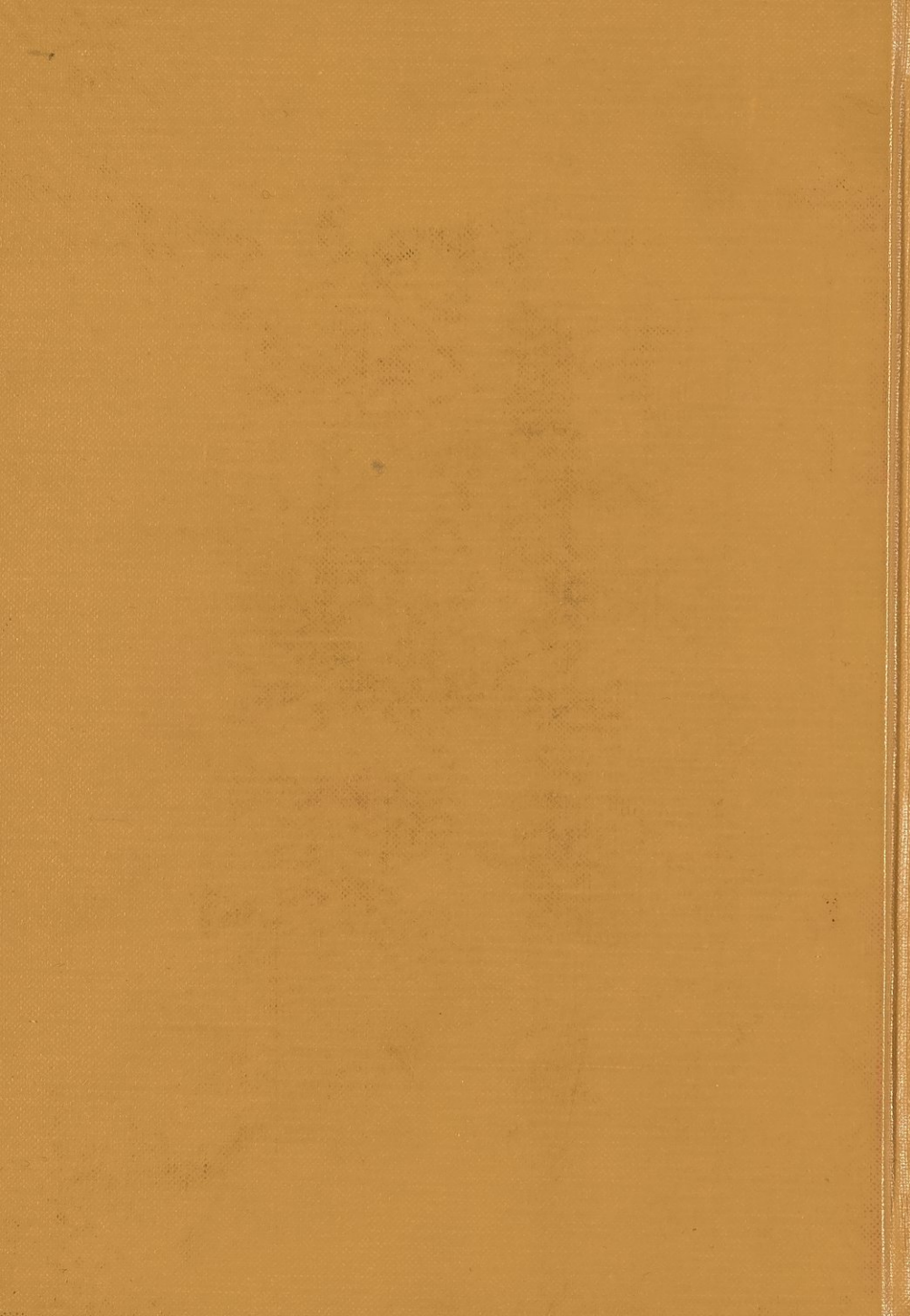
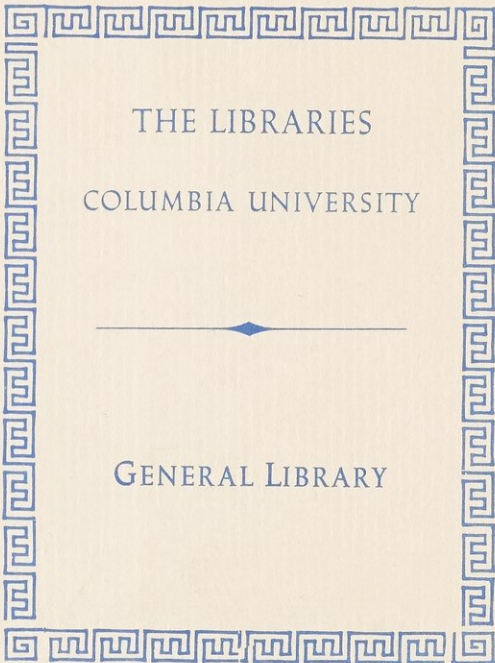






THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY



GENERAL LIBRARY

محمّد بن عمر

أبو الهول بطير

الناشر : مكتبة الآداب بالجاميز تليفون ٤٢٧٧٧

المطبعة النموذجية

٦ مكة الشاويى بالعلمية الجديدة

Abū al-Ḥawṣ al-Yaḥyā

محمود تيمور

محمود تيمور

أبو الهول بطير

الناشر: مكتبة الآداب بالجاميز تليفون ٤٢٧٧٧

PJ
7864
• A5
A64
1955

الطبعة الثالثة ١٩٥٥
منقحة بما يتفق ومشارب الطلاب والطالبات

٧٧٧٢٣ نسخة من المطبوعات العامة : ١٢٠٠٠

إهداء

إليك ...

إليك يا أعزَّ من أحبيته ، ويا أعز من فقدته .
إليك أنت ، يا مَنْ لا أسمىك ... فإن اسمك لم يعد يجرى
على لساني منذ أضعتك .
إليك أخطئ هذه الرسائل .

إني لأبعث بها واحدة تلو الأخرى ، لعلني أتسبب
من توجيهها إليك برداً السُّلوى ، وإنها لتُطالعُك في عالمك
العلويّ ، لعلها تحمل إليك خواجِ القلب ونجوى الضمير .
تهنأجُ بين جوانحي رغبة متقدة في الكتابة إليك ، في
مخاطبتك ... في فكِّ الإِسار عن نفسي التي تَتَنَزَّى في
القيود والأصفاد !

لقد أسكنتُ هذه النفسَ قِمَمَ قُما من قِقام « سليمان » ،
وأحكمتُ سدَّه بالرصاص ، وقذفتُ به في قاع المحيط ، هنالك

تحت أعماق الماء ، حيث يتكدّس الظلامُ والصمتُ طبقاتٍ فوقَ طبقات .

ظلمتُ تلك النفس حبيسةً قمقمها ثلاث سنين طوالاً كأنها دهور تتلاحق ، ولكن في هذه الساعة التي أزمعُ فيها سفراً لا أدري ماذا يكون مصيرى فيه ، تنبعثُ صرخةٌ يضطرب لها ذلك القمقم ، صرخةٌ تنفذُ من الرصاص ، وتخرقُ أطباق الصمت والظلام ، وتشقُّ أعماق الماء ، فإذا هي تبلغُ أذنى ، وإذا هي تملأُ سمعى بالدَّوى .

إنها رغبة النفس في أن تناجيك ، في أن تتصل بك ، في أن تَفِنَى فيك !

ثمة اتصالٌ دائمٌ بينك وبين هذه النفس السَّجِيئة ، بيد أنه اتصال صامت ، لا كلمة فيه تقال ، ولا لفظة فيه تدوّن . أما اليوم فإن هذه النفسَ شَيِّقةٌ إلى أن تتكلم . . . وإني لتارك لها هذه الأوراقَ البيضاء ، لتخطّ فيها ماتهفو إلى الإفضاء به إليك ! تلك هي الرحلة الأولى التي تتخلّف فيها عن مرافقتى ، فلقد نَعِمْتَ بصحبتك في أسفارى جميعاً .

أنت تتخلّف عنى اليوم على الرَّغم منك . وأنا أرحل

الساعة بدونك على غير إرادة منى .
إنها يا بنى مشيئة القدر ومن ذا يردُّ القدرَ إذا شاء ؟
ولكن أى تخلف منك ؟ وأى رحيل منى ؟
إننا نقيس القرب والبُعدَ فى هذه الدنيا بمنطقنا
القاصر ، ونظرنا الحكيل .

أئمة رحيل ينأى بى عنك حقاً ؟
ربما ضمّنى أنا وإنسان آخر ، مكان واحد ، مكان ضيق
لا يتسع لأكثر من شخصين ، فأشعر مع ذلك ببعدِ الشُّقَّة بينى
وبينه ، بل إني لا أحسُّ لهذا الجليس من وجود ، على حين أنه
قد يفصلنى عنك شاسعُ الأرجاء وهولُ الطريق ، فأحسُّ
كأنك تلبسنى ، وأشعر بنسَمات أنفاسِك تصافحُ وجهى !
لارحيلَ يا بنى ولا تخلف ...

إننا نصطنعُ المألوفَ من الكلام ، ونسائر المتعارفَ من
الألفاظ ، حتى يكون حديثنا بين الناس غير مُستغلق ولا
مستغرب ولا مُكروه .. ولعمرى .. لو تركنا لأرواحنا حرية
التعبير لاتخذنا لغة لا تصلح إلا فى مخاطبة الأرواح للأرواح !
لارحيلَ يا بنى ولا تخلف ...

أنت فكرة خالدة تحوِّم في مخيلتي لا تبرحها أبداً .
 أنت نجوى تهجس في صدري في تعبُد وتبتلُّ صباح مساء .
 أنت خفقة القلب تجمِّعت فيها عناصرُ حياتي .
 إني لأزعم الرحيلَ ، لا تسريةً عن النفس ، ولا إشباعاً
 لفضول ، بل لأرافق شخصاً عزيز المكانة في قلبينا يلتمس
 الشفاء في تلك البلادِ القاصية .

أما كانَ أحرى أن تكون أنتَ مكاني ، ترعى هذا العزيز
 في غربته ، وتدعني مكانك أتوسِّد الشرى عنك .
 قَسَمًا يا بنسى ما كنت أطلب من الله أمانةً أجلَّ من تلك
 ولكن الله يصرفُ الأقدارَ وفق مشيئته التي نُسلم لها القياد ،
 وإن كانت عقولنا القاصرة تَعْمَا عن إدراك ما في هذه الأقدارِ
 من حكمةٍ وما لها من مرمى .

إنها إذاً مشيئة الله ، أن أسافر أنا وتبقى أنت ، كما كانت
 مشيئته من قبل أن ترحل أنتَ عن دنيانا ، وأن أبقى أنا فيها
 أقضي أياماً آخرًا !

وإنها كذلك مشيئةُ الله : بينما يدعوك إلى جواره الأعلى ،
 مخلفاً قلوبنا في ظلمةٍ وعبوس ، إذ يبعث إلينا نجماً صغيراً^(١)

(١) يعني الكاتب ابن ابنه

سافسىء نورهُ الوداع منذ بزغ يحاول جاهداً أن ينيرَ هذه
القلوب ، وأن يهدى إليها راحة الرضا بما هو مقسوم
ومكتوب ...

بذلك الصغير الذى راح ينمو بيننا ويتفتح كتفتح الزهرة
باكرها الطل . بدأنا نستعيد طفولتك المحببة ، ونعرض
أطوار حياتك البهيجة .

لقد ظهرت بيننا المعاطف الصغيرة ، والقبّعات العريضة ،
والأحذية الدقيقة .

لقد تراءت في حديقة المنزل تلك المركبة التى تدفع باليد
مرتبة خُطَا الطفل الجديد .

لقد تعالت في أجواء المنزل جلبة صاحبة مُشَبَّعة بالحياة
والبهجة ، لتوقظ المنزل بما ران عليه من ركود وخمول .

ها أنت ذا تعود إلينا يا بنسى .
تعود إلينا بابتسامتك الوضّاحة ، بضحكك الرنانة ،
بعَبَشِكَ المستظرف ، بمَرَحِكَ الحسى .

بالله ... كأنك بيننا لم تفارقنا ، وكأننا معك لم نفقدك !
إنتى حين أقبلُ على ذلك الصغير ، فيأض الحنين ، أضمه

إلى صدرى وألثمه ، يُخَيِّلُ إِلَى أَنِي أَضْمُكَ أَنْتَ يَا بُنَى
وَأُلْثَمُكَ .

كنت دائماً طفلاً أمامَ عيني .

إن الوليدَ ليظلُّ صغيراً في نظر والديه ، وإن شَبَّ شبابه ،
وإن عَمِلَتْ به السنُّ ، وإن عَلاَه المشيب .

إنه هو هو ، ذلك الصغير الذى نَزَعِجُهُ دَوْماً بِالْعَطْفِ
والتَّفَقُّدِ والنَّصْحِ المملول !

أنتَ طفلى ، وستَلْبِثُ طفلى أبداً ، صبيّاً كنت أم كهلاً ،
حَيّاً كنت أم فى عِدَادِ الراحلين !

وهل كنتَ إلّا طفلاً وأنت على فِرَاشِ مَرَضِكَ الأخير ؟
لقد كنتَ تَرنو إلى ، وتطلبُ منى أن أحوطَكَ بما أَلِفْتَهُ

منى من حُنُوٍّ ، وتَسأَلُنِي أن أخفِّعَ عَنْكَ ما تَعَانِي من تَبَارِيحِ
الآلم . ولطالما قلتَ لى : متى أغادر سرير المرض ؛ وأعاودُ

مألوفَ العيش ؟ فكنتُ أؤكدُ لك أن الشدةَ زائلةٌ ، وأن
الصحةَ مقبلةٌ ، وإن هو إلّا يومٌ أو بعض يوم .

كنتُ أَرَدُّدُ ذَلِكَ لك بلسانى ، فأما قلبى فإنه كان يحسُّ

هولَ الفاجعة من بعيد . . .

كان مثلي كمثل ذلك الحيوان الذي يحسُّ بغريزته هبوب
العاصفة العاتية ، قبل أن تسجل آلة الرصد ما في الجو
من انقلاب !

كنتُ أحسُّ أنك تُوشِكُ أن تنساب من بين يديّ انسياب
الماء من الأصابع ، حتى حلَّ اليوم الذي وجدتُ فيه
يدي قد صفرتُ منك ، فجاهدتُ لأبقى في راحتي ما أستطيعُ
إبقاءه ، ولو بضع قطرات ... ولكن ذهبَ الجهد والجهاد
عبثاً ، فإن أديم يدي كان قد جفَّ وتشققَ من لفحات
الهجير ، فلم يعدْ لآية قطرة مكانٌ فيه !

لقد تطايرت من بيننا ، يا بُنَيَّ ، كما يتطاير العِطر من قارورة
رُفِعتْ سِدَادتها ، فلم نعدْ نراكُ بأبصارنا ؛ ولكننا ظلمنا
نشمك طيباً يشيعُ فيما حولنا من أجواء .

لم لا أضعُ صورتك هنا لتُزيّنَ هذا الحديثَ وتجمِّله ؟
إنها فكرةٌ خامرتُ رأسي وقتاً ؛ ولكنَّ العزمَ على
إنفاذها أعوزني .

إني لأجاهِرُ بضعفِي وجُبْنِي حيالَ هذا العزمِ ، فليس لي
من قوة ولا من جَلَدٍ أستعينُهما على مواجهةِ رَسْمِكَ يا بُنَيَّ !

إن صورك ماثلة في ركن خاص بها ؛ ماثلة في محراب
أقامته لك شخص عزيز المكانة في قلبينا .

هو محرابه القدسي ، يَقْضِي فيه الساعات رانيا إليك
يرشُف الألم قطرات على مهل في نشوة واستعذاب !
أما أنا فكلما مررت بهذا المحراب عامداً أو غير عامد ،
زاعغ عنه بصرى وازور .

إن « الرجل » منا ليجعجع بشجاعته ، ويعتد بقوته ، ولا يفنأ
يزهوَ ويفاخر ، حتى إذا لمح طيف الألم يتخايل أمام عينيه ،
فر منه ما وسعته الفِرار .

ولكن « المرأة » تستمرى في الألم ، وتقدم عليه ، ولا تبغى
به في النوائب والأرزاء بديلا .

.....

تلك خطرات جاش بها القلب يا بُنى ساعة الرحيل ،
أنفاجيك بها حين أستودعك الله .

وإلى اللقاء القريب !

محمود نيمور

٤ ابريل سنة ١٩٤٦

أني بُنِيتُ :

في صباح اليوم المتيّم للثلاثين من مارس المنصرم ، دقّ جرسُ « التليفون » ، وأحطتُ علمًا في لهجة بالغة الأدب وإن كانت لهجة حاسمة بموعد قيام الطائرة ، فإذا به بعد أربعة أيام .
أية طائرة ؟ وأية أيام أربعة ؟

وتذكرتُ أنني سجلتُ اسمي في القنصلية الأمريكية للظفر بالأسبقية في ركوب الطائرة ... كان ذلك منذ أشهر تقضت دون أن يتخللها حديث في هذا الصدد ، حتى غرّب عن بالي أنني مقبلٌ على سفر .

ها قد تبين الأمر ، فإذا هو جيدٌ لا هزل فيه ... بعد أربعة أيام أطيروا إلى « نيويورك » ، ولكن هل تكفي هذه الأيام

الأربعة في إعداد عُدَّة الرحيل ؟ ألا أراجعُ ولاية الأمر
لنأجيل الموعد ؟ ... عبثٌ ما أفكّر فيه ! ... إنها أوامرٌ يتلقاها
طلابُ الرحلة من مكاتب الشركات كما يتلقّى الجنديّ أوامر
القوّاد . أليس العهدُ قريباً بحالة حرب ؟ ... إذن فلندعِ
لهذا الأمر صاغرين صابرين إذا طمِعْنَا في تحقيق ما نصبو إليه .
ونَهَضْتُ أعمل ... ينبغي أولاً أن أحصُرَ ما يجب علىّ أن
أقوم به ، وإذا بالمطالب والشئون قد تشابكتُ وأخذ بعضها
بتلايبِ بعض : فبأيّ شيء أبدأ ؟ وأيّ شيء أوْخِر ؟
وبذلتُ جهدي في حَضْر الأعمال .. ومثّل الخاطري على
الفور إعدادُ الحقائق ، أَسْتَغْفِرُ الله ، بل إعدادُ حقيقة واحدة لي ،
ومثلها لزوجي ... حقيقة من الوزن الخفيف ، لا تزيد زِنَتُها
على خمسة وعشرين كيلو ... الأمر إذاً هَيِّن ، إن نصف ساعة
أو نحو ذلك ليكفي لإعداد متاع لا يزيد وزنه على هذا العدد .
واطمأنّ قلبي ، وَهَذَا بالي ... يبدو لي أن أهْبَةَ السفر
ليست من التعقيد على النحو الذي كنتُ أتصوره ...
وما كدتُ أستريح إلى هذا الخاطر حتى وقع بصري على
إضامة متنفخة تحوى بعض الأوراق الخاصة بإدارة أعمال ...

وانسرحت أفكر... يجب أن أصفنى هذه الأعمال ، وأن أكلها إلى من يحسن إدارتها في غيبتى... ها هو ذا عمل ليس بالهين الميسور ، ولكن إنجازَه لابد منه على أيّة حال !

وماذا بعد ؟ وهنا انبرى أمامى شَبَّاحُ لجنة العُملة ، ومن ورائه تبدو أشباحُ آخر : المصارف ، مكاتب الصيارفة ، دار شركة الطيران ، وما إليها... وما لبثت هذه الأشباحُ تتدافعُ دونى وتتواثب . يحاول كلُّ منها أن يكون أولَ آخِذٍ بخِناقى ! وفى أثناء هذا الهرج والمرج أحسستُ ديباً فى دُرْجِ مكنتى ، وَهْمَسًا يَرِفُ على مسَمْعى ، وإذا بى أنصت إلى من يقول : أنا رائدُك الأولُ... أنا مفتاحُ الطريق... لن تستطيعَ بغيرى سَفَرًا !

فجذبت الدُرْجَ إلى ، فإذا بجواز السفر يعلو بهامته جدّ مُعْتَزّ ، فمددتُ إليه يدي فى تخشع ، ثم انثيتُ أميط عنه الغبار أمامى تلك الأيامُ الأربعة : لإنجاز هذه المهام وما يتصلُ بها أو يتفرّعُ منها... ومن هذه الفترة القصيرة يومُ الجُمُعَةِ الذى تغلّقُ فيه مصالحُ الحكومة أبوابها ، ويومُ الأحد الذى تأخذُ فيه المصارفُ ومكاتبُ العملة قسطها من الراحة والتعطّل.

فليكن .. أمامي يومان؛ ثمان وأربعون ساعة طوال عراض
 مهما تقطع منها ساعات نوم واستجمام فالبركة فيما يَبْقَى !
 وشمّرتُ عن ساعد الجدِّ ، وأطلقتُ ما أختزنه من قوة
 ونشاط وحماس ، وانطلقتُ أعمل ... كان مثلي كـمـثـل تلك
 الأشباح السَّيِّئـمِـيَّة حين يُخْطِئُ العاملُ في تحريكها فتلهـجـها
 على الستارة البيضاء خَواطف مضطربات !
 وانكبتُ على الاستثمارات أَسْتَوْفِي تحريرها ، فما أكاد
 أفرغُ من واحدة حتى تعترضني الأخرى. أما الإمضاءاتُ فكنت
 أبعثرها ذات اليمين وذات الشمال. وجعلتُ أذرعُ الطريق بين
 لجنة العملة والمصارف وبين المصارف ولجنة العملة مشنى وثلاث
 ورُبَاعَ ... إن شركة الطيران تستمسكُ بموعدها لاتأخر عنه ،
 وإن المَصْرَفَ لا يحوّل مليما واحداً إلا بتصرّياتٍ مستوفيةٍ
 للشروط ، مذيلةٍ بإمضاءات معترف بها على أوراق رسمية ،
 ولكن لجنة العملة لا يعينها من ذلك كلّ شيء ، فأعضاؤها
 الموقّرون في شُغْل بشؤونهم وآفاقهم عن ضيق الوقت ودقة
 الموعدِ وتعجّل الناس !
 وتعلبتُ بين عَشِيَّةٍ وضحاها كيف أكونُ هجّاماً لجوجاً

ملحاحا؛ واستبان لى ما لهذه الصفات المباركة من فوائد طالما
أنكرتها وأنحيتُ باللائمة على ذويها...

ثم ألقىنى بغتةً ، وأنا أتلقُ الدولارات ، من مكاتب
السيارة ، قد أصبحتُ بالرغم مني خيراً فنيّاً في العملة
الأمريكية ، أميز بين الدولار ، الجيد والزائف ، الحرّبي
والمدنيّ ، المباح والمحظور !
وأحسستُ بأعصابي تنهار...

إنها حربُ أعصاب في مُقْتَبَلِ ساعاتِ السّلم !
وأخيراً تمَّ كلُّ شيء بما يشبه المعجزة ، ووجدتني مزوّداً
بكل ما هو مطلوب من التصريحات والمستندات والمعدات ...
وألقيتُ نظرة خاطفةً على محفظة جيبي ، فإذا هي قد تورّمت ،
وإذا بسطحها قد بدا عليه ما يشبه التضاريس والهضاب !
وحلّت ساعةُ الميزان ، فمرّرنا بحقائبنا في الطريق إليه ، كأننا
نجتاز الصّراط .

ثم صعدنا في السيارة الحافلة مع رُفقة السفر ، وبدأنا نعرفهم
بنظرات حَيَّة متعشّرة ، وكأن لسان حالنا يقول :

أقبلون نحن على سفر يسلمنا إلى عالمنا المنشود ، أم على

سفر يصير بنا إلى عالم الخلود ؟
وتحركت السيارة الحافلة ، تتأثرها سيارات المودعين ،
وكانت الساعة قد تجاوزت الواحدة بعد منتصف الليل .
وقضينا الوقت في صمت لا يقطعه إلا نثارُ ألفاظ وظلال
ابتسامات تضطربُ بها الشِّفاه . . .

ودخلنا مطارَ « بين فيلد » تلك المدينة التي شيدها
الأمريكيون في أخرج ساعات الحرب ، تلك المدينة العامرة
الزاخرة تخرقُ رحابها الطرقُ الفسيحةُ المعبَّدة ، تلك المدينة
التي تبدو في ظلمة الصحراء المترامية ، وقد أضاءتها سواطعُ
المصابيح الكهربائية معلقة في الفضاء أو متناثرة على أديم الأرض .
واقننا أننا إلى « الجمر » . . . وما إن بلغت حوزته حتى
ثارت في نفسي ذكريات غيرُ محببة .

« الجمر » . . . هو تلك الساقية العظيمة تدور رحاها في
قوة وجبروت ، ولكنها في واقع الأمر تدورُ على نبع غاضٍ
ماؤه ، فإنك لتسمعُ نعيمَ هذه الساقية يشقُّ أجواز الفضاء ،
ثم لا تلمحُ لمائها من أثر !

« الجمر » . . . هو تلك المؤسسة التي أنشأها قوم حاقدون

على البشريّة ، فاتخذوها أداة تنكيل ، وسوط عذاب !
إجراءات تافهة تُشير الضحك إن لم تُسر الغيظ وترهق
الأعصاب .

وظهرت الاستثمارات عوداً على بدء...
علينا أن نحررها ، وأن نستوفيها بإجابات غاية في التفاهة ..
وحَنَيْنّا هاماتنا نكتبُ ونُمضي . وأحياناً نَسأل :
ما المرادُ بهذا السؤال ؟ وكيف يكون عنه الجواب ؟
وارتفعت يدُ الضابط بالخاتم العظيم تضربُ هنا وهناك
في مهارةٍ حريّةٍ بالتقدير .. إنه ليضربُ ضرباً مُحْكماً كأنما يسدّد
الطعنَ في ميدان القتال .. وأخذ الضابطُ الهُمام يحفّفُ ما تَقصّد
من جبينه في زَهُو المنتصرِ الغلاب .. ألم يؤد عملاً بالغ الجلالة
عظيم الخطر ؟ إن ورقة تخلو من ضربةٍ واحدة من خاتمه
العظيم كفيلةٌ أن تقضيَ على صاحبها التاعس بالحرمان !
ثم اتجهنا إلى الإخوان الطويلِ صُفّت عليه الخقائب ...
هذا ضابطٌ آخرُ تَشَمَّرُ واهتمَّ ، وأخذ يتصايح :
تلك الحقيقة تُفْتَح ، أما هذه فتُحْمَلُ إلى الخارج ، ماذا في
هذه اللّفيفة ؟ حذار أن يكونَ في ذلك الصّدوق شيءٌ محظور !
(٢)

فلا تكاد الكلماتُ تتناثر من فمه ، حتى تتحرك الحقائق
وما إليها من الأمتعة غاديةً رائحةً كأنما تحركها يد ساحر !
ومثلنا أمامَ الحيوان ، كلُّ منابر تقبُّ نوبته ، فبدَّهمني
شعورٌ مُبْضٌ ، شعورٌ يرى مهدراً كرامته ، يرى نفسه في قاعةِ
محكمة وموقفِ اتهام ؛ كأنه أحدُ مهرَّبِي المخدرات !
وأخيراً أفرج عنتاً ، فخرجنا « طابوراً » من بهو « الجمر »
ومن حوْلنا الأهلُ والرفاق ... خرجنا إلى ساحةِ المطار ، فإذا
« أبو الهول » رابضٌ أمامنا ، باسطٌ جناحيه ، على أُنْبَسَةِ الطيران
كان باسمه التاريخي العتيق وهيكله العصري الحديث ، كأنما
يجمعُ بين جلال الماضي وتليد مَدِينَةِ الحاضر المشرقة الزاهية .
إنه رمزُ حضارتين عظيمتين : حضارة « مصر » العريقة ،
وحضارة « أمريكا » الفتية المتوثبة .
ولبثتُ لحظةً أتأملُه .

لستَ جماداً يا « أبو الهول » !

ما أنتَ إلا مخلوقٌ حيٌّ ، طائرٌ ضخمٌ من فصيلة النسور
والعقبان ، بل أنتَ أخو الرُّخِّ وصنوُ العنقَاء ، طائرٌ هائل
الجِرم بما تدورُ عليه أساطيرُ الأولين ...

نحن مقبلون على أن نحيا معك في أسطورة جديدة نخطها
معاً في سفر الوجود !

ما أبهاك في لونك الفيضي !

إنك لتألق وسط الظلام كشعاع الفجر ينتظر خلف
أستار الأفق البعيد .

سنسئلك أرواحنا أيها الطائر العظيم ... فهي وديعتك
إن شئت أضعتها هباء ، وإن شئت كنت لها الحافظ
الأمين .

وتلفت حولى ، فإذا بي أنا وزوجى يحيط بنا المودعون .

إذا حانت ساعة الوداع ...

وشعرت بغثة كأن قلبي تنصره يد قاسية ...

وثار بي فجأة ذكريات ... ذكريات يزحم بعضها

بعضاً ... ذكريات شتى جليلة وتافهة !

في هذا الموقف الدقيق تتخايل لنا حادثة قديمة ليست بذات

بال ، أو يبدو لنا وجه تعجب كيف انفسح له مجال الظهور ؟

وتنداعى المشاهد فى مخيلتنا ، وتلاحق سراً ، حتى

تجتمع كلها ، وكأنها تدور حول محور واحد ولا تنفأ تدور .

وننظر إلى المودعين نظرةً ساهمة ، ونبدأ نودهم مصاحفين
أو مقبلين، وتثور في النفس رواقد الشجون، وتنكشف للبرء
منا تفاهته العجيبة، وتنهار في لحظات تلك الشجاعة التي نتعنى
بها مُفاهرين، فنغدو نحن الرجال أمام وداع طفل صغير قد
تصاغرنا، وأصبحنا في مثل حجمه وعقله وشعوره !

أى بُنى :

إن وداع الأحياء رائع مُشيرٌ لِأَخْفَى كوامن الشعور ،
ولكن ثِقْ أنه لا يقياس بشيء أمام وداع « الراحلين » !
إننا حين نودّع الحَيَّ فإنما نشاهدُه ونلمِسُه ونناقلُه
الكلام ، أما « الراحل » ، فإنما نستشعرُ وجودَه فحسب ... إنه
يبدو من أغوار الظلمات ليطالعنا من بعيد متخذاً له مكاناً نائباً
عن الزحمة والضوضاء ، لا نشافه بحرف ، ولا نودّعه بقُبلة ،
ولا نبادلُه شيئاً حتى الإشارة والتلويح !
ثمّة نظرات صامئة تصحبُها ابتسامات رقيقة كلُّها صفاء
وحنين .

هذا الطيفُ الرقيقُ يظلُّ في أفقه ، لاضلةً بيننا وبينه
إلا صلةُ الروح بالروح ...

أى بنى :

ها هو ذا كلُّ شيء قد اختفى من حولنا ، فلم يعد إلا أنت
وأنا وحدنا .

لقد تزايلت أصواتُ الأحياء بما تحمِلُ من تحية وتوديع ،
وبقيت أنت .

أنت الوحيد الذى مازلتُ أراه .

إنك لتلأ على الرُّحَابِ والآفاق .

وإنى لأحسُّ وجودك إحساساً كلُّهُ صدق ويقين . . .

[وجودك مادةً متجسِّدةً لا طيفاً من عالم الرُّوح !

حقاً إن الموتَ لأعجزُ من أن يفرقَ بين حبيَّين .

إنه ليومُّنا أنه أقام بيننا القواصلَ والحدود .

زُورْ وُهِتَانِ !

ما أغفلَكَ أيُّها الموت . . .

تَحَسَّبْ أنك انتصرت ، وما أنت إلا منهزم مقهور !

.. وصعدنا في الدَّرَج ندخل « أبا الهول ».

وغبنا في جوفه ، فكأنما التقمنا ثحوت !

وطافت بمُخِيلَتِي قصة « يوتسر » ، فساءلت نفسي :

أبكون حالنا كحالهِ ، ومآلنا كمالهِ ؟

وقصدتُ أحدَ المقاعد ، فتهاكتُ عليه .

وسمعتُ صوتَ الباب يُدْفَع بشدَّة ، فإذا هو بفصلُ يئنا

وبين عالمِ الأرض !

وترأت لأعيننا جملةً مكتوبةً بأحرفٍ من نور :

« التدخين غيرُ مباح ... لِيَشُدَّ كل منكم حزامه .. »

وسرعانَ ما شاهدتُ شابًّا طلقَ المحيّا في حُلّة رمادية رسميّة

تنطقُ كلُّ جارحةٍ فيه بأنه أمريكيّ أصيل ، فدنا مني في تَلَطَّف ،

وأخذ يُعينني على عَقْدِ النطاقِ حولي ، فأصبحتُ إلى مقعدي

مشدوداً لا أستطيعُ البَراحَ .

وبدأتُ المحرّكاتُ تُدَوِّي ، وأحسستُ « أبا الهول » ،

يتحرّك ، وما هي إلا أن رفعَ هامته ، فإذا نحن بعدَ لحظات

نشقُّ الأجواءَ صُعُوداً إلى السماء ، تحيِّنا بسِماة السَّحَر !

وأيضا الباء، والسنة من تأليفه...

ات به لتفتتا الألة، به به لتفت...

رسالة تشايفه، ورسالة تشايفه...

ما كان تشايفه، باللات تشايفه...

٦ أبريل ١٩٤٦

فله تشايفه، تشايفه تشايفه...

كانت أصواتُ المجرَّات ما بوحثُ التَّطِينِ وتُدَوِّي ،
والطائرة تمرق في أجواز الفضاء مُرووقَ السهم ، بل مُرووقَ النور ،
وأنا ممدّد على مقعدي الفسيح الوثير ، ذلك المقعد الطيع الوديع ،
فإنك بلسة واحدة تُحيله سريراً ممدداً ، وبحركة خفيفة تُعيده
مقعداً كما كان . . .

وشغرتُ بجفنيّ يتأقلان ، فأنفذتُ بصري في جهد من
الطاقِ المجاور لي ، لكي أستوضحَ مكاننا في الجوّ ، قبل أن
أستسلمَ للشُّبَات ، فلم يطالعني إلا ظلام بدأ يشِفّ وترقّ
غِلاظه ، ولحمتُ ابتسامةَ الفجرِ تلوّج في حياءٍ وخفَر من وراء
الآفُق ، كما تلوّجُ ابتسامة العذراء خلفَ النِّقابِ .

ورَجعتُ البصرَ أردّده فيما حولي ، يحدوني فضول ، فلم
أجدُ إلا أجساداً ترامت فوقَ المقاعد ... ولاحظتُ اختفاء

اللوح المضيء الذى كان يُعْشَلُنْ حُظْرَ التدخين ويأمر بشد
 الأحزمة . . . وبدت حسناء أمريكية السَّحْنَة تمدانى متى فى حُلَّتْها الرماذية
 الرسمية لتسعينتى فى تلطف على فكَّ النِّطَاق ، ولتسُظ على
 رُكبتى دثاراً من الصوف . . . إن النساء حقاً بقلوبهن الرِّقَاق
 لماهرات فى فكِّ أسرار السجين ، وتفريج شدة المكروب ،
 وإنهن بغريزتهن الأصلية لماهرات أيضاً فى تصفية القلوب .
 وأخذ الكرى يغالبنى ، فشعرتُ بحفى يتراخيان . . .
 وإذا شبحتى الفتاة والفتى الأمريكيتين فى لبوسيهما الرماذى
 يتخيلان أمامى متزايلين . . . إنهما أقرب لما يكونان شهماً
 بكواكب « السينما » الأمريكية ، فى وسامتهما ورشاقتهما ، فى
 شمائلهما العذاب . . . أنى طائفة نحنُ نقصدُ موطن « السينما » ، أم
 نحن فى « هليود » نفسها نشترك فى تمثيل « فيلم » عظيم ؟
 واستبدتْ بى الكرى ، وأحسستُ قشعريرة السبرد
 تتَظْمُننى ، فتجمعتُ على مقعدى أتلفَّفُ بالذَّثار ، وأسلمتُ
 نفسى لنوم عميق . . . وأيقظنى صوتٌ يقول : « آتينا » بعد دقائق . . .

واستمرَّ الصوتُ يرددُ قوله وقتاً ، وإذا باللوحِ المضيءِ
يعود ، فقرأنا : « التدخينُ غيرُ مباحٍ . ليشدَّ كلُّ منكم حزامه . »
وامتدتْ يدي إلى النطاقِ أشدَّه . وألقيتُ أشعة الشمس
قد تسلك من الطاقات ، وأخذتُ تعبثُ بنوم النائمين !

« أتينا ، بعد دقائق . . . »

نظرت في ساعة يدي ، فألفيتها الثامنة صباحاً .
لقد عبرنا سماءَ « بحر الروم » في ثلاث ساعات
ونصف ساعة .

يا سبحانَ الله ! . . . هذا البحر العظيم تعبْرُهُ البواخرُ في
أربعة أيام ، وكانتُ مراكبُ الأقدمين تعبْرُهُ في أربعة
أسابيع ؛ فما هو ذا الأسبوعُ ينطوي في يوم ، وما هو ذا اليومُ
ينطوي في ساعة ! . . .

ماذا يَجْبَأُ لنا العقلُ البشريُّ من أعاجيب ؟

ماذا يَفْجِئُنا به الزمن من أحداث الغد ؟

ماذا يكون من الأمر إذا تمَّ اختراعُ القذائف التي تدفع

بالبطائرة من أقصى الأرجاء إلى أقصاها في غمضة عين ؟ . . .

رَبِّ ارحم الأرض من عقولِ شياطين البشر !

وتطلعت من الطاق ، فرأيتُ « أتينا ، تنبسط تحت
أنظارنا بأبنيتها المتواضعة الساذجة ، وخُلجانيها الرشيقة
المُتعرَّجَة ، وحقوقها التي تتخلَّلها المروج ، وجبالها التي يبدو
بعضها مُورقاً غيرَ ماحل ... وتراهي لنا « الأوكروبيل ، بأعمدة
كأنه على البُعد يُخَفُّ لاسْتِقْبَالِنَا طاوياً إلينا سِوَالفِ العصور
وماهى إلا أن أسفَّت الطائرة تصافح الأرض .

ونزلنا ...
إنها « أوربا ، التي نخطو عليها ، وكنا قبل سُويغاتِ نخطو
على أرض « مصر ، ...

أى « مصر » يا وطنى الحبيب : إنه ليفصلنى عنك الآن بحر
مواجٍ عجاج ، أميال وأميال ، وإنى لأحسُّ على الرغم من
مُشَوِّلِ الطائرة لعينى ، ودلالة الساعة على قِصَرِ الزمن بينك
وبينى ، أنك قد أصبحت بعيدة المنال منى !

ورأيتنى أدلفُ إلى مقْصَفِ المطار : بهو ساذج غيرُ فسيح
الجنَبَات ، مُدَّتْ فى أرجائه الأخوثة المستطيلة . وقبل أن
أملأ منها عينى وجدتها قد غصَّت بالقُصَّاد ، كأنهم سُرِب من
الجراد يُطبِّقُ على حقل خصب ... ووقفتُ خلفِ حِوانٍ

أُتْلِفَتْ جُولَى فِي عَجَبٍ ، وَسُرْعَانِ مَظْهَرَتْ غَادَتَانِ إِغْرَبَقِيَتَانِ
تَحْمِلَانِ صَحَافَ الْأَطْعَمَةِ وَأَكْوَابَ الْأَشْرِبَةِ تَطُوفَانِ بِهَا عَلَى
الْجَالِسِينَ فِي سُرْعَةٍ خَاطِفَةٍ . وَمَا هِيَ إِلَّا أَنْ انْطَلَقَتْ الْأَيْدَى
تَغْدُو وَتَرْوِجُ بَيْنَ الصَّحَافِ وَالْأَفْوَاهِ ، وَانْمَثَّتِ الْأَسْنَانُ تَطْحَنُ
وَتَلُوكَ ، وَسَمِعَتْ قُرْقُرَةً « الْقَهْوَةِ » تُسْكَبُ فِي الْأَقْدَاخِ ، وَتَتَدَلَّقُ
فِي الْأَشْدَاقِ . . .

وَيَيْنَمَا كَانَ ذَلِكَ يَجْرَى فِي حَرَكَةٍ دَائِبَةٍ . ظَلَمْتُ فِي مَوْقِفِي
خَلْفَ الْخَوَانِ ، تَتَطَلَّعُ عَيْنَايَ فِي صَمْتٍ وَسَكُونٍ .
وَأَخِيرًا سَمِعْتُ صَوْتًا دَفِينًا يَتَعَالَى مِنْ صَمِيمِ أَحْشَائِي ، وَكَأَنَّهُ
يَقُولُ : أَتَظَلُّ تَرْقُبُ الْمَعْرَكَةَ دُونَ أَنْ تَخُوضَ غَمَرَهَا ؟
وَشَعَرْتُ عَلَى الْفُورِ بِالْحَيَّةِ تَتَّقِدُ بَيْنَ أَضَالَعِي ، فَصَحَّحْتُ
عَزَائِمِي عَلَى أَنْ أَعْمَلَ . فَلَبِثْتُ أَتَرَصَّدُ لِمَا تَتَوَقَّعُ الْمَقْصَفُ . كُلَّمَا
طَلَعْتُ إِحْدَاهُمَا نَادَيْتُهَا أَذْكَرَهَا بِأَنْ تَمُتَ جَنْدِيًّا قَدْ أَخْلَفَنِي
الْحِظُّ ، وَرَمَى بِهِ فِي سَبَاقَةِ الرِّكْبِ ، يَطْلُبُ النُّزُولَ إِلَى الْمِيدَانِ
لِيَشْتَرِكَ فِي الضَّرْبِ وَالطَّعَانِ . . . وَلَكِنْ نِدَائِي لَمْ يَلْقَ أَذُنًا
صَاحِيَةً . . . كَانَتِ الْغَادَتَانِ لَا تُعِيرَانِ وُجُودِي أَيَّ التَّفَاتِ ،
إِنَّهُمَا تَذْهَبَانِ وَتُسَوِّبَانِ كَأَنَّهُمَا دُمَيَّتَانِ صَمَمَتَاوَانِ !

ليست بكارِقةٌ يافتاني المقصف، وليس لكها مسحة
من جمال الإغريق التليد !

أين ماتغنى به شعراء الزمن من تلك الرقة وذلك الظرف؟
أين قوام « فينوس » الذي فتن الأجيال، وغدا مقياساً
للوامة والفستون؟

لستما إغريقيتين وحق الآلهة... ما أتما إلا مخلوقتان
يونانيتان صُبنا في قالب أمريكية زائفة !

وكاد يذكر كنى اليأس، وحسبت أنى لن أصيب فطورى،
وأنى سأقضى فترةً في صيام... ليس على في ذلك من ضير،
فلا جرب حظى من الصوم في غير إبانة... !

وبدأت أستعيد ما وعته الذاكرة مما تفيض به صُحفنا
المصرية في مُستهل شهر رمضان من فلسفة الصوم، وما يفيئه
على الجسد من بركة وخير... وكنت أجتر هذه الحواطر في
استمتاع، وأهض منها على مهل !

وصحوت من تفكيرى على يد كريمة تجتذنى إلى مكان
تخلنى عنه صاحبه، يد زوجى وهى تقول:

أشرع، فليس في الوقت متسع...

يبدولى أن زوجى لم تشاركنى التفكير فى فلسفة الصوم ،
وما فيه من تطهير للنفس وإصلاح للجسد !

وأقبلتُ على الطعام والشراب ... إنه طعام أمريكى من
الصَّنَف السَّائِع : عصير « جريب » ، « فروت » ، ضرب من
الفطائر مُشْرَبٌ بسائل البيض ، قهوة فيها مزاجٌ من لبن ، إلى
شَذَرَاتٍ من زُبْد ، وقليل من مُرَبَّيَّات .

وَفَنَيْتُ الخَسُّ والثلاثون دقيقة التى مُنِحَتْهَا للراحة فى
« أتيناء » ، فارتفع صوتٌ يدعونا الى مغادرة المقصِّف ، وهُرُّعْنَا
الى الطائرة ..

صوتُ الباب يُقْفَلُ ، ذلك الفاصلُ الحديدى بيننا وبين
عالمِ الأرض .

المحركاتُ تُدَوِّى .

عُرُوجٌ الى السَّمَاء ..

حَلَلْنَا « أتيناء » ورحلنا عنها ، دون أن تكتحلِ أعينُنَا
بمَرَأَى شَيْءٍ مِنْهَا .

أَحْسَنُ ما ظفِرتُ به من « أتيناء » هو تلك الذِّكْرِيَّاتُ
التي طافتُ برأسى ، فارتفعتْ بى وقتاً الى سَمَاوَاتِ « الأولمب » .

أشهد الروائع من أساطير الأولين .

هذه إحدى مساوى الرحلة بالطائرة !... إن الطائرة
تتمر بك على المدائن مرّ البرق ، فلا ترى منها إلا ظلالها ، أما
معالمها وبجاليها فلا تستمتع منها بقليل ولا كثير .
وغلبنى الكرى ثانيا ...

ويحك من زائر بغض فى هذه الساعة الفريدة أيها النوم
العتى !... إنك لتحرمنى أن أشهد ما يجرى حولنا وما يلوح
تحتنا من ملكوت الله !

وما كدت أراجع يقظتى ، وألقى بنظرة من الطاق ، حتى
طالعتى بحر تسبح فيه جزر تسترعى الانتباه بجمال أوضاعها ،
ورشاقة حجوماتها ، كأنى أقلب الناظر فى مصوّر جغرافى مجسم
ما تتحلّى به المتاحف الحديثة .

ثم ما عتَمْنَا أن وجدنا أنفسنا نخلّق فى آفاق إيطاليا ،
جبال وسهول ومروج .

فسرّحت عيني ترطويان من خلاصة هذه المفاتن ...
وما بلغت الساعة منتصف الواحدة بعد الظهر ، حتى
تجلّت روما ، بمبانيها العظيمة ، وقبائها الرائعة .

هبوط ..

خروج إلى مبنى المطار ... لم يرُ عنا منه جديد . أمامه ساحة محدودة مسوّرة . أطلقونا فيها لنروض أقدامنا على الخطو ، فكنا فيها بين ذهاب وأوبة نمدُّ أبصارنا فيما حولنا نستطلع الجديد من الوجوه ، فكأننا قطعُ من الحيوان في حظيرة . فنظر إلى نفر من المتفرجين !

وقضينا في تلك الحظيرة الآدمية ساعة ، ثم عدنا إلى الطائرة ، وعادت هي تستأنف التحليق ...

وخلوت إلى نفسي أقيّدُ خواطري ، وأنا ممدّدٌ على ذلك المقعد السّحري ، وما هي إلا أن صافح أذن صوت رقيق يسترعى انتباهي ، فإذا الغادة الأمريكية ذات الحلة الرمادية الرسمية تضع على ركبتيّ صينية بلّورية يتأرجح منها شذا الطعام . وجعلت أتطلع إلى الصينية معجباً بها .. لقد قُسمت أقساماً تمتاز بالدقة والاناقة والنظافة : هنا موضع يحتله إناء الحساء ، يرافقه موضع لقدح القهوة ، يناصره موضع ثالث لكوب مليء بعصير الطماطم ، ، وهناك ركن يترخّر بلحم وأشتات من الخضّر ، وعن كئيب منه كوب من الورق يحوى جانباً من المربّى ، وقطعة رشيقة من الفطير .

ها قد بدأنا تذوق معالم « أمريكا » ...
وانبريتُ أتناولُ طعامي في شهية نادرة ، تغمرني
طمأنينة و دعة .

أين وجبة « أتينا » المرهقة الخاطفة من هذه الوجبة
الهيئة المريحة ١٩

وآنست في حركة الطائرة اضطراباً كاد ينفلت منه كُوبُ
تصير « الطعام » من يدي ... فتلفتُ أتبينُ الأمر في انزعاج ،
فإذا بالطائرة لا تفتأ تضرب . تصوّب وتُصعد ... وتذكرتُ
ما سمعته قبلاً في شأن « جيوب الهواء » التي إذا صادفتها الطائرة
في تحليقها تعثرت خطاها .

وتكرّر هذا الاضطرابُ وقتاً ونحن نترنح في مقاعدنا ،
وحيالنا الصواني تتراقص ، فنحاول أن نتابع أكلنا ، نوهمُ
النفس أن ليس في الأمر ما يريب !

وألقيتُ بنظرة من الطاق ، فألفتُ الطائرة تعلو على
الشحب ، تمرُّ من فوقها في زهو وخيلاء .

ومرّ ذو الحلة الرمادية الرسمية بجاني ، وابتسامته تحلّ

محيّاه . فوجدتني أستوقفه لأحظي منه بكلمة يطمئن إليها القلب . . . فقلت :

رحلة لطيفة !

— من أطف الرحلات . . . إننا نعلو على سطح البحر نحو ثلاثة آلاف متر ، ونسير بسرعة مائتي ميل في الساعة . وتبادلنا رقيق الابتسام .

وعدتُ إلى كُوب « الطماطم » ، أشتفُ ما فيه ، وعادت الطائرةُ تعابثُنا بخطاها المتعثرات .

ماذا بك يا ، أبا الهول ، ؟

لقد كنت رزيناً وقوراً ، فما بالك تخلعُ ثوبَ الرزانة والوقار ، وتمضي متراقصاً متخلعاً ؟

معذرة ! . . . لا تراقص منك ولا تخلع ، إنك تُريدنا على أن نحسَّ وجودك ، وتعرفنا أن أرواحنا رهْنُ مشيتك ،

وأنك شديد البنأس في مجابهة الطبيعة ومناوأة الرياح !

على أن « أبا الهول » ، ما لبث أن عاوده وقاره واتزانه ، فاستأنفنا الأكلَ في هدوء واطمئنان .

ولاحتُ معالمُ « سويسرا » ، تحت الأنظار . . . جبال

شوايحُ تعتمُّ قسَمُها بناصعَ الجليد ، كأنها نُسَّاكٌ من الشيوخ
متعبِّدون عليهم جلاله ومهابة ، ترفعوا عن زَحْمَةِ الحياة وضجيج
الأرض ، تفلُّوا إلى أنفسهم معتكفين . . . وهنا وهناك نُفَطِّطُ
متناثرة ، تلك هي البَحِيرَاتُ السويسرية ، تَشْخَصُ إلينا ملتمة
كأنها أعينُ الغواني تحاولُ أن تُوقِعَنَا في حبائل الفتنه والسَّحر !
واجتَبَرْنَا المِنَطقة السويسرية ، وانتَشَتُ تحيينا سماء
« فرنسا » . . .

لقد قطعت الطائرةُ في رحلتها شوطاً طيِّباً .
وأصبحنا نحن رُفَقَةُ السفر ، نشعُرُ بأننا أسرة واحدة ،
تربطنا أواصرُ مودَّة وصدقة ليست وليدة ساعات ، فإننا
لنَسُحِّي بعضُنَا بعضاً من قريب أو من بعيد ، بمناسبةٍ أو بغير
مناسبة ؛ وإننا لنهادي الابتسامات ، وإن لم يكن ثمة ما يبعث
على الابتسام . وقد يرى أحداً حَلَقَةً من رفاق يخوضون في
حديثٍ ذي شأن ، فيقشِّحُ نفسه بين المتحدثين ، ويطارحهم
الرأى ، ويبادلهم التَّقَاش ، دون أن تكونَ لهم سابق معرفة
أو مخاطبة !

لقد شَمِلَ الطائرةُ جَوْثُ من ملاطفة وإيناس . . كنَّا أفراداً

متباينين مختلفين أشدَّ اختلاف ، بيننا المسلم والمسيحيّ
والإسرائيليّ ، المصريّ والأمريكيّ والفرنسيّ واليونانيّ
والإيرانيّ ، الكاتب والطبيب والدبلوماسيّ والاقتصاديّ ،
الصبيّ الناشئ والفتى الفارع والرجل الناضج والشيخ الهرم .
وعلى الرغم من ألوان هذه الفروق لم نكن نحسّ إلا أننا
لآدم ننتسب ، وأنا إخوة متوافقون . لا حقد ولا منافسة
ولا كبرياء ، ولكنّ يشملنا تعاونٌ وتآلفٌ ووئام .

بورِكَ فيكَ « أبا الهول » !

لقد صهرت في بوتقتك الفضائية فروق الجنس والسن
والدين ، وأحلتنا أناساً من طراز أرفع وأسمى من
طراز البشر !

وسمعنا صائحاً يقول :

سَهَبَ « باريس » بعد هَيْبَةٍ .

ووجدتني أتحسّس وجهي ، فاصطدمت بتلك الشّعرات
الخشنة تملأ عارضيّ ...

ويلاه من تلك اللّحى الكريهة التي تطلق لنفسها حارقة
النّمـو في غير حياء ولا تورّع ...

لقد نَسَيْتِكَ يا صاحبتى !
سأَقْصِدُ تَوًّا إِلَى الْمَغْسِلِ لِأَزِيلَكَ فِي طَرَفَةِ عَيْنٍ ...
ولكن أنسى لى أن أترك تلك الجلسة المريحة على مقعدى
الوثير ، وأنا أهيم فى آفاق من الذِّكْرِيَّاتِ والأخيلة
أفسح مما تهيم فيه الطائرة من آفاق ؟
أتى لى أن أترك مكانى حيث أستمع بما أطلُّ عليه
فى مجلسى من روائع المشاهد ؟ ...
أى ضيّر فى أن نرْجى أمر اللحية إلى حين ؟
ولاحظ « باريس » تحت الأنظار ، « باريس » العظيمة ،
غانية المدائن ، وفاتنة الحواضر ، ومخطّ الرّحال من كل
صوب وحدب !

ما كدنا نطأ الأرضَ الفَرَ نسيّةً ، حتى صاح بنا صائحٌ يقول:
الرجيل بعد ثلاثة أرباع الساعة .

فأسرّعنا إلى ساعاتنا نتبيّن فيها الوقت ، فإذا نحن في منتصف
السادسة ، ولكن سرعاناً ما نهتئنا ساعة المطار إلى أن الوقت
هو منتصف الخامسة ، فأدركتنا أن الستين دقيقة هي فرق
الوقت بين « مصر » و « باريس » !

وخطونا إلى مبني المطار ، فما راعنا إلا ذلك الصوت العتيق
يصبح مجليلاً : المبيت الليلة في « باريس » !
وتبادلنا نظرات العجب والدهشة ...

لم يكن في برّناج الرحلة أن نقضى ليلةً في مدينة النور .
فيم هذه المفاجأة ؟ أجدّ أمر ؟ وعرفنا بعد طول التّحرّري
والاستقصاء أن ليس الأمر إلا نزوة من نزوات الطيران !
ودخلنا قاعة « الجمر » لننال قسطنطين العذاب والإعانات ،
وظهرت الاختام تضرب صحائف الجوازات ، ونشّرت الحقائق
على الحوان ، ووقفنا أمامها صفّاً كصفّ المسجونين ، كلٌّ ينتظر
دوره وحسابه !

وتركنا القاعة يقودنا رجلٌ ربّةٌ أشقرٌ يحمل في يده

قائمةً بأسمائنا ، وكانت القائمةُ لا تفارق كَفَّهُ . وهو لا يفتأ يردُّ النظرَ فيها ، يحاول أن يحلَّ طلاسمها . ووقف بنا أمام السيارة الحافلة التي أعدتْ لنقلنا إلى المدينة ، وبدأ يُدليّ علينا تعليماته في شأن المبيت والغدوَّ إلى المطار كان يُلقى هذه التعليمات بلغة فرنسية صحيحة ، ولكن بلهجة غير باريسية له من سكان « الألزاس » ، وما إليها ؛ عينٌ زرقاء ، وشعر مُذهَّب ، ومُحَيَّا سَمَح صبيح

وصعدنا في السيارة ، فوقف الرجلُ يبابها ينادي الأسماء ، يستوثقُ من وجودنا ، كأننا تلامذة مدرسة يريد أن يُثبَّت الحاضرَ منهم ويعرف المتخلف كان يلفِظُ الأسماء في تحريف يبلغ حدَّ الشذوذ ، فيثير عاصفةً من الدُّعابة والمرح ذكرَتي معابث الصَّبِيَّة لِأساتذتهم في معاهد التعليم ، ولكن الرجلَ كان يتلقى هذه المعابث بصبرٍ واحتمالٍ جديرين بالتقدير . وانصرف عنا الرجل يستوفي الغائبين ، يتصيَّدُهم فيما يلوح له من المِظَان ، فلما استتمَّ العدد تحركت السيارة الحافلة تقطعُ ضواحي « باريس » ،

وجسنا خلال الطرُق الفِيسَاح تقوم على جانبيها الأبنية

الشواهي ، وجعلنا نطوف بأبصارنا في تلك الأرجاء .

أيُّ منظرٍ هذا ؟ ثمة ركود وتجمُّع وعُيُوس يبدو على الجمادات كما يبدو على الأحياء سواء بسواء .

أفي « باريس » نحنُ حقًّا ، وفي فصل الربيع ؟

لم نكن نشهدُ من مجالي ذلك الربيع إلا شجيرات موروقة من حولها نهاراً أزهار تعالج في جهدٍ أن تتفتح في إشراق !

وبلغنا الفندق ، وكان في جوار نهر « السين » . فندق من

فنادق « باريس » الفخمة المشهورة ، اختارته لنا شركة الطيران لتقضي فيه ليلة الانتظار . دون أن تسألنا على المبيت فيه أجرًا .

وحللنا الفندق ، فاستبان لنا من أول نظرة فيه أنه أشبه

شيء بشيخ طحنته السنون ، شيخ عليل مهدم يحاول أن يحتفظ بأناقته ..

كان كأنه ذلك « الجنتلمان » الهرم الذي أفلس بعد يسار ،

وما برح يُصرُّ على الظهور أمامك في لبوس السهرة ، بشمْلته

التقليدية ، وعصاه السوداء ذات المقبض المقضّض ...

وصعدنا إلى الغرفة ، فكان أول عملٍ قمتُ به أن أطحتُ

تلك اللحية الكريهة التي عدتْ طَوْرَها !

ولما استوفينا حاجتنا من الراحة ، هبطنا إلى رَدْهَةِ الفندق .
إلى أين ؟

إلى « الكافيه دلایه » لتتناول قدحا من تلك القهوة
الممزوجة باللبن ، مفخرة هذا المشرب البعيد الصَّيت . . .
وانحطى بجلسته نستعيد فيها ذكرياتِ الماضي المحبَّب ، وننقلُ
النظرَ في الغادين والرائحين من أهل « باريس » ، نتمنى ما يُبدونه
من رشاقة وأناقة وظرف . وهم يتزاحمون على طوار الطريق
يغمُرهم فيضُ الأنوار .
إلى « الكافيه دلایه » .

وغادرنا الفندقَ نطلبُ سيارةَ أجرة .

ليس ثمة من سيارات ترى !

إذن فلنترجلْ حتى تصادفنا إحدى السيارات ، إن المشيَ
في هذه الطرق الفسيحة الجميلة وفي تلك الساعة الهادئة الوادعة
رياضةٌ مستحبة . . .

وجعلنا نسير ونسير ، ولانجدُ لتلك السيارة المنشودة من أثر .

وكان الطريقُ يكاد يكون مُقفراً من المارّة ، والسكونُ

يبلغُ أن يكون مُخيفاً يبعثُ الوحشة في النفوس .

أنى ، باريس ، الضاحكة نحنُ حقاً ؟
وبدأنا نخترقُ ساحة الكونكورده ، التى كانت فى الزمن
السالف تتألق ، وتلبّسُ حلةً بهية من الزُخرف ، فإذا بها اليوم قد
رانَ عليها خمول ، لا يرى فيها إلا مصاييحُ هزيلةٌ شحيحة الضوء ..
وبدت المسلةُ المصرية وسط ذلك التجهّم شاحخة متطلعة
فى ترفع وإباء ، كالنبيل المصقّد بالأغلال ... إنها هى وسط
الظلام والسكون ، كما كانت هى وسط الأوار السواطع والحركة
الدائبة ... هى هى تلك الصّموت الأيّنةُ تنتظرُ فى صبرٍ وأناقةٍ
ساعةَ الخلاص ، ساعة الأوبةِ إلى أرضِ الوطن !

والسيارةُ ... أين هى ؟

لا ظلّ لسيارة ، ولا ظلّ لسائر !

وتابعنا خطانا صامتَيْن ، وقد بدأنا نُحسُّ الحسرة
والإشفاق وقطعنا شارع رويال ، ومررنا بكنيسة المادلين ،
وكانت مهيبةً فى كآبتها ، كأنها غضبي تنعى على الإنسان ظلمه
لاخيه الإنسان !

وأفضى بنا الطريقُ إلى شارع الكابوسين ، ما أشبه
الطرقَ بعضها ببعض فيما يُخيمُ عليها من إقفار وإظلام وخمود .

وهذه وجهات المخازن والمتاجر التي طالما تبرجت للناظرين
والرؤاد في نضارة وتألق ، وتحببت إليهم بابتسامها الخلاب
في لطف وإيناس ، يخيل إلى أنى أراها اليوم تزيغُ بصرها عنا
وتنزوى منكشئة في خجل واستحياء ، كأنها تستنكف أن
تكشف بأساءها لأنظار ذوى الفضول !

وأخيراً انتهينا إلى « الكافيه دلاليه » ، وقد شكت أقدامنا
بعد الشقة وطول المسير .

واختبرنا مجلسنا على الطوار : حولنا موائد متشورة
لا يغمرها إلا قليل من الرؤاد ، ومن هم ١٤ أكثر من نرى
ضباطاً أمريكيون ومن على شاكلتهم ، يقضون الوقت في ذلك
الجو الموحش الكتيب .

وأقبل النادل في سترته البيضاء التقليدية ، فما إن رأيناه
حتى بادرناه بالطلب : قهوة ممزوجة باللبن ، وفطيرة « الوالش » .
إنك إذا ذكرت « الكافيه دلاليه » ، فأنت لابداً ذاكر حتماً
هذين الصنفين الكريمين من الطعام والشراب .

ووقف النادل يقلب فينا نظر المستطلع ، ثم همهم :

يبدولى أنكم غرباء !

وانحنى علينا هامساً : هل لكم في نصيحة ؟

ثم انثنى يقول : لدينا شيء يسمى قهوة ، ولكنه ليس
بالقهوة ، ولست أدري ممّ يصنعونه ؟ شراب لا يُساع
— وفطيرة « الولش » ؟

— لم يبق لها من وجود ... لقد اختفت منذ أعوام طوال !
فقلت له وأنا أزدرد ريق :

ماذا تنصح لنا أن نطلب ؟

— كأساً من شراب ... إن « باريس » لا يعيها أن تقدّم
لكم كأساً لذّة من الخمر !

— ولكننا لسنا من مُعاقريها ... وفوق ذلك نريد أن
تتبلّغ شيء .

— إذن عصير فاكهة ، وقطعة من فطير متواضع .

— أحضّر لنا ما بدا لك .

وغاب عنا النادل ، وتلفتُ حولي أتطلع إلى جِيرَتنا في
القهوة ، فإذا بفرنسيٍّ جهّم المُحيّا عن كُثب منا يخالسنا
النظر ، ويرهف إلى حديثنا السمع . وكأن لسان حاله يقول :
ما لهؤلاء الغرباء يطرُقون بلادنا ويذاحموننا على ما بقي

لنا من مأكل وشراب ؟

وأقبلت علينا حاملة الفطائر ، بين يديها الصينية المعبودة ،
فحاولنا أن ننتقى شيئاً من قليل ما حوت . وبعد جهد جهيد
وقع اختيارنا على قطع عجاف ...

إن الفطائر كصاحباتها تصدّ النفس ، وتقتل الشهية !
وحاولنا أن نقضم من الفطير جانباً ، فأعيتنا الحيلة ،
فتركناه في غير أسف عليه .

وظهر النادل يحمل عصير الفاكهة ، وأفرغ في أقداحنا
قارورتين صغيرتين ، ثم وقف يتأملنا : فقلت وأنا أصعد
النظر في وجهه الكاسيف المهزول :

شدة ما تغيرت « باريس » يا صاح !

فأجاب شارد النظرات :

شدة ما تغيرت ... شدة ما !

ثم توهجت عيناه بغته بوميض قوى ، وقال في لهجة
الواثق المؤمن :

ولكن « فرنسا » ستسترد نشاطها ومظاهرها حيوية بعد
قليل ... كل شيء سيعود إلى سابق عهده .

— حتى القهوة الممزوجة باللبن ، وفطيرة « الولش » ؟ !

فابتسمَ في ظَرْفٍ ، وأجاب :

كلَّ ما كان يروقُك هنا ستراه لا محالةَ ... أراهنك على أن
عاماً واحداً كفيلٌ بَعَوْدِ كلِّ شَيْءٍ إلى حاله !
— أحسَبُك متفائلاً ...

— وكيف لا نكون متفائلين ، وقد اجتَهَزْنَا أعظمَ الشدائدِ
والأهوال ، وخرجنا منها سالمين ؟
— لقد مَرَّتْ بِكُمْ مُحَنَةٌ قاسيةٌ .

— إنها لا كبرٌ مُحَنَةٌ مَرَّتْ « بفرنسا » منذ أقدم العصور ..
ولكن ثِقْ مع ذلك أننا نحن جَيْشُ المقاومة لم نلقِ صعباً
يعجز عنها احتمالُنا ، فقد مارَسْنَا الصَّعَابَ قادرين !

ورأيتُ النادلَ الباريسيَّ تنقاصَ قِسماتِ وجهه تارةً وتنبسطُ
أخرى ، وتنفد عيناه طَوَّراً وتخبُّوانِ مرةً ، وهو يسترسلُ في
الكلامِ يصفُ عَهْدَ الاحتلالِ الألمانيِّ وما اضطلعَ به جيشُ
المقاومة ... كان يتدفَّقُ في حديثه أيَّما تدفُّقٍ ، الجملُ والألفاظُ
تتواثبُ ويصارعُ بعضها بعضاً في حرارةٍ وسرعةٍ واختلاطٍ ،
حتى إنني لم أَعُدْ ألاحقه في الفَهْمِ أو الاستماعِ ... ولكنه مع

ذلك كان رقيقَ الأدبِ في حديثه ، يخاطبكَ بلهجةِ الفرنسيِّ
ذِي القلبِ الإنسانِيِّ الكبير .

إن الفرنسيَّ في « باريس » ، إذا حدثك راعَكَ بما يصطبغُ
به حديثه من صبغةٍ رفيعة : إنه يجيدُ التحدثَ عن الحريةِ
والمساواةِ والإخاء ، تلك المبادئِ الأصليةِ والأسُسِ القويمةِ
التي نهضتْ عليها الثورةُ الفرنسيةُ الخالدةُ الذكرُ والأثرُ !

ليتَ شعري أيُّ فرنسيٍّ إذن ذلك الذي نلقاه في مثل
« تونس » ، أو « الجزائر » ، أو « مراکش » ، ذلك الذي إذا
تحدثَ إليك حول هذه المبادئِ الإنسانيةِ لَوَّنها بالوانِ
المُصَوَّراتِ الجغرافيةِ البغيضةِ ، وكساها حُلَّةً من لُغةِ المؤتمراتِ
السياسيةِ الدَّوَارةِ ، ذلك الذي يبدو أمامك دائماً في زيِّهِ
العسكريِّ صُلْبَ الوجه خَشَنَ الصوت يأمرُ وينهى غاشِماً
متحكماً يحاولُ الإقناعَ بمنطِقِ الحديدِ والنارِ ؟

وجازَ بنا بائعُ صحفٍ ، ينادي بلهجتهِ التقليديةِ ، فابتعنا
منه صحيفةً يوميةً من أمهات الصحفِ الباريسيةِ ، فألفيناها ورقةً
واحدةً تكدَّستُ فيها الأخبارُ والموضوعاتُ تكدُّسُها يُعشى
النَّظرَ ... يا سبحانَ الله ! ... لقد علَّمتك الأحداثُ أيها

الباريسى الثَّارُ أن تعرفَ فضيلةَ الإيجاز !
 نهضنا تاركين « الكافيه دلايه » .
 إلى أين ؟ ... إلى الفندق ؟ إلى مصاحبة ذلك « الجتلمان »
 الهرم الذى أفلسَ بعد يسار ؟
 وحوّمتُ فى الخاطر أفكار شتى ...
 لمْ لا نَغْتَنِمُ الفرصة ، فنَجُوبَ أحياء « باريس » ؟
 إذن إلى سيارة الأجرة ... ولكن أين ذلك الصديق الذى
 صدّ عنا ولم يشأ أن يطارحنا ودّاً بودّ ؟ إنه كثير التَّجَنُّى
 على مريديه ، لا يظهر أمامنا إلا كما يلوح البرق الخاطف !
 ووجدنا حياً لنا مركبة أجرة ... وجعلنا نتفحّص المركبة
 وقتاً ذاهلين ... أفى « باريس » نحن أم فى « السنغال » أم فى
 « فاشودة » ؟ ... لقد عادَ الحوذى الباريسى إلى الظهور بعد
 أن طال اختفاؤه أعواماً مديدة ... لقد استوصل بقسوة من
 العاصمة حتى زال عنها ، ولم يَبْقَ له ظلٌّ فيها . وها هو ذا الآن
 يُبعثُ من جدّته الغائر ليُثارَ لنفسه .
 إنه يعودُ ، ولكن على أى نحوٍ يعود ؟
 من أين جئتَ بمركبتك أيُّ هذا الحوذى المخطّم ؟ لابد أنك

ابْتَعَتْهَا مِنْ سُوقِ الْأَسْقَاطِ وَبَالِيَاتِ السَّلْعِ !... إِنَّهَا خَلِيطُ
غَرِيبٍ مِنْ حَضَارَاتٍ مُتَدَاعِيَةٍ ، تَكَادُ كُلُّ قِطْعَةٍ مِنْهَا تَمْثَلُ عَهْدًا
بِعَيْنِهِ... إِنَّهَا أَشْبَهُ شَيْءٍ بِشَوْبِ تَكَاثُرَتْ فِيهِ الرِّقَاعُ وَتَبَايَنْتْ .
حَتَّى الْحِصَانِ ، ذَلِكَ الْهِكْلُ الضَّخْمُ الْأَعْجَفُ ، يَخَيَّلُ إِلَيْنَا أَنَّهُ فِي
مَظْهَرِهِ مُسْكُوْفِيٌّ أَصِيلٌ ، جَرَّ رَهْ « نَابِلْيُون » فِي عَوْدَتِهِ الْخَائِبَةِ
مِنْ « رُوسِيَا » ، فَبَقِيَ لِسُوءِ حَظِّهِ نَسِيًّا مَنَسِيًّا طَوَالَ تِلْكَ السَّنِينَ ،
فَلَمَّا اشْتَدَّتْ إِلَى مِثْلِهِ الْحَاجَةُ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الشَّدَادِ ، جِئَ بِهِ
يَمْثَلُ دَوْرَهُ الْقَدِيمُ !

لَنْ زِدَ ابْتِسَامَتَكَ الْمُتَغَضِّنَةَ عَلَى وَجْهِكَ الْمُحْتَقِنِ ، الْمُشْرَبِ
بَارْدِ الْأَنْبَذَةِ ، أَيُّهَا الْحُوْذِيُّ الْخَرَبُ !

وَصَعِدْنَا فِي الْمَرْكَبَةِ ، وَنَحْنُ نَتَحَسَّسُ مَقَاعِدَنَا ، حَتَّى
لَا نَهْوِي بَهَا ، أَوْ بِالْأَحْرَاسِ لَا تَهْوِي بِنَا !

وَأُطْلَعَ عَلَيْنَا الرَّجُلُ مِنْ عَرُوشِهِ الْمُتَوَلِّزِ الْأَرْكَانِ ،
وَأَخَذَ يُقَلِّبُ فِينَا عَيْنَيْهِ الْمُحَقِّقَتَيْنِ النَّاصِلَتَيْنِ هُنَيْهَةً ، ثُمَّ هَمَّ
بِفَرَنَسِيَّةٍ مَتَا كَلَّةٍ :

الْجَوْلَةُ بِسِتْمَاةٍ « فَرْنَك » ،

فَقُلْتُ لَهُ فِي دَهْشَةٍ :

الجلولة بستمانه « فرنك ، ... ؟ . ثقْ يا صديق أننا لسنا من
« الأمريكان ، ا

فأعاد الرجلُ جملته وهو يتعالى على عرشه ، ووجهه المربدُ
يزدادُ تجعداً ، ولم يشأ أن يزيدَ حرّاً ...

ثم بدتُ منه إشارة أشعرُتنا بأن صديقنا الحوذى دكتاتورى
المنزع ، لا يقبلُ مساومةً فيما يُصدرُ من أحكام !

يأبى هذا الأحقُّ إلا أن نكونَ « أمريكيين » أثقلتُ
« الدولاراتُ » محافظتنا . فمضينا نبعثرُها يميناً ويسرة ...

فلنكن كذلك ساعةً فى ضياقة ذلك الحوذى المخمور !

وبدأت الماركة تُسكرُكر ، يتحامل بعضها على بعض ...

وقطعنا شارع « الطليان » ... ما برح هذا الشارعُ محتفظاً

باسمه فى « باريس » على الرغم مما كان من أحداث !

وأفضينا من ساحة إلى درّب ، ومن درّب إلى ساحة ...

إنه هو هو ذلك التجهّمُ والعُيوسُ والجنودُ يسايرنا حيث نكون .

ثمّةَ مشاربُ مقفرةٌ على مراحلٍ من الطريق ، تنبعثُ منها أحيانا

فلولُ أضواء تتسرّب هنا وهناك تنشدُ الرّوادَ فى جُهد حتى

إذا ما غاب مسعاها تمزّقت أشلاء ، وضاعت فى الفضاء !

وقد صادفنا في بعض الطريق مراقص كانت في عهدِها
الغابر آهلةً بالقُصَّاد ، زاحرة بالحركة والصَّخب ، فبدتْ لعيوننا
في أبهاها أشباحٌ تروح وتغدو ، أشباحٌ هزيلاتٌ شواحبٌ ،
أولئك هنَّ غواني اليوم من الصبايا القاصرات ، كن يتردّدن
بين موائدٍ شاغرة صامتة ، فإذا لمحن قادمًا هزّه الشوق إلى مثل
هذه المراقص ، تهافتن عليه تهافت الفَراش على النور .

وقد يتفقُ لما ونحن نمخُر الطريق بمركبتنا العرجاء أن نلاقى
مركبة أخرى تحمل ثلثةً من الأجانب ، يجولون مثل جولتنا ،
ثلثةً أوقعهم سوء الطالع في يد أحمق آخرٍ على غرارِ صاحبنا
الحُوذَى المخمور ، لن يعفيهم من تلك « الفرנקات » الستائة
التي فُرِضت علينا إتاوةً ظالمة ، فإذا بنا نبادلُ هؤلاء الرفاق
على البُعدِ تحيةَ اللقاء متصايحين ، كما يتبادلُ النَّوَاتِي — إذا
تلاقت سفائنهم وَسَطَ العُبابِ — تحايا الأمان والسلام !
وما هي إلا أن تُتابع كلُّ مركبةٍ جرجرتها ، ونعود إلى
القفر الممدود نشقُ غياهبه . . .

وقَفَلْنَا إلى الفندق ، فصَعِدْنَا إلى حجرتنا ، وما لبثنا أن
تهيأنا للنوم مُتَعَبِينَ .

وأشرق علينا صُبحُ اليومِ الخامس من «إبريل» ، فتناولنا
فَطُوراً حوى خبزاً أَسْمَرَ ، وقليلًا من الزُّبد ، وقهوة لها من
القهوة لونها واسمها .

وهبَطنا بعد فترة إلى ردهة الفندق ، نتأهب للرحيل .
ولبثنا ننتظر ... كما أسيرة الطائرة ، تحتلُّ كلُّ رُفْقَةٍ منا
ناحيةً من الردهة وبجانبا أمتعة السَّفَر ... وقد يخفُّ أحدنا
للسؤال عن موعد قيام الطائرة ، ومتى يحين أن نغادر الفندق ؟
ولكن سرعان ما ينقلبُ المسؤل سائلا ، وتدور الأسئلة
المضطربةُ والأجوبةُ المبهمةُ في حلقةٍ مُفْرَغة لا يدري أين
طرفاها ... وانتهى بنا الأمرُ إلى أن أصبح كلُّ منا قانعا بأن
يوجّه سؤاله إلى نفسه ، وأن يتولّى هو بنفسه الجواب !

وطال بنا الانتظارُ ، حتى دبَّ في قلوبنا ديبُ اليأس .

أثمة ليلةٌ أخرى سنقضّ فيها في عاصمة الصمت والظلام ؟ !
وبعد لأيٍ ظهرَ الرجلُ الرَّبْعَةُ الأشقر ذو العينين
الزرقاوين ، رائدنا إلى الطائرة ؛ فهرعنا إليه ملهوفين نَسْتَقِي
منه الخبر ، فأشار إلينا إشارة اعتزاز ، وابتسامته الهادئة
تترقرقُ على مُحَيَّاه ، ثم قال في تَوَدّة :

سنبْرَحَ الفندقَ بعد ربع ساعة . . . السيارة الحافلة بالبَابِ .
وما كاد ربعُ الساعة ينقضي ، حتى كُنَّا جميعاً حَشَوُ السَّيَّارَةِ ،
والرجل يبأها ينادي أسماءاً على منهاجه المدرسيّ !
وتحرّكتُ السَّيَّارَةُ تخترقُ « بَارِيسَ » وقد أوشكتُ الشمسُ
أن تتوسَّطَ كسبَدِ السماء ، فررنا بتلك الطرق الفسّاحِ ذَوَاتِ
الشَّجَيْرَاتِ المورقة والأزهار المتفتحة التي تحاولُ أن تُثَبِّتَ
حلولَ الربيع حيثُ لا ربيع !
ودخلنا المطار . . .

وتمتَّتِ الإجراءاتُ المعهودة على أسلوبِها المملول !
وخرجنَا إلى السَّاحَةِ ، إذ كَانَ صديقُنَا « أَبُو الهول » رابضاً
يبسُّطُ لنا جناحيه في تحية وترحاب .
واحتوانا صدرُهُ الرَّحِيبَ ، وقصدَ كُلُّهُنَا مَقْعَدَهُ ، فَبَيَّانَاتِ
نِزَالٍ جُدُّدَا حَكُّوا محلَّ من تخلفَ عنا من الرِّفَاقِ .
وتعالى « أَبُو الهول » في أطباقِ الجوّ ، وأخذتُ « بَارِيسَ »
تحت أنظاره تتضاءلُ وتتنايلُ .
وتراءتْ لَنَا بَيْنَ الفِينَةِ والفِينَةِ من خلالِ السَّحَابِ الملهلِ
سهولُ « فرنسَا » المترامية ، تبعثُ إلينا تحية وداع .

ثم بدأنا نطرق أبواب «بريطانيا» في معقلها الأثمن ،
يبحرُها الغضوب ، وصنغرُها المتجهتهم النّفور .
وبعد ساعاتٍ ثلاثٍ على متن الهواء حملنا بلدة «شانون»
من أرض «إرلندة» ، وكان الجوُّ بارداً ، والسماة متلفعةً
بغُيومها الثّقال .

وغادَرنا الطائِرة إلى مبنى المطار ، فألفيناه على نسقٍ جميل
من النظام والترتيب . وقضينا في المقصّف ساعتين تناولنا
فيهما وجبةَ الغداء ، ونعمنا بقسطٍ من الراحة .
وعُدنا إلى «أبي الهول» فوجدناه قد تمّلاً من شبعٍ وريٍّ ،
وتزوّد زاداً يستطيع به أن يواصل الصومَ ساعاتٍ غير قصّار ...

نحن الآن بصدد رحلة لا تستغرق أقل من إحدى عشرة ساعة ! نعبُرُ فيها « المحيط الإطلنطي » ، أو كما يسميه العرب : بحر الظُّلمات .

هَيَّا « أبا الهول » ، على بركة الله !
وتسامى بنا صديقنا الكبيرُ يضربُ في عُرْضِ الأفق وقد اتَّقد حميَّةٌ وحماسةٌ ، ورأينا السُّحُبَ تنبسط على صفحة المحيط ، وتغدو كأنها بساطٌ من جليد ... وقد يلتبسُ الأمر لعينِ الرائي ، فيحسبُ أن ذلك السحاب المنتشر ليس إلا المحيطُ قد راعه « أبو الهول » الذي اقتحم عليه سماءه ، فارتفع بموجّه الأشهب وعبابه الصَّخَّابِ ، يريد أن يناقشه الحساب !
ولبتنا نظيرُ ونظير في سهولةٍ ويُسر ...

إن « أبا الهول » ، رَزِينٌ مُجدِّدٌ في سيره ، يريد أن يثبتَ لنا أن ليس في الكون شيءٌ لا يتعدَّر عليه ، وأنَّ عبُورَ المحيط ليس إلا نزهة طيبةً رائعة ...

حقاً إنها لنزهةٌ ليس فيها ما يُعكر الصَّفوَ ، فقد اتَّحَى من أذهاننا ما كان مستقرّاً فيها من أهوالِ عبور المحيط ، وما يعترضه من مخاطر ... إن « لندبرج » ، كان أحكم الناس رأياً حين راح

ينتزعُ من الأذهانِ برحلتهِ الموفِّقةِ أوْهامَ الخوفِ والحذرِ من
بحرِ الظلماتِ ، فاستطاعَ بتجربةٍ جريئةٍ أن يصلَ بين قارَتيْن
عظيمتين ، بل دُنْيَيَيْنِ حافلتين : دنيا الماضي ودنيا المستقبل !
وظلت الشمس تسايِرنا طويلاً من الوقت ، فلم تأذَن
لنفسها في المغيبِ إلا بعدَ التاسعةِ والنصفِ ، وانتشرَ على
أطرافِ ذلك البساطِ الثلجيِّ النَّاصِعِ طيبَ أنفاسِها المحترقةِ ،
فهبَّ الليلُ يرسلُ شَمْلَتَه الحالكةَ يحاول أن يطفئَ بظلامه
طيبَ تلك الأنفاسِ !

ووجدتُني أضغطُ زرَّ المقعدِ ، فقال بي طيِّعاً إلى الوراءِ ،
ومددتُ على ركبتيَّ دِثَارِي يحميني من هجمةِ القُرِّ ، ثم أطبقتُ
جفنيَّ أَسْتَدْنِي هادئَ الشَّعاسِ .

وبين سدولِ الليلِ المتراخيةِ ، هبطنا مطارَ « جندار » في
الأرضِ الجديدةِ .

وحملتنا سيارةٌ حافلةٌ ، ومضت بنا تجتاز طرقاتَ ودروباً تقوم
على جوانبها بعضُ أبنيةٍ مختلفةٍ . وعرفنا أننا في بقعةٍ منعزلةٍ
عن العمرانِ ، مستعمرةٌ بنِ مستعمراتِ الجوِّ . . . إنها أشبهُ
شيءَ بقريةٍ تكفي نفسها بنفسها ، فيها المقصِّفُ والنادى والفندق

والمستشفى والمصنع، وكل ما يسدُّ حاجة الطائرة وراكبها. وبدأت لي هذه المستعمرة كثيفة عابسة، على الرغم مما يبدو حلوكة الليل فيها من مصابيح فيّاضة الضوء. وأبلغتنا السيارة الحافلة مقصف المطار، فخطونا على أرض خضبتها قطرات المطر، وكست حواشها بقايا الصقيع. وصافح وجوهنا هوائ قارس، فحشنا الخطا إلى المقصف نلتمس الدفء... إنه لمقصف فسيح الجوانب، أقيم من الخشب الغليظ، على نحوٍ ساذجٍ قروى، كل ما فيه يكفل راحة المتعب المكدود.

ونظرت في ساعة يدي، فوجدتها الخامسة، وتطلعت حولي فلم أجد أثراً لتباشير الصباح. إنه ليل دامس ثقيل الوطأة. وغمرتني الحيرة هنيئة، ثم حانت مني التفاتة. فصادفت ساعة الحائط تعلن أن الوقت منتصف الليل...!

ووقفت لحظةً أراجعُ البصر بين ساعة يدي وساعة المقصف، ثم انسحرتُ أفكر...

هنا يعودُ المرء إلى عهد التلمذة، ويستنجدُ بما علق بذاكرته من معلوماتٍ جغرافية في شأن دوران الأرض حول

الشمس ، واختلاف الزمن بين قارّة وأخرى .
وظالَ بي الاستدكار والتفهّمُ والموازنة ، فتبرّمَ رأسي بهذا
العَبَث .. إنه منتصفُ الليل وكفى ! ... علىَّ أن أضبطَ ساعة
يدي راجعاً بها القهقرى خمس ساعاتٍ ... ها قد أضيفتُ إلى
صفحاتِ الليل صفحاتٌ مُجددٌ لم تكن في الحسبان .
يا لله ! ... أما لهذا الليل من آخر ؟

ودخلنا المقصف تتناولُ الفطور ، ثم تركنا قاعةَ الأكل
إلى بهوِ الجلوس ، تترامى على مقاعده المريحة ، كأننا في
ضياقةِ فلاحٍ ثرىٍّ من أعيان تلك الناحية ... وأخذ يطرق
أسماعنا نَقْرُ كُرّاتِ «البليار» يتلاعبُ بها بعضُ الرّفاق تزجيةً
للوقت ... ولستُ أدري أأخذتني في مجلسي سِنّةٌ من نوم أم
ظِللتُ ساهراً يَقْظان ؟ ولكني أعلمُ علمَ اليقين أني قَضيتُ
وقتي ملازماً مقعدى الفسيح لا أريّمه ، مُطْلِقاً لأفكارى
حرية التحليق .

إنها القارّةُ الثانية التي أهبطها في رحلتى هذه ... قارة
الدنيا الجديدة .. إننا على شاطئها نقفُ وقفةَ الفضولي يتطلع
فيما حوله ، كأنما يحاولُ أن ينفذَ ببصره إلى عباب ذلك المجهول

المتراعى الأطراف .. إننا على شاطئها نقفُ وقفةَ الرائد
الكشاف حين تلامسُ قدمه أول مرة شاطئ الجزيرة المنشود،
فهو يُحدِّثُ بصره طامحاً أن يقرأ في تلك لأرض العذراء الحافلة
بالكنوز صحيفةَ أقداره . يقف صامتاً يتأهبُّ لحياة جديدة ،
ويرحبُ باستقبال ما يصاحبه به الغدُّ من مفاجآت وأحداث ،
ويهيئُ نفسه للتأقلم في هذا المقيم الجديد ، ويؤمِّلُ أن يرجع
إلى وطنه وقد أصابَ ما سمت إليه نفسه من مآرب ورغاب .

وسمعنا مُضَخِّم الصوت يذيع :
رُكَّاب «أبي الهول» ، إلى «نيويورك» . . . دنت ساعة
الرحيل .

فماج البهرُ بمن فيه وتعالى الضجيج ، وقُمنا نحملُ لِفائتنا
إلى الباب ، فإذا بالسيارة الحافلة في الانتظار

واستقبلتنا الهوائ القارسُ يلسع وجوهنا ، ورأينا الأرض
ما برحت بليلة ، ونشير الصقيع ما زال على حواشيها .. فهرعنا
إلى السيارة نلوذُ بأحضانها . وعدُّنا نجتازُ تلك القرية الكثيبة
بل تلك الشكَّنة الموحشة التي تبدو منكشة تحت أنقاض الشتاء !
وفي الساعة الثانية صباحاً كان «أبو الهول» يدوَّى بصوته

الغليظ ، مودّعا تلك البقعة بما يغشاه من ظلمة وعُزلة وصمت
 أمامنا سُويغات ، ثم نلّاقى «نيويورك» ... لقد قاربت
 الرحلة ختامها ، فلأزج ما بقى من الوقت فى أى شىء ...
 هل أقرأ ؟ ووجدتني أستل «المختار» كما أننى أستمد منه عوناً
 على مواجهة موطنه الأصيل . وجعلت يدي تعبث فى سرعه
 ببعض صحائفه ثقلبها واحدة بعد الأخرى ، وما لبثت أن
 ألقيت به جانبا ... لاسبيل إلى المطالعة ، فلأعاليج النوم ...
 حتى هذا يتأبى على ... إن يقظة نادرة تسرى فى أعضائى جميعاً .
 وهذا الليل ، إنه يتناول ، ولا يزال يتناول !

لَسْكَانَ «أبا الهول» يغتصب لنا من الزمن وقتاً نضيفه
 إلى يومنا الذى نعيش فيه !

وفطنت إلى سلاح ماضٍ يقطع الوقت قطعاً .. إنه
 الثروة ، بارك الله فيها ، فلا كُنْ ثرثاراً يتهايد الموضوعات
 ويجعلها مَرْنَةً مَطَّاطَةً تطاوع مجذبا وإرخاء .. ويبدولى أن
 هذه الفكرة ما كادت تحوِّم فى خاطرى حتى انتقلت عدواها
 إلى الرفاق ؛ فإذا كل ركن فى الطائرة يسـترسل فى ثروة
 وتضاحك ، وإذا انوقت ينفرط عقده فى سهولة ويسر . وإذا

بَسَنَّا الفجر يقتحم علينا خلوتنا . . . لقد أزعجناه عن رقادها بما
 فِضْنا فيه من لَغْوِ الحديث . فباكرنا معاتباً غَضباناً !
 ودانينا سماء « نيويورك » . وجعلتُ اذلى بمصرى لاتبين
 شيئاً ، فلم يتوضَّحْ لى إلا مروج وسهول ومناقع ماء . يسايرها
 بحرٌ بعيدُ الأطراف .

وبعدَ قليل أخذتُ الطائرة تُصَوَّب . . .
 نحن الآن فى مطار « لاجوارديا » العظيم .
 تركنا الطائرة مهرولين . . . وما إن خطوتُ بضع
 خطواتٍ حتى تذكرتُ ذلك الصديق الكريم الذى كان هادى
 الطريق ، ونعمَ الرفيق .

كبيرٌ علينا ألا نودعك « أبا الهول » .
 وألقيتُ عليه نظرةً أحْيِيهِ تَحِيَةً إقراراً بالجميل ، ولكنى
 رأيتُ الرفاقَ يَحْشُون الخطأ ، فخشيتُ أن أتخلفَ عنهم ، ولم
 أملكُ إلا أن أسارعَ إليهم .

واعجَبَاهُ « أبا الهول » . . . أين هذا من موقفنا منك
 يوم بدأنا صحبتك ، زاخرةً نفوسنا بأدقِّ العواطف لك ، متعلقة
 أفئدتنا بكلِّ نائمةٍ تصدُر عنك ؟

معذرةً أيها السيد النزيل... إنا الآن في شغلٍ عنك
بجديدٍ ما نستقبله...
لسنا ننكرُ صنيعك الجميلَ ، ولنا ننسى صحتك الصافية
طوال هذه الرحلة ؛ ولكنها يا صديق سُنَّةُ الكون ، نفلٌ
عنك الملام...!

✓
١٧-٤-٥٦

اجتازنا مشىً مُظَلَّلًا ، كأنه عريشُ بستان ، ثم بلغنا
مبنى المطار ...

حُجَر وممرّات تمتاز بالطابع الأمريكي ، ساذجةٌ في جمالها
وحسن تنسيقها .

وحللنا حجرةً ليست بالفسيحة ننظر ، وتفرّق في جوانبها
الرفاقُ جماعاتٍ شغلت كلٌّ منها بشأنها ...

ولبثنا ننظر ، وطال علينا الأمدُ ، فلذنا بسلاحنا الماضي
الكريم الثرثرة ، ننفي بها عن نفوسنا ملل الانتظار .

وكان يمرُّ من بيننا أمريكيٌّ قميٌّ من موظفي المطار ، يخطو
بين الجماعات خطاً متّزنة ، غير موجّهٍ نظره إلى أحد ، ولا يكاد
يَطويه البابُ حتى يعود ثانيةً يذرّع الحجرة ويَجُوسُ خلالها
لا يعنيه من أمرنا شيء ، وكان كلّما ظهر تعلقت به أنظارنا
نستنجدّه . وظل بين جيئةٍ وذُهوبٍ على نحوٍ أثار السُّخْطَ
والعجب . أفى شُغلٍ عنا هو حقّاً ؟ إن بين هؤلاء الموظّفين من
يُشبعُ بمثل تلك المظاهر الكاذبة رغباتٍ نفسه الطّموح !

وأخيراً تعالى صوتٌ ينادى أسماءنا .

ومثلنا لحظات قصيرة أمام الطيب . ذلك الفتى الفارع ،
المشرق الوجه ، يؤنسنا بابتسامة ترحيب ، ويضعفنا من
مضايقات الفحص والسؤال !

وتجمعنا في مقصف على الأسلوب الأمريكي أنيق رشيق
تبلغنا فيه بأشتات من الشطائر والفطائر ، واحتسينا
أقداح القهوة .

وتمت إجراءات « الجمر » على أيسر وجه ، حتى إنى
راجعتُ نفسي في أمر هذه المؤسسة ، وبدالى أنها مؤسسة
عظيمة ، جلية الفائدة وتنفع !

وانصرفنا عن « الجمر » خلفنا الزوج يحملون حقائب
المتاع ، وركبنا سيارة أجرة ذكررتنا بفخامتها وأناقته مرربة
الخيول التى طافت بنا أحياء « باريس » :

« وبضدها تميز الأشياء ! »

وأحسستُ مشاعرى تهتز وتحتاجُ احتياج مشاعر الطفل
أمام جديدٍ مستورٍ بدأ يتكشف له .

وشارت بنى ثورة تطلع وفُضول ، فكنتُ أبعثرُ النظرات

حول في تعجُّل ، أخشى أن يُفْلِتَ مني شيء ، فإذا بي يَندُّ عن نظري أعظمُ شيء... إنها رقعةٌ من الأرض شاسعة ، خُطَّتْ فيها طرق ممدودةٌ معبَّدةٌ تنهبُها السيارات انتهاباً . وإنها جسور عظيمة تعلو بنا وتهبط ، تتقاذف بنا جسراً بعد جسر . ولكن آيةُ جسور هذه ؟ أعلى الماء هي أم على أديم الأرض ؟ لا أكاد أتبينُ الأمر !

وبدأنا ندخل منطقة المباني ، فكلَّمنا أوغلنا فيها تكاثفت وتعالَت ، ورأينا الطُّرُق تزدحمُ بالسابلة ، فأخذت سيارتُنا تهديء من سيرها ، حتى ألقينا أنفسنا بين نواطح السحاب ... وخُيِّلَ إلينا أننا في سفينةٍ بدأت تجتازُ خليجاً تقومُ على جانبيه شوامخُ الجبال !

إنه حقاً لشعور غريبٌ ذلك الذي يستولى على المرء حين يُشْرَبُ بعنقه ، وهو يمرُّ بين الصروح الشاهقة ... إن المرء ليُحسَّ نفسه قد تصاغَرَ وتكشَّ أمام تلك المدينة الماردة العاتية ...

في لحظةٍ واحدةٍ تتجلى لنفسك عظمةُ « أمريكا ، الجبارة . هذه الآطامُ العاليةُ تركَّزُ لك في مظهرها حقيقةُ « أمريكا »

بمدنيتها ، ثروتها ، عقليتها ، نشاطها ، جاهها ، طموحها ، ما ظهر
من ذلك كله وما بطن .

هذه الآطام كأهرام « مصر » تحتزل لك في مظهرها
الرائع مدينة « مصر » الغابرة . . . إنها لتصور لك في لحظة
دقائق تلك المدينة وأسرارها ، فتعلم جلياً أن القبر كان كل شيء
في « مصر » السحيقة ؛ فهو مستودع العلم والفن ونظام الحكم :
الحى يعمل جاهداً في إعداد دار قرار ، والميت ينعم به مئوى
حتى تحين ساعة البعث وال خلاص .

ما أروع الحجارة الصامته في الإبانة والإفصاح !

إنها باقية على الدهر ، إذا استلهمنا منها معالم الماضى
فقد أمنا الزلل والعشار في تمثيل حياة الأقدمين . .

إنها لتكشف أدق خوالج النفس البشرية ، ظاهرها
الواضح وباطنها الدفين .

هذه نواطح السحاب بقوامها الفارع تستعلى ولا تنى
تستعلى ؛ فهي تُفصح لك عن مركب النقص في النفس
الأمريكية ، تكمن فيها نزعة تلك الأمة الفتية الناهضة التى
أصاب ثروة واقتداراً ومكانة لا تراحمها فيها أمة أخرى على

بساط المعمور . . نزعة كأنها تريد أن تصرخ قائلةً للإله :

لستُ إلا أمةً عظيمةً زعيمة !

إنها لتحسُّ أنظارَ البريطانيين ما زالت ترمقها بنظرة
إشفاق لا تخلو من حسد ، نظرة الوصيِّ وقد نفّضَ يده من
الوصاية على قاصره الذي بلغ سنَّ الرُّشد .

ذلك القاصرُ الذي ما فتى يذكرُ لوصيِّه مُضروباً من
القسوة والحرمان ، يعملو بهامته اليوم متحدياً ، يريد أن يمدَّ
قامته ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، ليثبت أنه أصبح ندياً قويا
لوصيِّه في الزمن السالف !

على أن الأمريكيَّ والإنجليزىَّ ، على الرغم مما بينهما من
تنافس وتسابق ، تصلُ بينهما وشائجٌ وثيقةٌ من لُغةٍ وعقليَّةٍ
وجنس ، فهُما في المحنة يتساندان ويتآزران ، وينسى كلُّ منهما
عهد الوصاية وما يدور حول تركتها من حزازاتٍ وأضغان !
وأثارني عن تأملاتي وقنفة السيارة .

لقد بلغنا بابَ الفندق .

ودلفنا إلى الرّدهة الكبرى ، وكان علينا أن نلبث حتى
تدين أمر الحجرة إلى أعيدت لنزولنا

ووقفت أتأملُ الرَدَّهَ المُضَاةَ بالكهربا ، ومن يختلف
إليها من الناس .

وراعتني المصاعيد لا تهدأ لها حركة ، فهي دائبة الصعود
والهبوط ، لا تكاد تُفرِّغُ حُمولتها حتى تنصَّبَ بحمولةٍ أخرى
من تلك البضاعةِ البشريَّةِ الرائجةِ السُّوقِ في هذا المكان !
وأخذتُ عيني رُكناً رشيقياً يُنيره ضوءُ جذَّاب ، تمثل
لى مسرحاً يستهوى أعينَ النَّظَّارةِ ، فتدائنتُ منه ، فتبين لى أنه
حانوتٌ حوى طرفاً من كلِّ شىء . . . إنه سوق مصغَّرةٌ تُسعفُ
كلَّ طالب بما يطلب ، فمن لفائف تبغ ، إلى كُتب وصُحف ،
إلى حلوى أفانين ، إلى لُعب وتحف وطرائف . فقصدتُ إلى
معرض الكتب أقلب فيه البَصْرَ ، وماهى إلا أن بدا لى رجلٌ فى
مُقْتَبَلِ العمر ، باشَّ المحيَّيا ، وديعُ النظرات . فبادرنى بقوله :
طاب يومُك يا سيدي . . . يلوح لى أنكم من نزلاء
الفندق الجدد .

— قدِمنا الساعة . . .

— أوَّلُ زَوْرَةٍ هى « لنيويورك » ؟

— إنها أوَّلُ زَوْرَةٍ « لأمريكا » كلها .

— من أىِّ المواطنِ أنتم قادمون ؟

— من « القاهرة » .

— حقًّا إنها الشُّقَّة بعيدةٌ قطعتموها .

— لم تستغرقِ رحلتنا أكثر من ثمان وأربعين ساعة .

فأخذَ الرجلُ يحملُ فينا دهبًا ، ثم مالَبَثَ أن ابْتَسَمَ قائلاً :

إنها لإحدى مُعْجِزَاتِ الطيران . . . أرجو لكم إقامة طيبة !

— نشكُّرُك .

— لقد أحسنتم اختيارَ الفندقِ حقًّا .

— إنه اختيارٌ صديقٍ كريمٍ ، حجز لنا أما كننا فيه .

— لقد كفاكم مؤنَّة البحثِ ومتاعب الاختيار . . يتعذَّرُ

أن يجدَ القادمُ سعةً في فنادق « نيويورك » ، على كثرتها .

وتلفَّتْ أردَّدَ البصرَ حولى فى الرَّدْهَة . فعاجلنى الرجلُ

بقوله :

إنه فُنْدُقٌ مُرِيحٌ على صِغَرِهِ . . ست عشرة طبقة

تحتوى أربع مائة حجرة .

— أصغِرُ هذا ؟

— إذا قيسَ بكـ بُرَيَاتِ الفنادق . . ولكن موقعه يجعله

ممتازاً... إنكم « في الشارع الخامس والأربعين ، قلب المدينة
الخفّاق : خُطُوتَانِ إلى الأمام تُسَلِّمانِكمُ إلى الشارع الخامس ،
أعظم شوارع « نيويورك » بل سيد شوارع العالم كله ...
خطوتان إلى الورا تُسَلِّمانِكمُ إلى « برودواي » أكبر ملتقى
للملاهي وأقنٍ معرِضٍ للأنوار في العالم أجمع ... موفّقٌ حظكم !
إن القنصليةَ المصريّةَ منكم عِ كُتُب ، وكذلك دار البريد ، و...
وكانتُ يدي أثناءَ الحديثُ تعبَتْ بالصفّح والكتّاب ،
وتعلّقتُ أنا ملي ببعض المصوِّراتِ الخاصّةِ بمعالم المدينة
وطُرُقِها ووسائلِ مواصلاتها .. فانثني الرجلُ يقول :

حسنُ اختيار . . هذه المصوِّراتُ ستَفْتَحُ لك أبواب
« نيويورك » على مصاريعها ، فتجوسُ خلالها على هُدى .

وما كدتُ أنقُدهُ الثمن ، حتى سمعتُ غلامَ الفندق يقول :

تفضلوا بالصُّعودِ إلى الحجرة

فحيَّيتُ صاحبَ الخانوت ، فودَّعني بقوله :

إني في خِدْمَتِكَ كلما دعتُ الحاجة ،

ودخلنا المِصنَّعَ في حشدٍ من الناس ، فإذا عاملةُ المِصنَّعِ

زنجيّةٌ في لبّوسِها الرسمي ، تُولِّينَا ظَهْرَها ، واقفةٌ دائماً

وتغستها الجامدة لا تُعيرُنا أى التفات . إنها ليست أكثر
من أذن تُصغى لمطالب الرُّكَّاب ، ويدٍ تتحركُ إلى باب
المصعدِ فتُحَا وإغلاقا . . .

وخطونا إلى حجرتنا .

هُرُوعٌ إلى الحمام ، لأطيح تلك اللحية التى بدأت تَطْلُعُ
مع النهار ، وتعيثُ في الوجهِ فساداً

وجعلتُ أعْذِمُ الموصى فى مَلَلٍ وفتور ، وأنا أهمهم :

رَبِّ لَمْ أَنْبَتْ فى وجوهنا نحن الرجال هذه اللحى ؟ أو لَمْ
تَرَ كَتَبَنَا نَهْتَدِى إلى حَلِيقِهَا ؟

وما كدتُ أتمُّ حديثَ نفسى الضائقةِ بهذه الدقائق ، حتى
أَحْسَسْتُ أَرِيحَ الطَّيِّبَ يَفْغَمُ أنفى ، فرحتُ أخالِسُ النَّظَرِ ،
فوجدتُ الحَقِيبةَ النَّسَوِيَّةَ قد تَنَاءَبَتْ ، فأطالَتْ منها حَقَاقُ
الأدهان والمساحيق ، وقواريرُ الطُّيُوبِ والعطور ، تَلُوها
مناشفُ الوجه والمناديلُ والأمشاطُ ومشايبُ الشعر وشِيبَاكُهُ
فَزَغْتُ بِبَصَرِى ، وعُذْتُ أَتَابِعُ الحَلْقَ فى هِمَّةٍ ورضا ،
وأنا أغغم :

حَمْدُكَ اللَّهُمَّ عَلَى مَا قَسَمْتَ لَنَا . . . إِنَّكَ بِنَا نَحْنُ

الرجال رؤوفٌ رحيمٌ !

ولم تَمْضِ غيرُ لَحَظَاتٍ ، حتى كُنْتُ قد فَرَغْتُ من مهمتي
وبدأتُ أَنْظُرُ إِقْفَالَ حَقِيبةِ العطور والمساحيق ، إِعْلَانًا لَانْتِهَاءِ
مهمَّتيها... ولكنَّ بَضْعَ نظراتِ خَاطِفةِ أَفْهَمَتْنِي أَنَّ الأَمْرَ
ما يزالُ يَتَطَلَّبُ مديدًا من الوقت... إِذْنِ فَلأَشْغَلُ وَقِي بَشْيْءٍ
لَمْ لَا أَبْدَأُ ارْتِيَادَ المَكَانِ الَّذِي حَلَلْتُ فِيهِ ؟

وَقَمْتُ أَجُولُ فِي الحِجْرَتَيْنِ الرَشِيقَتَيْنِ اللَّتَيْنِ أُعِدَّتَا لِنَزُولِنَا
كُلُّ شَيْءٍ أَرَاهُ حَوْلِي يُشْعِرُ بِتَوْفِيرِ الرَّاحَةِ فِي سِدَاجَةِ
وَبَسَاطَةِ وَيُسْرٍ... رَاحَةٌ تَرْتَفِعُ عَنِ كُفْلَةِ التَّنْمِيقِ وَالزُّخْرُفِ
وَأَخَذْتُ يَدِي تَتَحَسَّسُ الأَثَاثَ ، فَفَتَحْتُ أَوَّلَ دُرْجٍ
صَادَقَنِي فِي الخِوَانِ المِجَاوِرِ لِلسَّرِيرِ « فَطَالَعَنِي فِيهِ كِتَابٌ ضَخْمٌ
نَحْمُ أَسْوَدُ الجِلْدِ ثَمِينُهُ... وَقَدَّرْتُ بِأَدْيِ الرَّأْيِ أَنِّي أَمَامَ
مِجْمُوعَةٍ مِنْ رَوَائِعِ «شَكْسِير»... إِنَّهُ يَمِثِّلُ طَبِيعَاتِ تِلْكَ المِجْمُوعَاتِ
وَجَذَبْتُ المِجْلَدَ ، وَفَتَحْتُهُ اعْتِبَاطًا ، فَقَرَأْتُ :

« جَلَسَ يَسُوعُ تِجَاهَ الخِزَانَةِ ، وَنَظَرَ كَيْفَ يُبْلَقُ الجَمْعُ
نَحَاسًا فِيهَا ، وَكَانَ أَغْنِيَاءُ كَثِيرُونَ يُبْلَقُونَ كَثِيرًا ، فَجَاءَتْ أَرْمَلَةٌ
فَقِيرَةٌ ، وَأَلْقَتْ فَلْسِينَ ، فَدَعَا يَسُوعُ تَلَامِيذَهُ وَقَالَ لَهُمْ : الْحَقُّ

أقول لكم: إن هذه الأرملة الفقيرة قد أَلَقَتْ أَكْثَرَ من جميع
الذين أَلَقُوا في الخِزَانَةِ، لأن الجميع من فَضْلِهِمُ الْقُوتَ، وأما
هذه فمنْ إِعْوَاظِهَا أَلَقَتْ كُلَّ مَا عِنْدَهَا، كُلَّ مَعِيشَتِهَا !
ليس حديث « شكسبير » هذا .. إنه حديثٌ من وَحْيِ
السماء ! إن فلسفة « شكسبير »، على حِكْمَتِهَا وَعُمُقِهَا وَرُوعِهَا
لَتُضَاهِلُ أمامَ هذه الكلمات الساذجة التي يَسْتَمِدُّ منها الصغيرُ
والكبيرُ نَقَاءَ السَّرِيرَةِ وَيَقْطَعُ الضَّمِيرَ وَطُمَأْنِينَةَ الْوَجْدَانِ ...
ما زال حديثُ السماءِ على تطاولِ الزمانِ وترادُفِ الْحَقَبِ
وتطوُّرِ العقولِ هو صاحبُ السُّلْطَانِ الْأَوَّلِ على المشاعرِ
والنفوسِ ... لَطَامًا سَمِعْنَا فِلَاسْفَةَ الْفِكْرِ يُنَادُونَ بِأَنَّ الْعَقِيدَةَ
الدينيَّةَ على وشكِ الانهيارِ، بل إنها لم يُعَدِّ لها من سَطْوَةٍ
وَجَاهٍ، وَلَكِنَّا لَا نَلْبِثُ أَنْ تَوَاجِهِنَا حَقَائِقُ تُسَخِّرُ من هذا
الزَّعْمِ الْمُوْهُومِ ... إنَّ الْعَقِيدَةَ مَثَلُهَا كَمَثَلِ كُرَّةِ الْمَطَاطِ
إِذَا قَذَفْتَ بِهَا وَرَأَيْتَهَا جَادَّةً فِي هَوِيَّيْهَا إِلَى الْأَرْضِ لَمْ تَحْسَبْ
لَهَا مِنْ رَجُوعٍ، وَلَكِنَّكَ لَا تُعَتِّمُ أَنْ تَرَاهَا قَدْ وَثَبَتْ إِلَيْكَ
فِي عُنْفِهَا أَوْ قُوًى مِمَّا كَانَتْ قَبْلُ ..

لَوْ مَنِيَتْ مَدِينَتُنَا بِالزَّوَالِ وَهَلَكَتْ بِهَلَاكِهَا رَوَانَعُ الشَّعْرِ

وَحَكَمُ الْفَلَّاسِفَةِ وَعَبَقْرِيَّاتُ الْعُلَمَاءِ ، لِأَلْفَيْتِ الْعَقِيدَةِ الدِّينِيَّةِ
تَكْمُنُ فِي النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ كُمُونِ الْحَيَاةِ فِي الْحَبِّ النَّابِتِ !
كَفَى ثَرْتَةً أَيُّهَا الْإِنْسَانُ الْمُتَعَالَى بِمَا دَيَّتَهُ ، الْمَغْرُورُ بِعَالَمِهِ .
أَلَا فَاشْدُدْ لِسَانَكَ إِلَى حَاقِقِكَ ، وَأَقْصِرْ عَنِ التَّشَدُّقِ وَالْمَبَاهَاةِ ..
إِنَّكَ أَنْتَ أَنْتَ ، وَلَنْ تَتَغَيَّرَ أَبَدَ الدَّهْرِ ، سِوَاءِ أَخْفَتِكَ
الْمَغَاوِرُ وَالْكُھُوفُ ، أَمْ سَمَتُ بِكَ نَوَاطِحُ السَّحَابِ تَظُنُّ أَنَّكَ
مُزَاحِمٌ بِشِعَافِهَا قَوَائِمَ عَرْشِ اللَّهِ فِي مَلَكُوتِهِ الْأَعْلَى ... مَا زِلْتَ
فِي حَاجَةٍ إِلَى كَلِمَةٍ سَادَجَةٍ تَزْخُرُ فِيهَا عِنَاصِرُ الْأَمَلِ وَالطَّمَأْنِينَةِ
وَالرِّضَا ، ائْتَرِدْ عَنْكَ الْعَوَاصِفَ مِنْ حَيْرَةِ الْعَقْلِ وَجَفَافِ
النَّفْسِ وَظُلْمَةِ الْحَيَاةِ !

وَأَعَدْتُ « الْإِنْجِيلَ » ، إِلَى مُسْتَقَرِّهِ ، وَعَدْتُ أَتَابِعُ جَوْلَتِي ،
فَرَأَيْتُ لَافِتَةً مِنَ الْوَرَقِ الْمُقَوَّيْ خَصَّصْتُ لِتَعْلُقَ عَلَى أَبْوَابِ
الْحُجَرِ عِنْدَ الضَّرُورَةِ ، وَقَرَأْتُ فِيهَا بِحُرُوفٍ وَاضِحَةٍ :
« مِنْ فَضْلِكَ لَا تُثْقِلِقْ رَاحَتِي » .

« وَمَثَلْتُ خَاشِعًا أَمَامَ هَذِهِ الرِّقْعَةِ الْغَالِيَةِ ... أَنِهَا لَتُنِيلُكَ
مَا تَنْشُدُ مِنْ رَاحَةٍ وَهَدْوٍ فِي رُكْنِكَ الصَّغِيرِ ... إِذَا حَرَسَتْكَ
هَذِهِ اللَّافِتَةُ عَلَى بَابِ حِجْرَتِكَ ، فَلَنْ يَجْرُؤَ عَلَى أَنْ يَطْرُقَ

بابك أحد ، وإنك لأمينٌ في مستقرِّكَ تَنعَمُ بما تُريدُ من خلوةٍ وسكون .

هذه آيةٌ صغيرةٌ تكشفُ لك جانبًا كبيراً من عَقَلِيَّةِ الأمريكيِّ الدقيق ، تكشفُ لك ما يعانیه المرءُ في هذا البلد من جَهْدٍ وكَدٍّ وَحُمْلٍ على الأعصاب ، فهو في حاجةٍ الى الراحة يتشبَّثُ بها ما وَسِعَهُ التشبُّث . ويلتمس إليها كلَّ السُّبُل ، ويحوطها بالتقدير والإعزاز .

لشدَّ ما نحن مفتقرونَ الى مثلِ هذه اللوائِفِ ، نعلّقُها على أبواب المنازلِ في « مصر » ، أوْ لا أقلَّ من أن نعلّقُها على أبواب « التليفونات » لو كان لها أبواب ! ...

وتناوَلَتُ اللافتةَ بيدي . وأودَعْتُها في رعايَةٍ وعنايةٍ مكاناً كريماً لا استخرجها منه حين أريدُ

ورجعتُ الى الحمامِ أُستطِيعُ أنباءَ حَقِيقَةِ العطورِ والمساحيقِ .

أما آن لتلكَ القواريرِ والحَقاقِ أن تعودَ الى قواعدها ؟ !
ووقعَ بصرى بغتَةً على رُقْعَةٍ صغيرةٍ تحتلُ الركنَ المخصَّصَ لمَوَاسِيِ الحلاقةِ ، فقرأتُ في الرُقْعَةِ :

« نرجو أن تقومَ بنصيبك في الإقلالِ من أخطارِ المَوَاسِيِ »

المستعملة . لا تقذف بها حيثما اتفق . .

أين ترمى بموساك القديمة ؟ إنها حقاً مشكلة خطيرة على الرغم من مظهرها النافه ، إنه لينجسم عنها أعظم الأخطار .

وتذكرت « بابت » وهو شخصية خلقها الكاتب الأمريكي « سنكر لويس » في أحد مؤلفاته . . فقد كان « بابت » يقف كل صباح أمام المراة وقفة حيرة بمضّة بعد أن يتمّ خلق لحيته ، وقفة متسائل : أين يرمى بالموسى ؟ فى سلة المهملات حيث لا يؤمن شرّها ؟ أم فى ركن واحدة بعد الأخرى فتتجمع لديه طائفة كريمة من المواسى الصّدّة المشكلة ؟ إنه ليقف هذه الوقفة الحيرى مرة كل يوم ، ولا يجد له مخلصاً إلا بأن يقذف بالموسى فوق الحزانة ، وليكن من أمرها ما يكون !

وضعت الحقيبة أوزارها ، فتهيأنا للانصراف . . . ولم أنس أن أحشو جيبى بالمصورّات لأستعين بها على ارتياد الطريق . ودخلنا المصعد نسأله الهبوط . . . الزنجيّة على حالها تستدبرنا ، وهى فى حلّتها الرسمية : دُميّة مائلة ليست أكثر من أذن تصغى ويد تمتد . . . أتراها تمثالا آلياً يتحرك ؟ أم هى حقاً مخلوق من طينة البشر ؟ !

غادرنا الفندق نقصد عيادة الطبيب . . . ولكن في الوقت
سعة . . . إذن فلا بأسَ بجولةٍ نلتَمِسُ بها متعةً وسلوى .
خطونا إلى « الشارع السادس » ، فألفينا أنفسنا في عُبابِ
زُخَّارٍ . الناس في حركة موصولة ، كلٌّ في شغلٍ بنفسه ،
والسيارات تذهب وتجيءُ مارقةً مُروق السَّهام .

ومررنا بحانوتٍ يعرض « الفِشار » . . . تلك الذِّرة التي
تُقلى على النار فيخرج قلبُها ناصعَ البياض ، كأنه الزهرة تتفتح
لاستقبال الحياة . . . لقد كان هذا الحانوتُ يعرض « الفِشار »
عرضاً لطيفاً يجتذب العيون ، فعرَّجنا عليه كما يعرِّج الطفل
إذا تعلقَتْ عينه بشيء ، وأخذنا منه نصيبنا ، وانصرفنا مشغولةً
أيدينا به ، ووالينا السير نأكل « الفِشار » كما يفعل غيرنا
لا نشعر بغضاضةٍ ولا استنكافٍ !

وبعد قليلٍ مررنا بحانوتٍ عظيم ، يفدُّ عليه الناس فوجاً
بعدَ فوجٍ ، ويصدرون عنه في زحمة تبعث على العجب . أيُّ
حانوتٍ هذا ؟ ما عِلَّة ذلك الازدحام عليه ؟ ولكن مالنا
نسأل ؟ إن الناس يدخلون فلنكن معهم من الداخلين ، وإن

الناس يخرجون فلنتمكن وراءهم في الخارجين . . . !
 إن رُوح الطفولة تتحرك بين جوانحنا بما فيها من خفة
 وتطلع وابتهاج بكل شيء ، وعدم مبالاة بأي شيء . . . كنت
 أحسُّ الطفل يستيقظ في قرارة نفسه ويُطلُّ بنزواته وبوادِره ،
 فيبدو أثرُ ذلك في نظراتي وخطواتي ، وفي إحساسي بما يدورُ
 حولي من مشاهد وأحداث !

وما هي إلا أن خجلتُ من نفسي : كيف أعود طفلاً ؟
 وبدأتُ أراجع النفسَ وأناقشُها الحساب ، ولكنَّ نظرةً واحدةً
 حولى ؛ نظرةً عاجلةً إلى الناس يتدافعون في غيرِ اكتراث ،
 كشفتُ لى أنى أحيا بين أطفال . . . أطفال يمرحون ويُعابث
 بعضهم بعضاً !

إن الطفل ليكنُ بين نفوسنا سجيناً مهما ينضج العقل
 وتكتملُ الرجولة ، وإن هذا السجين ليظلُّ متربصاً خلف
 أسوار سجنه يرصدُ الفرصة ويلتمس المنفذَ ، حتى إذا واتاه
 التوفيق حيناً لم تلبث الأسوارُ أن تنهارَ في طرفة عين ، ولم
 يلبث السجين أن ينطلقَ من قيوده وعِقاله طافراً شروداً يلهو
 ويعبث ذات اليمين وذات الشمال !

ووجدنا أنفسنا ندخل الحانوت خلف شخص اخترته رائداً لنا دون إذن منه ، وجعلنا نتفقد ماحولنا : موائد حافلة ، أخوة ممتدة ، صحاف عامرة تغدو وتروح ، روائح الأطعمة تداعب الأنوف ، الناس بين جلوس ووقوف لا مشغلة لهم إلا أن يأكلوا ويشربوا . ليس هنالك للكلام مجال ، إنما هي أضرار تطحن ، والسنة تلوك ، وحلوق تزدرد ..

أنكون قد طرقتنا وليمة على الأسلوب الأمريكي ؟

أنكون قد دسستنا أنفسنا بين المدعويين تطفلاً وفضولاً ؟ أين ذلك الذي اخترناه يرود لنا الطريق ، علنا نستبين منه ما غمض ؟ .. ووقعت عيني عليه وهو يشق لجثمانه مسلكاً بين الجموع ، فاستقر أمام خوان رصت عليه أدوات الطعام ، ولا طعام ... ورأيت يتناول صينية يغمر بها بما يلزم من أشواك وسكاكين ، فإلى أن وجدتني أحذو حذوه .. وقفونا أثره ، فقادنا إلى خوان مستطيل تزدحم عليه ألوان الأطعمة والأشربة بين لحوم وخضر وفطائر وحلويات ... وخلف الخوان خدم يُعينون الطالبين على الظفر بما يشتهون حقاً إنها لوليمة فاخرة .

ولكن أية وليمة هذه ؟ وما خطبها ؟

ورأينا الرجل ينتقى ما راقه مما هو معروض ، يرصه على الصينية ويُسارعُ إلى الانصراف . فلم نعم أن نفعل كما فعل ، وأن نتقى لأنفسنا ما انتقى لنفسه من الألوان ، لا ننقص عنها ولا نزيد عنها ، دون إرادة أو تفكير !

وهُر عنا في أثره بصينيتنا نجلس منه على مقربة ، فإذا هو ماضٌ مجرد في اتهام طعامه ، كأن وراءه من يتعجله ، أو كأنه يخشى فوات شيء ، فمضينا نلتهم حظنا من الطعام كشأنه سواءً بسواء !

ونفض الرجل . فنهضنا ، وخطا إلى الباب ، فخطونا . . . وهناك في ركن خاص انثنى الرجل يُلقى بضع قطع من النقود ، فاثنتيننا نلقى مثلها . . .

ودفع الباب يفتحهُ ليخرج ، فكنا وراءه تابعين ! وهنا وقفنا . . . لقد انتهت مهمتك أيها الرائد الكريم ، حَبَبَتِكَ السلامة ، وشكراً لك على أن أرحتنا من متاع الحيرة والارتباك في سوق البطون !

وسموت بعينى إلى جبين الحانوت ، فقرأت :

« كافيتريا »

أنكون قد دخلنا دون أن ندرى أحد تلك المطاعم الشعبية المشهورة التي لا يخلو منها رجاً من أرجاء « نيويورك » ؟ تلك التي يطرقها الآلاف من الأهلين في كل ساعة من نهار ، ليصيبوا طعاماً طيباً بثمانٍ مقبول لا يزعجُ الجيوب ؟

لقد أنستنا سوق البطون موعده الطيب ، فانعجلْ إليه . وحثنا الخطا ، مخترقين « الشارع السادس » إلى « الخامس » ، نسائِرُ ذلك الخضم العظيم ، ذلك الطوفان العميم ، تلك الجموع المتدفعة من الناس ، فسرعان ما وجدنا أنفسنا تلفئنا أمواجه وتقفد بنا إلى الأمام .

ليس لنا طاقةٌ بمنأوةٍ هذا التيار الجارف ، لقد أصبحنا قطرةً ضئيلةً في عبابٍ متلاطمٍ ، فلا حيلةَ لنا إلا أن نندمج فيه ، وأن تترك أشخاصنا تفنى في مُزدحمه .

كنتُ وأنا أتحرّكُ في مسيرى حركاتي الآلية أتطلع إلى ما يُحيط بي من بشرٍ وجمادٍ ، فكأنما اختلط الجادُّ بالبشر ، ليس إلى التمييز بينهما من سبيل !

إنها قوالبُ ، قوالب تتحركُ في الطريق بلا روح ولا حس ؛

وقوالب أخرى قائمٌ بعضها فوق بعض ...

حجارةٌ تتوالى متحرّكة ، وأخرى تتراصُّ متعالية !

يا لله من أمرِ هذه القوالب ! ...

وويل للإنسانية من طابع تلك الحضارة التي تقوم على

أساس من المادة كله صلابةٌ وجفاف !

وإني لأخشى أن تكون القلوب البشرية قد غدت هي الأخرى

قوالب لا تنطوى على عاطفة ، ولا يصدر عنها نبض ولا خفوق !

وتنبهت إلى أننا نتابع السير ، ولا ندرى إلى أية وجهة

نحن ماضون ؟

والطبيب ؟ .. واجتهدنا أن نتزعج أنفسنا من بين تلك

القوالب المرصوفة ، ثم انتحينا ناحيةً من الطريق ، واستخرجت

ما حواه جيبى من المصورّات والرّسوم ، أستهدىها وسيلةً للوصول

إلى دار الطبيب ...

إن المصورّات لتحدث حديثاً مستفيضا عن مرّ كبات

الترام والسيّارات الحافلة ، وعن القطارات التي تسرّبُ في باطن

الأرض ، أو تجرى على معابر الجوّ .

ووقفت أفافِضِل وأمايزُ : ماذا أركبُ ؟ وطالت بي المفاضلة ،

وإذا بعيني تريغان وتراقصُ أمامهما الخطوط والكلمات...
ولكنني ما لبثت أن أحسستُ بنفسى أندفعُ داخلَ سيارة
أجرة، فما إن نُبت إلى وعي ، حتى ارتفع صوتي بعنوان
الطبيب أعلمُ به السائق...

وتسللتُ المصوراتُ إلى جيبي واحدةً إثر الأخرى، تخفي
عن الضوء خزيها وخيبة أملها في أن يكون لمشورتها مقام !
دلفنا بالسيارة إلى « برك أفنيو »... إن العظمة والروعة
لتتجليان بحق في ذلك الشارع العجيب . إنه لخلقٌ بأن يحملَ
ذلك الاسم الذي أطلقوه عليه : « شارع الأرستقراطيين ، لو كان
للأرستقراطية معنى في معاجم الأمريكيين !..

شُقة فسيحةٌ طويلة لا يحدُّها الطرف ، تنبسط في تنسيقٍ
وتنميق ، وتمتاز بالدقة في الهندسة والرسم ، كأنما قيست فيها
الأبعاد والمسافات « بالسنتي » و « الملّي »... يشقُّها ما يسمونه
« الحديقة » ، وما هي إلا بساطٌ من سندسٍ ، طرّزت حواشيه
بأشجارٍ من شجيرات .

أما شواهدُ هذا الشارع العظيم ، فإنك حين تنظر إليها
تُحسُّ بأنها ، وإن كانت تماثل أخواتها نواطح السحاب ، فهي

تبدو هنا أجلّ مظهراً وآثق زُخرفاً وأبهى . إن السماء في هذا الشارع الواسع لتجد فُرْجة رحيمة تطلُّ منها علينا وتبادِلنا التحيةَ في غير ضيق . . . وهذه الأسراب المتكاثفة من السيارات يلاحق بعضها بعضاً كأنها حلبةُ سباق . . . وهذه المصابيحُ الملوّنة المتكاثرةُ على مدِّ البصر ، هي حُرّاس الطريق ، وشُرطة المرور ، يتغيّر لونُها تارةً فيتحرّك الشارعُ طويلاً ويسكن عرضاً ، ويتغيّر لونُها تارةً أخرى فإذا السكون حركةً وإذا الحركة سكون . . . إنه لمهرجانات رائع من النور والحركة يسوده نظامٌ دقيق فريدٌ يأخذُ بمجامع القلوب !

وعرّجنا على شوارعٍ أخرى نقطعُها خطفاً ، وما هي إلا بضعة لحظات حتى كنا أمام دارِ الطيب . فهرعَ إلينا البواب في حُلته الرسمية الأنيقة يُعيننا على النزول ، أو بالأحرى يؤمّننا أنه يفعل من أجلنا شيئاً قميناً بالكريم من التقدير . . . وكان على الرغم من شبّهته واستبانة الشيخوخة في تجاعيد بشرته ، صلب القامة ، أمرّد الوجه ، خفيف الحركة ، مشرق القسّيمات . وتقدّمنا إلى الردهة حيث يقوم في ركن منها مكتبُ « السكرتيرة » . . . فاستقبلتنا بابتسامة تقليدية ، وكانت سمحة

الحَيَا ، فى لبوس أبيض ناصع ، مَعْنِيَّةً بِأناقتها أتمَّ عنايةً ،
حتى إنها لتحرصُ على أن تزيّنَ جانبَ صدرها الأيسر بمنديلٍ يزهر
فى حواشيه وشئُ الربيع ، فكأنما المنديل يستمدُّ من نبع قلبها
الدَّفَاقَ نضارةَ الحياة !

وتبادلنا كُليّاتٍ ، فهِمّتْ هى منها ماذا نريدُ ، وفهمنا نحن
منها أنها مِنْ أمرٍ قدومنا على بَيْتَةٍ .

وأخذنا مقاعدنا بين الزوّار : ردهة أنيقة بهرَّتْ من تلك
الصُّورِ الزيتية التى تزدهم بها الجدران ، وتلك الأنوارُ
الكهربية المسلّطة على تلك الصورِ فى مُساترةٍ ولباقة .

أفى عيادةٍ طيب نحن أم فى مُتّحفٍ قى ؟

وانصرم الوقتُ ، وأنا فى شُغلٍ بهذه الروائع ، أتملّأها فى
نشوةٍ واستمتاع .

ثم طُلبنا لتصعدَ : فواجهتنا بباب الطبقة الأولى
« سكرتيرة » فى لبوس أبيض ناصع ، يطلُّ من صدرها ذلك
المنديلُ يوشيه زهرُ الربيع . إنها نسخة من « السكرتيرة »
الأولى فى كل دقيقٍ من مظهرها وجليل ... وتراءتْ لنا فتياتُ
أخرُ فى لبوسهن الأبيضِ ومناديلهن المزهرة يغدون ويرحن

قائمات بما بين أيديهن من الأعمال... إلهن نُسَخ متشابهة ،
كأنهن جميعاً فتاةً واحدة يتكرر ظهورها أمام ناظريك ...

أئمة قوالب أخرى تواجهنا في تلك الدار الوداعة ؟
تلك هي الظاهرة الواضحة في الحياة الأمريكية : تشابهُ
وتماثل فيما تراه العيون من صغير وكبير ، صور متكررة لشيء
واحد لا تغيير فيه ولا تبديل !

ودخلنا حجرة صغيرة ، وحُشِرنا بين زُمرة الناس . إنها
إحدى تلك الحُجُر الزاخرة بطلاب الصِّحة ... وما كُدت
أقتعدُ مقعدى حتى طالعتنى صورة كبيرة تزحُمُ حائطَ الحجرة
وقد سُلِّطت عليها الأنوارُ تجلوها أروعَ جلاء . إنها صورة
« برومسيوس » طريح صخرة عاتية تُثْقِلُه الأغلال ، وهو يرنو
مُلتاع النفس جزعاً إلى النسر الجائِم على مقربة منه ، بمنقاره
المعقوف الحادّ ، يتوضح فيه سُعارُ الجوع وتلُشب الظمأ ،
وعينهات تلظى فيهما شهوة الفتك والشر ... وهذا النسر يتأهب
للاقتضاض على ذلك الإله المنكود ، لينهش كبده ، شأنه معه
في كل يوم !

إن روعة الأسطورة اليونانية ، وما يتدفق فيها من

حيرتة وجلال . لِيَتِمَّ ثَلُ فِي فَنِّ هَذِهِ الصُّورَةِ قُوَى الْإِدَاءِ
صَادِقَ التَّعْبِيرِ . . .

لِلَّهِ أَنْتَ مِنْ فَنَانٍ أَيُّهَا الطَّبِيبُ !
إِنَّ الْمَرِيضَ لِيَطْمَئِنُّ إِلَى مِبْضَعِكَ الْمَتَأَلِّقِ دُونَ وَجَلِّ
أَوْ تَهَيَّبْ . . . لَنْ تَكُونَ إِلَّا فَنَانًا فِي طَبِّكَ ، كَمَا أَنْتَ فِي
ذَوْقِكَ فَنَانٍ !

إِنَّ الْمَرِيضَ الَّذِي يَحْتِجُ فِي عِيَادَةِ هَذَا الطَّبِيبِ وَقْتًا لِيَنْسَى
أَنَّهُ فِي مِثَابَةِ عِلَاجٍ وَدَارِ اسْتِشْفَاءٍ . لَهُ لِيَتَخَيَّلَ نَفْسَهُ فِي مَعْرِضٍ
عَامِرٍ بِالْوَانِ التَّحْفِ الْفَنِيَةِ الَّتِي تَقَرُّ بِهَا الْعَيُونَ ، وَتَنْشُرَحُ لَهَا
الْصُّدُورُ . . . إِنَّ السَّاعَاتِ لَتَتَلَوَّ السَّاعَاتِ ، دُونَ أَنْ يُحْسِنَ الْمَرِيضُ
لِلْوَقْتِ طَوْلًا .

أَحِيلَةٌ هِيَ التَّمَسُّتُهَا يَا صَدِيقَ الطَّبِيبِ لِيَغْفَلَ الْمَرِيضُ عَنْ
مَرِيضِهِ ، وَيَوْقِظَ فِي نَفْسِهِ الْأَمَلَ وَرَاحَةَ الْبَالِ ؟

أَنْتَ بِهَذَا تَضْرِبُ الْمَثَلَ الصَّالِحَ ، وَتُعْطِي الْقَدْوَةَ الْحَسَنَةَ . . .
أَلَا يَفْكَرُ غَيْرُكَ مِنَ الْأَطْبَاءِ فِي ابْتِكَارِ وَسَائِلِ أُخْرَى
تَحْمِلُ ذَلِكَ الْجَوْءَ الْقَاتِمَ الْمَمْلُوءَ بِالْفَزَعِ وَالرَّهْبَةِ جَوًّا رَخِيًّا
تَشْبِيعَ فِيهِ نَسَمَاتُ انْطِمَائِنِيَّةٍ وَالثِّقَةِ بِالْحَيَاةِ ؟ !

وانتقلنا إلى حجرة ثانية : مُتَحَف آخر يتألق بما فيه من رائع الصُّور وباهر الأضواء .

وأخيراً طرّقنا محراب الطيب ... حُجْرة صغيرة أنيقة ؛ ولكنها على صغرِها حوت كلَّ جديدٍ في فنِّ العلاج الحديث . وبدا أمامنا الطيب ، صديقنا المنشود : قامة ضئيلة ووجه ضامر ، بعينين تاهتتين تشرد نظرُهنّ ما هنا وهناك دون مبالاة ، وظلّ ابتسامة ترفّ على شفّتيه ، أكبرُ الظنّ أنها كلّ ما في جعبته من تحية واحتفاء !

وحوّمت في الرأس خواطرُ خاطفة ...

أذلك حقاً هو بيتُ القصيدِ في رحلتنا إلى العالم الجديد ؟

أهذا هو مناطُ الرجاء ، وفجر التمني ؟

أهذا هو الذي من أجله طويّنا بساطَ الريح على جناحِ العقابِ ، لانبألى صعابَ الرحلة ووحشة الاغتراب ؟

وسرعان ما بدأ الطيبُ عمله ... إنه لشحيحٌ بالوقت ، ضنينٌ بالكلام ، مُقتصدٌ في الحركة والإشارة ؛ يحيط به سربٌ من فتيات متشابهات ، كلٌّ منهن مَنُوطٌ بها عملٌ خاصٌ

لا تعدوه ، وإنهنَّ ليحزرنَ ما يريدُ الطبيبُ من وحي نظراتِه ،
فيؤدِّينَ عملهنَّ صامتاتٍ !

وانقضت الزيارةُ في هذا الجوِّ الساكن ، حيث لا كلمة
تُقالُ إلا بمقدار ، ولا حركة تؤدَّى إلا بميزان ...

وأحيل أمرنا إلى كبيرةٍ « السكر تيرات » ... رداء ناصع ،
ومنديلٌ يزهو على الصدر ، وابتنسامة تتخايلُ على الشَّعر ...

وفي بضع لحظاتٍ عرفنا كلَّ شيء :

العلاج ، موعده ، مدته ، نفقاته ، سائر ما يتعلق به .

وغادرنا مكتب « السكر تيرة » الكبرى ، هابطين إلى
ردهة الدار .

وبينما نحن ندير الحديث في شأنِ العلاج ، تدانى منا
شخصٌ يطارحنا الكلامَ بِلغةِ الوطن ... هذا مصريٌّ آخر
رَمَتْ به النوى مرامِها لمثل ما قدمنا من أجله . وقد أوْشَكَ
علاجُه أن ينتهى ، وفي لمح البصر زالت بيننا الكُلْفَةُ ، وكان
الودَّ يرِبطُنا به منذُ أعوامٍ . ألسنا مصريَّين غربيَّين هاهنا ؟
« وكلَّ غريبٍ للغريب نسيب » !

واستطردَّ بنا الحديثُ إلى نفقاتِ العلاج ، فتبيَّنَ لنا أن

الطبيب لا يسوّى في النفقات بين مرضاه ، وإن كان العلاج على نحو سواء .. وعلينا أن هذه سنة جديدة يتبعها كثير من أعلام الطب الأمريكيين .. إن الطبيب هنالك ليقدر النفقة وفقاً لاعتبارات خاصة بالمرضى فيما يقول .

نظرية أمريكية حقاً ... إنها لنظرية طريفة تبدو عادلة راحة ، ولكنها في حقيقتها وجوهرها مرتّعة خصيب للمداورة والتلاعب ، من جانب المرضى تارة والطبيب تارة أخرى .. إن « توحيد الثمن » في العمل الواحد أو السلعة الواحدة ركن من أركان الاقتصاد القانوني ودقة المعاملة في حضارتنا الحديثة .

ولطالما عيب علينا نحن الشرقيين أسلوب المساومة والتفاوت في ثمن السلعة الواحدة ، وما يحيط بذلك من الألاعيب وضروب الاستغلال والانتهاز للفرص ، حتى لقد كانت « السوق الشرقية » مضرب المثل عند الغربيين في فوضى الأثمان ، والتغابن في البيع والشراء ...

إنى لأخشى على كبرى المدائن المتحضرة أن تنقلب بعد حين سوقاً شرقيةً تسودها فوضى المعاملات تحت ستار بهرج

تفسير
الكتاب

من النظريات الاجتماعية الطريفة ، ظاهرها فيه العدل والرحمة
وباطنها من قبلة الجور والاعتساف ! ...

إن حضارة اليوم القائمة على مبادئ إجتماعية رفيعة
جديرة بالتقدير ، نراها قد رقت من بعض جوانبها ، فإذا بها
عرضة للتمزق ... ولو استمر الحال على ذلك لاصبح غزوؤها
مطلباً ليس بالعسير ، ولأصبح انهيارها أمراً ليس بالبعيد !

زايلىنادار الطيب

لم نستمعُ بعدُ بهجة « الشارع » فى « نيويورك » . . .
إذن ، بنا إلى « الشارع الخامس » ، نجوبُ أرجاءه ،

58
شماره

نروحُ عن النفس ، وننأى عن حديثِ المرضِ والعلاج !
الناسُ أجمعون فى هذا الشارع يبينُ عليهم سيماءُ اليسرِ
والرخاءِ : أناقةُ فى الزيِّ ، وتَرَفُ فى الملبسِ ، ورفاهيةُ تُفصحُ
عنها المظاهرُ . . النساءُ فى معاطفِ الفروِ الثَّمنِ ، والسيقاتِ
دائماً تكسوها غلائلُ الجواربِ الفاخرة . ليس ثمةَ من ساقِ
عارية . . ولكن أىَّ فرقٍ بين الساقِ العارية والساقِ المصبوبةِ
فى جواربِ رقيقِ النسيجِ نَمَّامٍ عن دقائقِ الفتنة والجمال ؟ . ١٩ .

لا وَّحدةَ فى الزيِّ . ولا مراعاةَ لمألوفِ من التقاليدِ والعاداتِ
إن بعضَ النساءِ لا يُبالين أن يظهرنَ فى لبُوسِ الرجالِ ،
متخذاتٍ تلكَ السراويلِ الشائعةَ ، كأنهن فى البيوتِ متنقلاتُ ،
أو على انشواطىءِ متنزّهاتِ . . ثمةَ طالباتُ يتخذُنَ هذه
السراويلَ تيسيراً للحركةِ ومسيرةً للنشاطِ ، وثمةَ عجائزُ يتخذنها

اجتذاباً للأَنظار إلى أَطلالِ نضارةٍ عفتْ عليها السَّنون ، أو سترأ
لسيقانِ ألحَّ عليها الضمورُ والهزال !

وهذه وجْهاتُ المتاجرِ والمخازنِ . . . إن العبقريةَ
الأمريكيةَ في الأناقةِ والتنسيقِ والتألقِ ، تبدو في هذه الوجْهاتِ
بالغة الإبداعِ . . . إن الكمالياتِ لتُنافِسُ الضرورياتِ في معارضِ
تلك المتاجرِ ، فتغدو هي ضرورياتِ ليس عنها غناء . ولم
لا يكون الأمرُ كذلك ونحن في عاصمةِ النعيمِ والثراء ؟

واسترعتْ نظرنا وجْهةً تزهو في تألقها ، فوقفنا لحظةً
نتأمل فيما تعرِّض من ضروبِ الأحذية ، وما هي إلا أن
وجدنا أنفسنا في داخلِ المتجرِ ، نطلبُ حذاءً راقنا شكله !
وبدا حيالنا رجلٌ أنيقٌ حيانا في أدبِ تحيةِ خاطفة ، وسألنا :

فيمَ نرغبُ ؟ .. إشارةً منه إلى ذلك المصعدِ ليلبِّغنا القسمَ
الذي نجد فيه طَلَبَتنا . . . وصعدنا . . . رجلٌ أنيقٌ آخرُ ، يحيينا
تحيته الخاطفة ، ويدلنا في عجلةٍ على المكانِ المنشود . . . واتجهنا
حيث أشار . . . أنيقٌ ثالثٌ يرحِّب بنا على ذلك النحو المعهود .
يا لله من هؤلاءِ المؤنِّقينِ الوجَّهاتِ ! . . . كأننا في قصرِ سيدٍ
عَظريفٍ تستقبلنا حاشيته . . . وأشار الرجلُ بيده إلى ناحية ،

قائلاً : المشتري يتجه يمينا ، والمُرافق يتجه إلى اليسار .
فخطوتُ يَسْرَةً ، فوجدتُ نفسي في زُمرةٍ من الرجال ،
يقتعدون مقاعد الانتظار ... في ذلك الركنِ يروضُ المرءُ
نفسَه على فضيلة الصبرِ والاحتمال !

وجلسْتُ أبادلُ الرفاقَ نظراتِ الاستسلام ، والتفتُ
يَمَنَةً ، فإذا بالمشتريين « طابور » ... كلُّهُ ينتظر دَوْرَه .

وامتدَّ بنا الانتظار ، فهُضتُ من ركنِ المرافقين أحاولُ
أن أقتحمَ مِنطقةَ الشُّرافِ ، فما أَسْرَعَ أن بدأ الأنيقُ يعترضُ
طريقي ، وبعيدُني حيثُ كنتُ !

يا عجباً ! .. هانحن أولاءٍ في هذا البلد الذي يوزَنُ فيه
الوقتُ بميزان الذهبِ ، نرى أنفسُنا أكثرَ الناسِ إضاعةً لأوقاتهم
وأشدَّهم تفريطاً فيها ! ... ولكنْ ما الحيلةُ ، ونحن في متجَرٍ
عظيم لا تستقيم فيه الأمورُ وتديق المعاملاتُ إلا بنظام مفروضٍ
له مزاياه وله مساوئُهُ الجسام ؟ !

إنَّ هذا النظامَ قد جعلَ شراءَ زوجٍ من الأحذية يبلغُ
من التعقيد مبلغاً يَزهدُ مثلي في احتمالِ تبعاته ... إني لأوثرُ
الحفاءَ على أن أبقى رهينةَ حزبِ اليسار ، أشقى بموصول الانتظار !

وبعد لأي خرجنا من المتجر ... بخفسي حنين!
وأحسنتُ بأعصابي تهافت .

ولم نكدُ نمشي خطواتٍ حتى شعرنا بوطأة الجوع ، فطرقنا
مطعماً خلبتُنا وجهته ... صبيغة وردية بهية تزهو تحت الأضواء
الآلقة ، فُكسبُ المكان جوّاً سحريّاً ...
ووجدنا أنفسنا قد انتظمنا في صف طويل ...

وهذا « طابور » آخر ... نحن في بلد القوالب و « الطواير »
ذلك البلد الذي يروضنا على فضيلة الصبر والاحتمال ...
وكنا نتحرك كالآلات ، نخطو إلى الأمام كلما خلا من
أول الصف مكان . وحانت مني التفاتةٌ إلى الخلف ، فإذا بي
أشهد « طابوراً » آخر سرعان ما ائتلف ... فابتسمتُ ابتسامة امتزج
فيها الإشفاق بالارتياح : إني لمشفقٌ على أولئك اللاحقين
الجياع الذين ينتظرون دورهم البعيد ، وإني لمرتاحٌ على أية
حال لما أصبته من سبق يعفيني من مضى الانتظار .
وظهر أنيقٌ يلقانا بوجهه الطلق ، ويوليننا نظرتَه العجول ،
وأصدر أمراً في شأننا ، فتحركنا طوعاً أمره إلى المائدة التي
فُرِضتْ علينا ، لا تفضيل ولا اختيار ... وبدأ سُرْبٌ من
فتيات المطعم يتنقلن بالصّحاف بين الموائد خفاف الحركة

رشقات، كأنهن ظباء بين الخنائل تنساب ... وكنّ في محلّل
وردية وميادع ناصعة البياض قصار، يشهد الله أنها لم تتخذ
لتصون ماتحتها من ملبس، وإنما اتخذت للزينة واختلاب
العيون ...!

وأقبلنا على الطعام ... وكانت القاعة على ما فيها من حركة
دائبة، واكتظاظ بالرواد، لا تزجج أحداً بصوت ينكره
السمع ... كل شيء يسير على نظام دقيق، إنه نظام الآلة
الصماء، حتى إن الأكل نفسه ليجرى على أسلوب آلي ...
يجب أن تأكل ناشطاً، وأن تخصّ جلستك للأكل وحده،
حتى تُخلّص لغيرك المكان.

إنك لتحس صوت «الطابور» يهتف بك مستحيّاً!
وزايلنا المطعم، فواجهنا الشارع، وقد اكتسى حلة من
مختلف الأنوار، وتبدّت وجهات المخازن والمتاجر في زخرفها
الفنّان ... ولكنّ الوقت مساء، والأبواب موصدة، فليس
أمامنا إلا أن نتبادل النظرات قانعين!

والآن، إلى أين؟ سؤال القيناه على أنفسنا، فكانت
الاجوبة شتى متباينة، ولكننا لم نجد من بينها جواباً يُزيّن
لنا أن نعود إلى الفندق ... أنزجج بأنفسنا في حجرة الفندق،

تاركين مباحج الليل ويقظة الحياة ؟

والفينا أقدامنا تدفع بنا إلى «برودواي»... ورُحنا مخر
عبابه المتلاطم : مواكب من الناس تسبح في فيض زاهر من
الأضواء... إن «برودواي» علم من أعلام النور ، بل إنه
اسم من أسمائه ومعنى من معانيه ، إنه الحى الذى يجد فيه
كل امرئ ما تصبو إليه نفسه من ضروب الملاحى وألوان
التسلية . . هذه دور اللهو والطرب ، تنخلها مطاعم
ومشارب رشيقة فاخرة .

لا أثر هناك لما ندعوه «بالقهوات» إن الناس لا يجدون
وقتاً ينفقونه فى الثثرة ولغو الحديث ، وإنما يحلون تلك
الآما كن ليطفئوا الظماً ويردوا الجوع !

وطرقنا مشرباً ، أو سمّه مطعماً ، فالمطاعم هى المشارب ،
وهذه هى تلك على حد سواء !

رجعة إلى نظام «الطواير»... حتى للحصول على قدح

من شراب !

حسبنا ذلك الآن من «برودواي»...

وإن لنا إليه لرجعة بل رجعات .

اليوم يوم «الأحد» ، مدينة «نيويورك» صامتة كأنها وادى الأموات ... لقد اختفت من الشوارع أفواج السابلة ، واستراحت الأرض من غزوات السيارات ، وحل مكان ذلك كله هدوء شامل ، كأنك في مدينة أخرى غير التي شهدت أمس !
يوم «الأحد» في «نيويورك» يوم هادئ ، بل يوم هادئ ، إما أن تجعله يوم راحة إجبارية تلزم فيه مخدعك ، وإما أن تجعله يوم نزهة تخرج لها في إحدى الحدائق أو الضواحي ..

واخترنا أن نبدأ نشاطنا بعد الغداء ، فخرجنا نطلب النزهة ، تاركين للمصادفات أن ترتب لنا وجهة السير .

وأحسست بالمصورات الخاصة بمسالك «نيويورك» ومعالم طرقها تزحم جبي ، وكأنها تتقاضاني حقها في إبداء الرأي ..
قصدا «الشارع الخامس» ، صديقنا الأول ، ووقفنا لحظة لتساءل : أئمتنى سيارة أجرة تجوب بنا أرجاء المدينة ، أم نسير مترجلين يسلمنا طريق إلى طريق ؟ ...

وهنا أطلت المصورات من جيبى تعرض علينا خدماتها
الجسام ، وهممت بأن أمد إليها يدي ، وسرعان ما رأيت سيارة
حافلة تقف على مقربة منا ، فدخلناها على الفور ، لا ندري
من أمرها أى شيء . . . !

وصعدنا إلى الطبقة العليا منها ، وكانت حقاً سيارة فخمة
أنيقة ، راحت تعدو في « الشارع الخامس » عدو النمر الجسور
في فلاة جرداء .

وأخذنا نتطلع حولنا في بهجة واثتناس ، ونأمل رقعة
السماء الصغيرة تحاول في جهد وعناء أن تطل علينا من بين
شواهِق الأبنية المتراصّة ، وكان الجو صحواً يذكى فينا تلك
اليقظة التي تسرى بين جنوبنا .

وظللنا حيناً والسيارة الحافلة تمضى قدماً لا تنحرف
ولا تحيد ، ثم انتهت بنا المرحلة إلى « ميدان واشنطن » .
وألقينا أنفسنا نترك السيارة . . .

ميدان رحب أحسن تنسيقه ، ولكنه يعجز عن إشعارك
بالعظمة والفخامة ، تبدو عليه مسحة من الكآبة لا تعرف لها
مأى . . . بوابة كبيرة تذكارية ، هي قوس النصر إنها لبوابة

عليها تجهم وعبوس... أشجارٌ منشورةٌ هنا وهناك... روضةٌ
للأطفال... شراذمٌ قليلةٌ من عُرضِ الناسِ تغدو وتروح.
ليس فيك ما يُغري يا «ميدان» واشنجتون!
عودةً إلى السيارة الحافلة.

وأخذتُ تعودُ بنا أدراجها، سالكةً ماسلكتُ من طريق
محدود... إن ركوبَ هذه السيارة الحافلة لنزهةً طيبةً لا تدعُ
لأنفسنا رغبةً في النزول. إننا لنركبُها كما يركبُ الطفلُ اللعوبُ
حصانَ «السَّيرك» لا يَزْهَدُ فيه مهما دارَ به ودار...
وبعد وقتٍ طالعتُ أعينُنَا خُضرةً واسعة. خُضرةً عظيمة
تكسو الرِّحَابَ نضارةً وتملأ العين بهاءً... إن ابتسامةَ ذلك
البستانِ لتنتزِعنا من صَهْوَةٍ حصان «السَّيرك»، وتجتذِبُنَا
إليها في لَهْفَةٍ وشوق!

النسيمُ رطبٌ منعش، والشمسُ وضّاحةٌ مُسْتَسْفرة، وكل
ما حولك يَرِفُ نضرةً وازدهاء!
ونزلنا نتهادى إلى سورِ ذلك البستانِ الفَيّاح، متطلعينَ
إلى مباحجه... وما كدنا نخطو خُطْوَتَيْنِ حتى سمعنا صوتاً يقول:
هل لكم في جولةٍ في «السنترال بارك»؟ يَحْمِلُ بكم أن

Central
Park

تنتهزوا فرصة اعتدال الجوِّ قبل أن يتقلب !
ونظرتُ ، فإذا أنا أمام شيخٍ فارِعِ القوامِ في حُلَّةٍ رسميةٍ ،
وقبَّعة سوداءٍ عاليةٍ أفصحتُ عن مهنتِهِ الأصلية ..

ولمحتُ على مقربةٍ منه مَرَكَبَتَهُ الفخمة النظيفة يتلوها
رَتَلٌ من المركبات تماثلُها غفامةٌ ونظافةٌ ، كأنما أُعدَّتْ
لرَكَب زفافٍ أو مَوَوكب استقبال ...

وأعاد الرجلُ قوله في بشرٍ وملاطفةٍ ، فكان أن صَعِدنا
في المركبة دون جواب !
جولةٌ في « السنترال بارك » ...

لم نسأل الحَوَذيَّ عن مدَّةِ الجولةِ وأجرها ، إن المكانَ
لأروعُ من أن نساومَ في شأنه ...

لسنا في مَرَكَبَةٍ أجرةٍ عرجاءٍ ، ولسنا في جوف الليل نقضى
الوقت في عاصمية الصمت والظلام ! ...

عفوك يا « باريس » ... فإن مركبتك المهشمة وحوذيتك
المخمورة لا تنساها ، وإن تناءت الديارُ ، وتعاقت الأيام !
ومضت المركبةُ تجوسُ خلالَ الروضةِ الزاهرة ، تارةً
تسلكُ بنا فِساحاً من الطرق تنبسطُ على جانبيها المروج ، وطوراً

فتسلل إلى مسالك رشيقة قامت على حفايفها الأشجار المورقة
الفيضانة ، فتشقُّ بنا الطريق بين الخنازل والعرائش ، كأننا فصوليون
تُفرِّقُ بين الأغصان والأفنان وهي في مواصلة وعناق ...
المركبة مازالت تمضي ... نهبطُ بها وهادأ ونعلو نجداداً ،
نعبّر بها جسوراً ونسائرُ جداولَ وبحيرات ، ونقتحم غابات
تتشابك فيها بواسقُ الشجر ...

كلُّ ذلك والروضةُ تتجدد وتمتدُّ ، ولا يُدرِك لها آخر .
إن الحودى قد ألقى العنانَ لجواده ، وإن ذلك الجوادَ
المطهَّم الأصيل ، ذلك الصديق الكريم ، ليقودُنا حيث يريد .
إنه لا كثر شيء علماً بهذه المسالك والدروب ، بل إنى لأحسُّه
يشارِكنا هذا الاستمتاع بفتنة الطبيعة وجمال الكون !

إن « السنترال بارك » مزاجٌ عجيب من صبغة الطبيعة
وصنعة الإنسان ... لقد جالت يدُ الفنِّ في حواشيه ، فأخرجت
منه لوحاً رائعاً ، مادَّته من خلق الطبيعة وروحُه قبسةٌ من
روح الفنان !

هذه الحضارة الأمريكية ، بل حضارةُ اليوم ، تقومُ على
هذا المذهب : تطويعُ الطبيعة لخدمة البشر ، استغلال منافعها .

تكميل عناصرها، تجلية مفاتيحها... حضارة اليوم إذن هي
تزاوج بين فطرة الطبيعة وعبقريّة الإنسان... فإذا ظلت
النسب مرعيةً الجانب بينهما فمّ الخير والتوافق، ولئن بغى
أحدهما على صاحبه ليكون من وراء ذلك التنافر والشقاق!
ثمة مثلٌ لضرورة هذا التزاوج، يمكن أن نراه في زينة
المرأة. فإن روح الزينة هو إظهار مفاتيح الأنوثة الطبيعية
في مظهر فنيٍّ أخاذ، فإن طغى زُخرف الزينة كان ذلك تشويهاً
للطبيعة وتبديلاً لها وتزيوراً عليها.

فلزامٌ على المرأة في زينتها أن تُحسّن المزج ومراعاة
النسب في دقّة ولباقة.

عليها أن تكون فنّانةً تُجيد تجلية صورتها في لوح فنيٍّ
قوامه صدق التعبير وبراعة الإخراج!

... رَجَعْنَا أَدْرَاجَنَا نَسْتَمْرِدُ أَلْوَانًا مِنَ الْأَخِيلَةِ، أَثَارَهَا

في خواطرنا ذلك الرّوضُ البهيج.

٨ أبريل

على أن أدبج بعض الرسائل إلى « مصر » ... رسائل
ليس من تدبجها بدّ .. على أن أخلو إلى نفسي بعض الوقت
أحتبس في ذلك البرج العالى ، لأتحدث على البعد إلى من تصانى
بهم وشائج القرى أو أواصر الود .
شدّ ما يهولنى ما أنا مُقبلٌ عليه .
إنه كأعمال السخرة ...

جبال رواسخ أحاول أن أحملها على كتيفى ...
صفحات وصفحات لا بد أن أوشى سطورها بزخرف
الكلام ، محتما إياها بتلك الفقرة الخالدة :
« و تفضلوا بقبول وافر الاحترام ! »

ما كان أكثر عناء القلم من تكرار هذا الختام
التقليدى ... إن ذلك القلم ليرفع رأسه إلى ساخر آيهمس :
هلا جدّدت فيما تكتب ؟ هلا استبدلت بهذه القوالب
الأثرية تعابير أخرى عليها جِدّة ورونق ؟

ليست تلك الفقرة يا قلبى الكريم هى كل ما يتطلب الاستبدال والتجديد... إني لأرى « الرسالة » نفسها قد طال عليها الزمن حتى أدركها البلى... « الرسالة » على اختلاف الحقب والعصور، منذ ضربت بها الإبل أرجاء الفيافي إلى أن حملتها الباخرة فالطائرة من أقصى مكان إلى أقصى مكان... إن « الرسالة » هى هى : صحيفة تطوى، وغلاف يصون ! ما أشوقنى إلى اختراع آخر يحل محل هذه « الرسالة » العتيقة ! لم لا تكون للإنسان مسرّة لا سلكية أو نحوها يقوم التخاطب مقام التكاثر. فتغنى الأصوات عن الأسطار، ويغنى اللسان عن القلم، ويغنى الأثير عن ورق ومداد ؟

ما أشوقنى إلى عهد يسوده هذا الاختراع ، لينجينا من تلك الجلسات المملة الطوال نعتصر فيها الفكر ونستنزف المداد ، على حين أن كلمة واحدة أو كلمتين من فم إلى فم ، يكون فيهما غناء عن سطور كثار .

ولكن قد يرضى أمر لا يجد فيه غيرى مبتغاه ، فثلاً صديقنا العاشق المقيم يستمرى نشوته فى الجلوس ساعات وساعات إلى مكتبه يدبج وينسق . يسكب روحه على الصحائف

جمالاً وكلمات... إنه لو اجِدُّ في هذه الرسائل صديقاً أميناً
يستودعه ما يريد من مناجاة وأسرار ، لا يستطيع أن يروح بها
تخاطباً ، ولا أن يُلْقِيَهَا من فيه ارتجالاً ، فإن الكلمات لتعثر
على شفقتي العاشق الواله ، وإن الأفكار لتشرُّد من رأسه ضالة
حيرى ، فإن خلا إلى قلبه وقرطاسه ، واتاه الكلامُ يسيراً
غزيراً ، وأقبلت عليه الخواطر طيعةً مجيبة !

بين يدي أوراق مبسوطة صامتة معتقة اللسان ، ترغب
في الإبانة والإفصاح ، وعن كُتِب مني قلمٌ عامرٌ متأهبٌ للنزال ،
أراه يخالِسُنِي النظرَ متمللاً... فلا بُدَّ أن رسائل !

ورُحْتُ أعتصرُ رأسي في حمية وحماسة ، فلم تدِرَّ قريحتي
إلا تلك الجملة المعهودة :

« وتفضلوا بقبول وافر الاحترام ، !
إنها الجملة الفدّة التي تُدَوِّي في رأسي بصوتها المُجْلَجِل ،
وكأنها تقول :

ليس في الإمكان أبدع مما كان !
وفيما أنا تنازعُني الحيرة بين القلم والقرطاس ، إذا بي
أسمع نقرأ بالباب .

— ادخُلْ .

قلتها دون أن أتحرك .

وأحسستُ شخصاً يطرُق الحجرةَ بخُطَا نَاشِطَةٍ ، فألقيت عليه نظراً : رجلٌ في زِيِّ العمال ، يُطَوِّقُ خَصْرَهُ حزامٌ من جلد ، ويده شبه حقيبة .

وسمعتُه يقول :

أَيَاذَنُ لِي السَيِّدُ أَنْ أَزُولَ عَمَلِي ؟

— دونَ شكٍّ . . . تفضل .

مالى ولعمله ؟ فليفعل ما يريد ، ولأَمْضٍ فيما بين يدي

أعاجُ مشكلةَ الرسائل . . .

وعدتُ إلى نفسي أفكّر ، وعادت الجملةُ المعهودةُ تحاصرني

وتملأ ما حولي طينياً .

وأنهتُني حركةٌ من الرجلِ الطارق ، وصوتٌ أشبه بالقفزة ،

فتلفتُ فإذا الرجلُ لا ظلَّ له . . . !

لقد كان بجوارِ النافذةِ اللحظةَ ، فماذا حدث ؟

وازدحمت على الهواجسُ ، وأحسستُ تخاذلاً وحيرةً .

أأواجهُ حادثَ انتحار ؟ ولكن لم وقع اختيارُ هذا المنتحرِ

الأحق على حجرتي ؟ ألأنها في ذروة الفندق ؟ ...
وبادرنى خاطرٌ آخر : أَيْكون هذا الرجلُ نمشلاً سِنَمِيّاً
يقوم الآن بدوره ، وهناك فى السطوح ترصد الآلات
المصوّرة حركاته وسكناته ؟

وهرعتُ إلى النافذة ، فما راعنى إلا أن أرى صديقنا
العاملَ وقد علّقَ حلقةَ حزامه بطرفِ الشَّبَّاكِ ، وأسلم جسمه
للفضاء ، وانبرى يُنظفُ الزجاجَ فى سَكينةٍ وهدوء .
وجعلتُ أتأملُه لحظةً ، وقد استعدتُ طمأنينتى ، وتبادلنا
الابتسام ، وأرسلتُ نظرةً إلى الأرض ، فإذا المَهْوَى سحيق .
حقاً إنه لرجلٌ من فولاذ !

ولم أَعْتَمُ أَنْ رَأَيْتُ فى شواهِقِ المباني قريبا وبعيدِها
أشباحاً تتراقصُ على حافاتِ النوافذِ تروّحُ وتجىءُ فى سهولةٍ
ويُسْر . كأنها العناكبُ تتشبّثُ بالحوائطِ والجدران .

إنهم جميعاً يُمِيطون الغبارَ عن الزجاج .

إن النوافذَ فى هذا البلدِ العجيبِ لها خَدَمٌ مختصون ، يناطُ
بهم تعشُدُها وإمالةُ الغبارِ عنها حيناً بعد حين !

فلأدعُ ذلك الرجلَ المعلقَ بين السماء والأرض ، ولأرجع

إلى مكنتي ...

وأسرعتُ أُجْتَذِبُ بطاقةً مصوّرة ، وأثر فيها كلمات
عَجَلِي ، ذَيْلُهَا بِالْجُمْلَةِ الْمَعْهُودَةِ :

« وتفضلوا بقبول وافر الاحترام » !

وتنازلتُ البطاقة ، تلك التي تمخّض عنها جُهدُ جَلَسَتِي
وخلوّاتِي . ومضيتُ مَرَّهُوَ إِبْهَذَا الظَّهْرِ أودع البطاقة صندوقَ
البريدِ القائمِ بِجِوَارِ بابِ المِصْنَعِ .

وبعدَ قليلٍ زائلتُ الفندقَ ، وأنا أستلهمُ « مفكرتي » :
ماذا أصنعُ ؟

إنه يومُ القنصليةِ المصرية ... هي على مَسِيرِ خُطُوات ...

فَلَا قَصْدَ إِلَيْهَا ... وما هي إلا هنيهة حتى كنتُ أمامَ ناطحةٍ من
نواطح السحاب . إن القنصليةَ تحتلُ ركناً في الطبقة الحادية
والثلاثين من هذا الطَّوْدِ الباذخ ، وإِنها في ركنها لتقاربُ منطقةَ
الجوزاء ... شرفٌ يُهْدِي إلى النفسِ الغمطةَ والابتهاج !

لا يجهلُ أحدٌ ما للقنصليةِ المصرية من مكانةٍ ملحوظة في
« نيويورك » ، وما للسفارةِ المصرية من جاهٍ في « واشنطن »
لعلك تتساءلُ مع المتسائلين : أى ربح أصبناه ؟ أليس هو

ربحاً موهوماً ؟ ألم يكن أولى بنا أن ننفق أموالنا في إصلاح
مرافقنا الداخلية قبل أن نُعنى بالزُخرف الخارجى ؟
قد يكونُ في ذلك جانبٌ من الحق ، ولكن يجب ألاَّ
يعزبَ عن بالنا أن لهذه المظاهر أثرها الكبيرَ في توجيهِ الأنظار
وتكوينِ الأفكارِ ، وأتينا أهلُ عصرٍ للدعاية فيه شأنٌ أىَّ شأنٍ
فهما نتشددُ بكرهيتنا للأبواقِ الصاخبة ، وبُغضنا للزينة
الظاهرة ، فإننا في دخيلةِ أنفسنا نتأثرُ بهذه الزينة وتلك الأبواقِ
ولا ننسى أننا حينَ نظهَرُ بهذا المظهرِ البراقِ بين الأممِ ، مهما
نكن في ركبِ الحضارة من المتخلفين ، فإن في ذلك الظهورِ إيحاءً
عميقاً يجعلُنا نحسُّ حقاً أننا أكفأ للصَفِّ الأول من الأممِ
المتحضرة ، ثم لا يلبث هذا الإيحاءُ أن ينقلبَ عقيدةً راسخةً
تُحيي فينا رواقِدَ الهممِ والعزائمِ والقُوى ، فتمضى في الطريقِ
عاملين مجاهدينَ في ثقة وإيمان . . .

على أننا في هذا العصرِ نلْمِسُ تهاوُّتَ الأممِ على الدعايةِ
والتظاهرِ ، متوسلةً إلى ذلك بكل وسيلةٍ وحيلةٍ ، كلُّ أمةٍ
تطاول وتعالى وتُدافعُ من حولها بمنسكبيها لتفسحَ لها المكانَ
الأرحبَ وتشقَّ الأفقَ البعيد .

ففي دَوَى هذا الضجيج ينبغي ألا نُسلم أنفسنا لفضيلة
« التواضع » ، حتى لا تخفينا بين طياتها الأمواج .

إن بعض الفضائل لترتدُّ في بعض ملابسات الحياة
وأوضاعها الطارئة نقائص يكونُ من ورائها الخُسران !

وانجهتُ إلى المصعد ، أرتقيه إلى الطبقة الحادية والثلاثين .
ووقفنا في المصعد نرقب الأرقام الكهربيّة التي تعينُ عدد
الطبقات . كانت الأرقام تُظهرُ وتختفي في سرعة حتى لتكادُ تخطئها
العين ... إني لأخشى إذا تركَ هذا المصعدُ وشأنه أن يضرب
بنا وجه السماء ليزحمَ الأفلاك !

اجتزتُ باب القنصلية ، فواجهتني ردهةٌ ليستُ بالفسيحة ،
فثرت في جوانبها تماثيلُ فرعونية لا يُعيبك أن تدركَ أنها نسخ
حديثه الصُّنع ، على الرغم مما تبدو فيه من سمات البلى والقدم .
ووقفتُ أرجعُ البصر فيما حولي برهة ...

مظهرٌ متواضعٌ بدأ يُشعرُنِي بشيء من خيبة الأمل .
لولا تلك التماثيلُ الزائفة ، وما داعبَ سمعي بين حينٍ وحين
من نثارِ كلماتٍ عريية تتجاوبُ بها الحجراتُ ، لأنكرتُ أني في
معقلٍ مصريٍّ !

ولكنى ما كدتُ أدخلُ مكتبَ القنصل ، وألقى منه تلك الحفاوة والبشر ، وآنسُ بعدوبة حديثة ورقة شمائله ، حتى شعرتُ بطمأنينة نفس وانسراح صدر ... لقد وجدتُ في ذلك النموذج الإنسانى ذى الطابع المصرى الأصيل ما أنسانى زيف الصنعة فى تلك التماثيل التى قُدت من الحجر !

إن حجرة القنصل يغمرها الضوء القوى من كل جانب ، فليست حوائطها إلا نوافذ كبيرة تشرف على ما حولها من شواهِق الأبنية ، يتوسطها عروس نواطح السحاب ، وملسكة الشواهِق فى العالم : « امبير ستيت بلدينج » .

وتجلت القهوة المصرية فى أقداحها التقليدية ... يحملها إلينا أمريكى سمح الوجه ، بالغ الأدب ، وهو يتهادى مبسوط القامة فى صدره الصوفى ... ياله من مفارقة عجيبة ! ... تزوج بين عنصرين مختلفين ، تحاول القنصلية أن تجعلهما فى مظهر واحد !

ليت ساقى القهوة كان أخانا التابع المصرى الأمين فى زيهِ الأصيل ، بقبايته الناصع المهدل الأكام ، ونطاقه الأحمر القانى ، وخُفَّهِ القِرْمِزى المتألق إذن لثم الائتلاف بين القهوة

وساقها !

إن القنصلية المصرية صورة حيّة من الوطن ، فيجب أن تكون صادقة التعبير عن ملاحظته ومعاليه !
تركت القنصلية ، ورحت أجوب « الشارع الخامس »
إلى غير وجهه ، فقادتني قدمي إلى منطقة « ركفلر » ..
وراعني أول ما راعني في ناحية من نواحيها سوار عالية
تحمل ذواباتها طائفة من الأعلام لمختلف الأمم ... إنها تمثل
أعلام هيئة الأمم المتحدة .

لقد أحسنوا اختيار المكان : حديقة صغيرة تتحلى بناظر
الزهر في أبهى تنسيق ، وبحيرة رشيقة تنبسط صفحتها تحت
السوارى كأنها تدعو الأعلام إلى أن تتصفّح في مرآتها
ألوانها الزاهية !

وخفق قلبي خفقة يبعثها شعور خفي ، ووجدتني أخطو
خطوات سراعاً إلى ساحة الأعلام أتفقدُها واحدة بعد الأخرى .
لم يخب سؤلى ، إن العالم الأخضر ذا الهلال والنجوم
الثلاثة يرف مشرقاً بين هاتيه الأعلام !

وتدائنت من ساريته ، حتى كساني ظله ، فشعرت كأنى

ألودُ بحمى حصين ، وأحتمى فى جوار أمين . وشخصت إليه
 بصرى ، وما هى إلا أن أحسست بأن كل شىء هنالك يتزائلُ
 ويختفى ، وكان نواطح السحاب قد ذابت من حولى . ولم يبق
 إلا أنا وأنت أيها العلم الأعز . . . أنا وأنت فى تلك الأرض
 النائية . . . أرض أمريكية حقاً هى التى أطوها الساعة أم هى
 رقعة من أرض الوطن ؟ . . مادامت تلك الديباجة الخضراء
 تُظلمنى فى هذه البقعة فإنى أحس دفء « مصر » وإشراق شمسها
 وصفاء سمائها ونضرة أرضها ! إنى لأرى مبانيها المتواضعة حتى
 أكواخ القرى وعرائشها تحتل مكان تلك الشواهد ، وكأنها قد
 علت عليها وتسامت فوقها !

وددت أيها العلم أن تدنو من عليائك قليلا ، فتسولينى
 حاشيتك الخضراء لألثمها وأمرغ جبهتى بنضرتها الزاهية . . . إنى
 لأريد أن أتعلق بحاشيتك كما يتعلق الحجاج بأستار الكعبة
 يوم الطواف ، يلتمسون برء اليقين وطمانينة الإيمان !
 ألا فلنظل أيها السيد الصامت نعلو بهاتيك النبيلة
 وحسبنا منك أن ترفرف علينا محييا . . إنك لأفصح فى صمتك
 وترفعك من ألف خطبة وبيان !

وتركتُ ساحةَ الأعلام نشوانَ النفس ، قوىَّ الاعتزاز ،
وعُدتُ أذرعُ بخطايَ الشوارعِ المُطيفةَ بذلك المكان ..
وكنتُ أطلَّعُ إلى وجْهاتِ المتاجر والمخازن أتفرَّجُ ،
فاجتذبتُ ناظري فيها لافقةً يتكرَّرُ عرضُها في أبرز مكان ،
مكتوبةً بخطِّ أنيق ...

Mohamed

وقرأتُ : « تذكُّر يومِ الأم » ،
أىَّ يوم ؟ وأىَّ أم ؟

وتوالى وجْهاتُ المتاجر والمخازن ، وهذه اللافةُ المغربيةُ
تبدو أمامَ عيني ، كأنها تتكلَّمُ ولا ينقطعُ لها كلام ..
وكنتُ على مَقَرَبَةٍ من بائعِ صُحفٍ في ظِلِّهِ الشائعة ،
فاشتريت منه إحدى الصحف بلا اختيار ، وسألته عن ذلك اليوم
الذى يَحِبُّ علينا أن نتذكَّره ، فأجاب مبتسماً :
إنه اليومُ الذى تُسَعِّد فيه الأمُّ برعايةِ أولادها .. على كلِّ
ولدٍ أن يقدمَ لأمِّه هديةً في ذلك اليوم ... إنه عيدُ للأمومة
يقيمُه الأبناء !

— والاب ؟ ... ألا يومَ له ؟

— إن له ليوماً مشهوداً تَقَرُّ به عينه !

وتابعت مسيرى أتأمل تلك اللوافت المتكررة .

ما أجملها فكرة تُشعرك بتلك العاطفة الكريمة ، ولكن
ألا تلحُ بين سطورها شبحِ المادّة يُطلُّ ، وطابع الآلة يتجلّى ؟
ألا تكون ثمة حيلة تجارية لترويج السلع ونقلها من المناجر
إلى البيوت بين عشية وصباح ١٩

إن في تلك الفكرة لمحاولة تُشعرك بأن الأمريكى الغارق
وسط فيض من المادّة والآلة يحمل بين جنبيه قلباً خفاقاً
بالعواطف الإنسانية النبيلة .. ولكن الأمر لا يحتاج إلى
هذا الإعلان الجهرى والزخرف الصاخب ، فقد تكون قبلة
صغيرة ملأى بالحنان والحب أدلّ على تقدير الأمومة وصدق
العاطفة من هدية ثمينة غالية !

أكبر الظنّ أن هذه القبلة الحنون التى يتجمّع فيها صدقُ
العاطفة ، يشعُر الأمريكى بها تتزايل وتغنى فى ذلك الجو
الصّخّاب !

إن الأمريكى ليستنقذ عاطفة الأمومة بتلك التذكارات
المادية وذلك الإعلان الضخم .

تذكر يوم الأم ... فكأنّ الأمريكى يهيب بالأبناء قائلاً :

أيها الغافلون ، تذكروا أن لكم أمهات ، وأن لهن عليكم
حقوقاً وواجبات !

إن « يومَ الأم » ، في نظري لهُو صرخةٌ مُدَوِّيةٌ تعلنُ خلو
القلبِ الأمريكيِّ من حنانِ البُنوةِ ، وإفلاسِ عواطفِ الأبناء
في تقديرِ الأمهات !

ويحَ الأمُّ من يومِها العَصِيب !
إنهم ليتوجَّسونها فيه ، ويبتوُّونها عَرشاً واهيَ القوائمِ
مزعزِعِ الأركان !
وأوغلتُ في الطُّرُقِ أجوسُ خلاهما !

هنالك لوافتُ آخرُ في وجْهاتِ بعضِ المتاجر ، قرأتُ فيها :
« من أجلِ أوربا الجائعة ... من أجلِ أوربا العارية ... »

إنها صناديقُ مختلفِةُ الحجمِ ، فيها أنواعُ من السِّلَعِ
والأطعمة ، مما تشتدُّ إليه حاجةُ الناسِ في أكثرِ البقاعِ الأوربية
حيثُ الفاقةُ والبؤسُ يُنشِبانِ الأظفارَ ! ..
تستطيعُ أن تشتريَ أحدَ هذه الصناديقِ ، وأن تبعثَ به
إلى صديقٍ لك نكسبَه الزمنُ وأذلُّه القدرُ .

لبثتُ لحظةً أفكّرُ ، ورحت أبسطُ الصحيفةَ التي اشتريتها

منذُ برهة ، فوقعتُ عيني اتفاقاً على ذلك العُنوان :

« من أجل أوربا اليتيمة ! »

وطالعتُني تحتَ العُنوانِ صورةُ طفلٍ وسيمٍ يبسمُ لك في
ضموره ونحوه ، كأنك تسمعُ نداءه إياك في لهفة :

هل لك أن تتبنَّاني ؟

وعبرتُ عيني سطوراً يناجِي بها الطفلَ أهلَ المروءة من
بني الإنسانِ ، قائلاً :

« في « أوربا » أُلوفٌ من أمثالي فقدوا الأبَ والأمَّ والعائلَ ،
لا كنفَ يَحْمِي ، ولا كافِلاً يَرعَى ... هلاًَّ ضممتُني إليك ،
وحملتُني بين ذراعيك ، ورحمتُ طفولتي من أغوال اليُتمِ
والْبُؤْسِ والتشريدِ ؟ ! » .

« أوربا » منارُ الحضارة ، وموئلُ المدنية ، تغدو بعد سني
الحربِ الستِّ ، وقد عاثَ فيها سوسُ الهزال ، وبدتْ في رقادٍ
وأسمال ، تستصرخُ أهلُ الأرضِ ليجودوا عليها بكسوةٍ وطعامٍ !
« أوربا » العظيمةُ تمدُّ إليك كَفَّ الزراعة ، ويَدُ السُّؤال .
وكأنها تقول :

ارحموا عزيز قومِ ذلِّ !

« أوربا » العزيزة تعرضُ اليومَ فلذاتِ أكبادِها في أسواقِ
الإحسانِ ، تبيعها نظيرَ كِسرةٍ من خبزِ وقطعةٍ من نسيجٍ !
سبحانَكَ اللهمَّ . . . إِنَّ الدُّوْلَ كَأَفْرَادِ النَّاسِ سِوَاءِ
بِسْوَءٍ ، تتداولُها الأيامُ بالنَّعْمَاءِ والبِأْسَاءِ !

هاهي ذى « أوربا » تلكَ الأميرة العاتيةُ التي طالما جَرَّتْ
ذيلَ الخَيْلِ ، وفي يديها سوطُ تَلْهَبُ به ظهورَ الضعفاءِ
والمنكودين ؛ تبدو اليومَ تُجَرَّرُ أذيالَ المهانةِ والإخفاقِ ،
ولا تملكُ في محنتها القاسيةِ أنْ تحجُبَ نفسَها عن أعينِ الشامِتينِ
من ذاقوا من يديها سوطَ العذابِ . . .

أتراها تستذكِرُ هذا الدرسَ ، ولا تغفلُ عن عقابهِ
ومغزاه ، حينَ تندملُ جراحُها ويبدأ ، وتستقلُّ من عثراتها
شيئاً بعد شيءٍ ؟ . . .

الساعة عدتُ من دار الطبيب . . . إنها الزيارة الأولى لذلك
 الشخص العزيز علينا بعد أن استقرَّ في تلك الدار يطلبُ الشفاء ،
 وإنه ليوم حاسم في موقعة المرض الذي يشكوه .
 كنت واجف القلب ، أحاولُ جَهْدَ الإمكان أن أنفِىَ
 عن ذهني الأفكارَ السودَ ، أو أن أذكى في النفسِ لوامعَ
 الآمالِ ، ولكنى كلما جَهدتُ في إذكائها ألفتُها تخبو ولا يَرِفُ
 لها ضوء . . .

أعترفُ بأنى رجلٌ تغلبُ علىَّ نزعةُ التشاؤمِ ، أخلقُ
 المشكِلاتِ ، وأقيمُ حولي العوائقَ . . . على أنى في هذه اللحظةِ
 أرى تلكَ النزعةَ تقوى وتستفحلُ . . . إني لأجدُ نفسى حقاً
 في مهبِّ العاطفةِ ، أحسُّ الرياحَ الهُوجَ توَشِكُ أن تعبثَ بى :
 هو أجسُّ قائمةٌ تتلاحق وتلاصق ، إنها لتكاثفُ طبقاتٍ بعضها
 فوقَ بعض ، كما يتعقدُ الضبابُ الحالكُ وتلبَّدُ الغيومُ الثقالة .

لقد تركوني وحدي في تلك الحجرة الصغيرة من دار
الطبيب أواجهُ اللوحَ الفَنِّيَّ المعلقَ على الحائطِ ، ذلك اللوحَ
الذى يصوِّرُ « برومسيوس » الأسير طريح الصخرة العاتية
تشوذه الأصفادُ ، والنَّسرُ منه قريبٌ يتحفَّزُ لانتهاش كبده...
إن موقفَكَ يا « برومسيوس » في هذا اللوح ليس إلا رمزاً
لما يحيطُ بالإنسانية من ألوانِ العذاب ، وما ذلك النَّسرُ إلا يدُ
القدرِ تبطشُ بنا وتذيقنا أصناف النِّكال... ماذا فيكَ أقتبس
منه نورَ الأمل ، وأستروحُ منه نسيمَ الطمأنينة ؟ ..

كل ما في هذه الحياة « برومسيوس ». كلُّنا راسفون في الأصفادِ ،
وإن حَسِبْنَا أنفسنا أحراراً ننطلقُ حيث نشاء ! .

لقد لبثتَ يا « برومسيوس » أحقاباً متواصلةً ، وأنتَ مشدودٌ
إلى الصخرة ينهشُ النَّسرُ من كبِدِكَ ، ولكن جاء يومٌ يحملُ
إليك مفتاحَ الفرجِ ، إذ هبط عليك « هرقلس » فأودى بالنَّسرِ ،
ويسَّرَ لك سبيلَ الفكَّاك... .

فيا رفيقي في الأسى ، ويا شريكى في الإسار ، هل يتاحُ لي مثلك
« هرقلس » آخرُ يَفكُّ عني أغلالَ الوسوسِ ويبرِّئ لي ظلماءِ

الشجون ؟

أذن لي في أن أزور ذلك الشخص العزيز في مخدعه، وهو
يحتاز الساعة الفاصلة في موقعة المرض. فدخلت حذر الخطأ،
وكانت الحجرة شحيحة الضوء، يشيع فيها الدفء، فراعني أكثر
ما راعني ذلك السكون المطبق...

تلك هي المرة الأولى — في حياتي — التي أشعر فيها بمسقة
وبغضاء للسكينة والهدوء... تلك هي المرة الأولى التي أشعر فيها
بالخوف والفرع من تلك السكينة والهدوء... إنني لأتمثلهما
يُخفيان لي في طبيّاتهما إعصاراً جارفاً يُوشك أن يثور!
وصاحته عيني رأساً غارقاً في غيبوبة السبات. ملقياً على
الوسادة تكسوه الضمادات... يا لها صورة مفزعة!.. هذا
« برومبيوس » آخر في مظهر جديد!

ووقفت أجهد، محاولاً إنفاذ بصري وراء تلك الضمادات
لأتعرف ما تطمئن به النفس ويستريح إليه الخاطر... ولبثت
كذلك وقتاً، ثم ألفتني أراجع أدراجي، مضطرب الخطأ،
وفررت إلى الطريق أستجدي الهواء!

كان الليل مقبلاً بنسيمه المنعش، وأنواره المتوهجة؛ بيد
أنني وجدتني أولى وجهي شطراً الفندق على الفور.

وَلِئَذْتُ بِحُجْرَتِي ، وَأَسْدَلْتُ الْأَسْتَارَ عَلَى .

أَيُّ بُنَى :

تَرَكْتُ النُّورَ فِي الْخَارِجِ ، يَتَأَلَّقُ وَيَتَلَأَلُ ، وَالْحَرَكَةُ تَدَابُ
وَتَصْخَبُ . . .

تَرَكْتُ اللَّيْلَ الْيَقْظَانَ السَّاهِرَ عَلَى مَبَاهِجِ الْحَيَاةِ ، وَحَبَسْتُ
نَفْسِي فِي ذَلِكَ الْمَعْزِلِ أَجْلِسُ إِلَى مَكْتَبِي لِأَخْطَّ إِلَيْكَ هَذِهِ
الْفَقْرَاتِ .

إِنِّي لَا أَتَصَرَّخُكَ وَأَضْرَعُ إِلَيْكَ أَنْ تُدْرِكَنِي فِي تِلْكَ السَّاعَةِ
النَّكَرَاءِ . . . وَهَذَا أَنْتَ ذَا تَلَبَّيَّ النِّدَاءَ !

إِنَّكَ لَتَجْلِسُ عَلَى مَقَرَبَةٍ مِنِّي ، أَصْغِي إِلَيْكَ وَتَصْغِي إِلَيَّ !
مَا حَاجَتِي إِلَى النُّورِ تَبْعَثُهُ شُعَلُ الْمَصَابِيحِ ؟

مِنْكَ أَنْتَ أَقْتَبِسُ نُورِي ، وَأَسْتَبِينُ هُدَايَ !

فِي قَلْبِي فَرَاغٌ وَإِجْدَابٌ ، فَهَلْ لَكَ أَنْ تَمْلَأَ ذَلِكَ الْفَرَاغَ ،
وَأَنْ تَشِيْعَ فِيهِ الْخِصْبَ وَالنَّمَاءَ ؟

تحدّثْ إلى ، وأِطْلُ في الحديثِ ، فإنّني كلما عبّبت من ينبوعه
العذب ، ازددتُ ظمأً إليه ، وكلفاً به ...

إني لأرهف السمعَ ما وسعني الإرهافُ ...

تلك هي الساعاتُ تنقضي ، وأنا جالسٌ جالسَةَ الإناصات .

هأنذا أحسّ طلائعَ الفجر تسرب من خلالِ الأستار .

إني لأشاهدك ترق وتشفّ . ويتزايَلُ عن طيفك الحبيب

في وداعةِ الله عودتُك يا بني !

تالله إنك « هرقلس » جديدٌ هبّط من عليائه ساعةً لينقذ

« برومئوس » آخرَ من النّسرِ الذي أنحس على كبده نهشاً

وافتراساً ...

إني لأشعرُ بكبدى تندملُ جراحُها ، ويتجدّد نسيجُها !

وشعرتُ بجفنى يتراخيان ، وينتظمُنِي نِعاسٌ رفيقٌ ...

أول مايو

ثلاثة أسابيع مضت على منذ ذلك اليوم العصيب ، في دار الطبيب ... ثلاثة أسابيع وأنا لا أعرف من «نيويورك» إلا الطريق بين تلك الدار والفندق ، أقطعه ذهاباً وجيئة في صباح ومساءً!...

إذا بلغتُ باب الدار واجهتني طلعةُ البواب ، ذلك الشيخ الأمرد الذي يلوح لي بابتسامته التقليدية لا يعزُّ عليه أن يطبعها على فمه كلَّ حين . كلما لمحَ السيارة مقبلةً بي ، هرع يستقبلني ، ويصرُّ على أن يُعينني في النزول ، ويؤدِّي لي مظاهر الترحيب . وإذا احتوتني أبهاء الدار وحجراتها ، طالعتُ وجوه الفتيات في لبوسهن الأبيض ، ومناديلهن المزهرة على صدورهن . . . تلك القوالب المصبوبة على نمطٍ واحدٍ ، كأنها حديثهٌ عهدٍ بالخروج من المصنع الذي صُبَّت فيه . هؤلاء اللواتي لا تكادُ تبدو منهنَّ واحدة حتى تختفي ، كأنهنَّ أشباح هاربة تترامى في خطف البرق .

انصرفت هذه الأسابيع الثلاثة بخيرها وشرها ، وبدأنا نُلقي بأنفسنا في مَعْمَعَانِ الحياةِ الصاخبةِ ، وقد عادت إلينا الطمأنينةُ والبشرُ .

وأردنا أن نحتفلَ بالخلاصِ من تلك الفترة العسراءِ ، فندعو أنفسنا إلى مأدبةٍ نقيمُها لأنفسنا في مطعمٍ أنيقٍ ... واستنجدتُ بصديقِ الأمريكى الأول ، صاحبِ حانوتِ الطَّرَفِ في بهوِ الفندقِ ، وجعلتُ أستفتيه في شأنِ تلك المأدبةِ الكريمةِ المنشودةِ ، فكانَ عند حُسنِ الظنِ به ... ما أسرعَ أن أظنَّبَ في حديثِ الطعامِ يسرد لى ألوانه وفنونه ، وهو يبتلع لُعابه جُزأفاً ... قال :

ثمةَ مطاعمُ في « نيويورك » مختلفة الأنواع يُخطئها العَدُّ ، يقال فيما يقال إنها تبلغ خمسةَ عشرَ ألفَ مطعمٍ أو تزيد ... لا تعجَّب ياسيدى ، إنَّ هنا سبعةَ ملايين من المِعَدِ الخاويةِ العاويةِ تنشدُ الزَّادَ ... تستطيعُ في « نيويورك » أن تتذوَّقَ أنحر ألوانِ الأطعمةِ المعروفةِ في أنحاء العالمِ شرقيةً وغربيةً !

وانطلقَ الرجلُ يصِفُ لى الألوانِ الممتازةِ ، مما اشتهرت

به كلُّ أمةٍ ، قائلاً :

تستطيع أن تأكل هنا «الإسباجتى» الإيطالىّ ،
«والشاتو بريان» الفرنسىّ ، والرز الصينىّ ، و «البودنج»
الإنجليزىّ ، و «البُورج» الروسىّ ، و «الشوكرت» الألمانىّ .
فقلتُ له مقاطعاً :

وما هو اللون الأمريكىُّ الممتازُ ؟

فاعتَصَرَ الرجلُ جبينَه طويلاً ... وبعد لآى قال :
إننا نُجيدُ عملَ «الساندوتش» ... إن الشطائرَ طعامنا
المفضلُ !

صَدَقَ صاحِبى ؛ يُؤثِرُ الأمريكيون اتخاذَ هذه الشطائرَ ،
لأنها لذيذةٌ ، ولا لأنها فاخرةٌ ، ولكن لشيءٍ آخرَ ، شيءٌ
هو عند الأمريكيين كل شيءٍ ... سهولة الإعدادِ ، وسرعة
التناولِ . أنت لا يتسنى لك أن تأكلَ أىَّ لونٍ من الأطعمةِ
على الأسلوبِ الشائعِ ، إلا إذا أعددتَ لذلك العُبدَةَ من مواعيدِ
ومساخينَ ، واتخذتَ كذلك الموائِدَ المُدجَّجةَ بالصِّحافِ
والأشواك والسكاكين ... أما الشطائرُ فإنها لا تفتقرُ إلى نارٍ
موقدةٍ ، أو أسلحةٍ مُشرعةٍ .. فى دقائق تُصنعُ ، وفى لحظاتٍ
تُلتهمُ ، لا تَقْتَضِيكَ جلسةٌ خاصةٌ فى مكانٍ خاصٍ ، فإنك

لنطعم شطائرَ واقفاً أو قاعداً ، ماشياً أو غيرَ ماشٍ ، مُقبِلاً
على عملِكَ أو مُخلداً إلى راحتِكَ ...

إن الشطائرَ لتمثِّلُ طابعَ الحياةِ الأمريكيةِ أصدقَ تمثيلٍ ،
طابعَ الانتفاعِ والوصولِ إلى الغايةِ في أسرعِ وقتٍ ، دون
ركونٍ إلى دعةِ الاستمتاعِ ، وكسلِ التلذُّذِ بمذاقِ الطعومِ ...
انْشِطيرةٌ في الأكلِ ، والسيارةُ في التنقُّلِ ، وقلمُ المدادِ في
الكتابةِ ؛ نماذجُ أصيلةٌ للجدِّ في الاستفادةِ ، والعجلةِ في قضاءِ
الوَطَرِ .

هذا الطابعُ المستحدثُ في الحياةِ الأمريكيةِ يقتلُ التفتُّنَ
في الاستمتاعِ ، ويمنَعُ استدرارَ النشوةِ ...

إنه طابعٌ غايةٍ ، فأما الواسطةُ فابتغاؤها من أقربِ طريقٍ .
ولكنْ ما هي قيمةُ الحياةِ الحقَّةِ إذا تجردت من النشوةِ
والاستمتاعِ في دعةٍ وأناةٍ ؟ أليست النشوةُ والاستمتاعُ
كالرُّوحِ النابِضِ ، فإذا خَلَّتْ الحياةُ منه كانت بلا روحٍ ؟ !
ونصحَ لي صديقُ صاحبِ الحانوتِ أن نُقيمَ مأدُبَنَا في
مطعمِ ألمانيٍّ ، أشادَ بجودتهِ .

فَضَيْنَا إِلَيْهِ ... دخلنا المطعمَ ، وأوْغَلْنَا فِيهِ ، فكأَنَّنا نجوسُ

خلال حانة من حانات عصر « شارلمان » ..

عوارض من الخشب غلاظ تحمل السقف ، وقبوات
تحتضن الحنايا والزوايا هنا وهناك ، وقناديل ملوثة من بقايا
العصور الغابر ، ونقوش ساذجة على الجدران . بين تضاعيفها
تهاويل الأساطير .

وأقبل علينا رئيس السُّدُل ، يتهدى في جرمه الضخم ، كأنه
« هندنبرج » يتقدم الصفوف . أليس هو القائد الأعلى غير
منازع في ذلك الحان ، أو على الأصح في ذلك الميدان ؟ حسبه
أن يشير إشارة الإمرة فيهرع إليه الغلمان بما يطلب صاغرين !
وتحدث إلينا في أدب ، ثم قادنا إلى إحدى المناضد ... كل
شيء تتجلى فيه رُوح الجرمانية ، ولكنها جرمانية متأركة .
وطالعتي لوح قرأت فيه بالخط العريض : « أنت في رقعة
من أوروبا العجوز ، فكل واشرب هنيئاً مريئاً » .

مازالوا يتغنون بأوروبا وسط ذلك المهرجان الأمريكي

البهيج !

إن « أوروبا » لتبدو لعتاقها في « أمريكا » على الرغم مما انتابها
من كوارث ، وحل بها من ويلات ، غالية المهر ، عزيزة المنال .

لأنها عجوزٌ تحملُ في صفحتها تجاعيدَ السنين ، ولكنها مابرحت
تجتذبُ أنظارَ الناشئينَ في العالمِ الجديدِ ...
لأنهم ليتنسّمون منها عطرَ الماضي السحيقِ ، ويتملّونَ فيها
جلالَ الأُمس البعيد .

إنَّ مَنْ لا ماضٍ له يطربُ للأنعامِ يُوقِعُها الزمنَ على
قِشارةِ التاريخِ ، فلا غروَ أن نرى الأمريكيَ الناشئَ يهفو
قلبه إلى القديمِ ، إذ لا قديمَ له يرمّوه بأجاده وأحسابه ،
ويرجعُ به القهقري في ركبِ القرونِ وموَكِبِ الأحقابِ ...
إنَّ الأمريكيَ الناشئَ يعرفُ أن عمرَ الإنسانِ في دنياه
الجديدة لا يزيدُ على ثلاثمائة سنة ، وإنَّ هذا الأمريكيَّ لا يفوته
أنَّ تلكَ الحِقبةَ ليست في عمرِ التاريخِ وماضٍ الأُممِ إلا خطفة
برقٍ ولحظةٍ بصرٍ . فليس هو بين معاصريه من بنى الأُممِ إلا طفلاً
بين الكهول ، وقزماً بين العمالِقِ !

زايِلنا المطعم ، ونحن تمايلُ من الكِطَّةِ ، إذ كانت الصحافُ
جرمانيةً بالمعنى الحقّ : وفرة دسمٍ ، إلى طيبِ مذاقٍ يغري
بالاستكثار ، دون رَعْيٍ لشيء !

ومن يكن ضيفَ «شارلمان» لا يخرج إلا بطيئاً مجهداً الأنفاس !

«الشارع» في «نيويورك» حسناء تجذبك على الرغم منك ،
وتروّعك من فتنتها كل آن بجديد ، وتزيدك سحراً كلما زدتها
نظراً كما قال الشاعر الأول ...

إنك تخرج إلى «الشارع» لا لكي تمارس شأناً ،
أو لتقضى مطلباً . بل إنك لتمضي إليه لا شغل لك إلا أن تضرب
فيه طولا وعرضاً ، وتذرّع رحابه جيئةً وذُهباً ، بل إنك
لتنجنى على نفسك ، متلبساً أو هنّ الأسباب للخروج ،
طلباً للاستمتاع «بالشارع» ومباهجه ... !

ولو خرجت إليه حقاً في أمرٍ ذي بالٍ لوجدت نفسك
لا تكادُ تستقبلُ مواكبه ، حتى يطوئك في معممائه ، ويدفع بك
في تياره ، فتنسى أو تناسى ما خرجت من أجله ، ولكنك
لا تندم على ما فعلت ، ولا يؤسفك أنك نسيت أو تناسيت !
مهما أوغلت في الطريق ، وتطلعت إلى مفاته ، فإنك
لا تحظى منه إلا باليسير ، عوكنز يتجدد لعينيك ، وإنك لتتركه

شيئاً النفس إلى أن تراه ، فلا تلبث أن تعودَ إليه على الرغم مما تكابدُ من رَهَقِ الزحمة والتدافعِ بالمناكب .

« الشارع » في « نيويورك » قلبُها الخفّاقُ ، وروحها النابضُ !

« الشارع » في « نيويورك » نموذَجٌ كاملٌ يمثلُ لك حقائقَ

مجتمعيها وعناصرَ حياتها ، ترى فيه أخلاقَ الأمةِ وعقليتها ومن حوتهم من أصنافِ الناس .

قصدتُ « الشارع » لا أمضى لشيء ، بل لأدعَ « الشارع »

يمضى بي إلى حيث يريد !

استرعى نظري في هذا اليوم أمرٌ جديرٌ بالتسجيل ، ذلك

هو الصَّبْغَةُ الأمريكية التي تصطبغُ بها الأمة ، وما لها من

خصائصَ في الخُلُقِ والذوقِ والجمال .

ربما يُقال : كيف يجوز للمرء أن يتحدثَ عن الجنسِ

الأمريكيِّ ، مُستوحياً حديثه من نظرةٍ يُلقِيها على مدينة واحدة ؟

يُبدَ أن هذه المدينةَ ذات الملايين السبعة إنما هي صورةٌ

مصغَّرةٌ صادقةُ التعبيرِ تتحدَّثُ بلسانِ الملايين المائةِ والأربعينَ

التي تعمُرُ أرجاءَ هذه المملكةِ الرحبية . . . يكاد كل ركن في

« نيويورك » تجتمعُ فيه خصائصُ كل ولاية من هذه الولايات

المثاني والأربعين التي يتقوّم بها صرّحُ الجمهورية الأمريكية العظيم !
تحتضن الجمهورية الأمريكية أخلاطاً من شتى الأجناس ،
وقد تكون الغلبة للجنس السكسوني ، ولكن هذه الأخلاط
تعمل على أن تصهر في الحياة الأمريكية ، ولعل « نيويورك »
هي البؤقّة الأصلية الرئيسة للانصهار ..

إنك وأنت تجوب « الشارع » في « نيويورك » تُحس
أنك في هذه البؤقّة ، في تلك القدر الكبيرة التي تجمعت فيها
هذه الأخلاط ، وصُبّت عليها الأحماض المذيبة ، ووقدت
تحتها النار الصاهرة .

فأنت ثمة تشهد الألمانيّ الغارق في أوتقراطيته ، والفرنسيّ
الهائم في رومانسيّته ، والإنجليزي المتلفع بتقليديّته ، والإيطاليّ
الملتهب بخفّسته ونزقه ؛ قد انصهروا جميعاً ، وخرجوا قوالب
أمريكية آليّة تستظِلُّ براية « الدولار » العظيم ! ..

هي قدرٌ تمور ، وهي عناصرٌ تتحلّل في القدر ، تلك العناصر
هي أقدار أمة ، بل جامعة أمم ، تحاول بحق أن تخلّق لها ثقافة
جديدة ، وترسم لها مبادئ جديدة ، وتنشئ لها مخترعات جديدة .
تحاول أن تقدم إلى العالم كلّ يوم في كل منحى من مناحي

الحياة شيئاً عليه طابعُ الجدة ، شيئاً فيه رُوح التوثبِ والمضى إلى الأمام .

ولكن : أكلُّ جديد نافع ؟ وهل السيرُ إلى الأمام يبلغ بنا دائماً مناط السعادة المنشودة ؟ ...

إن لم تبلُغْ « أمريكا » ، غاية هذه السعادة ، فحسبها أنها شرعت للعالم منهجَ السير ، وما هذا المنهجُ إلا أن يعملَ الإنسانُ دائماً بروح التوثبِ جاهدأً غيرَ متكاسلٍ ولا مترددٍ ، أن يشقَّ الإنسانُ أفقاً جديداً ، ويرتادَ دُنَيَّاتٍ مجهولة غيرَ هيَّاب ولا متزمتٍ ...

إنَّ تلك الروحَ هي أسمى ما في الحياة الأمريكية الحديثة ، وهي أسمى ما ينشُدُه الإنسانُ لدنيانا القديمة المتكشَّشة وراء الحدودِ والسدود ، المكروفة بأغلال المخاوف والتقاليد !
أنا هنا شرقيٌّ أنظرُ إلى تلك الروح التي تصطبغُ بها الحياةُ الأمريكية صبغةً واضحةً ، فأشعرُ بمسِّ حاجتنا نحنُ الشرقيين إلى قبْسة من ذلك النور ، تضيء لنا الطريقَ إلى الأمام .
أيها الشرق العزيز :

إنك لتلحِ ركب الحضارة سباقَ الخطأ ، فتحاول أن

تلاحقه حتى لا ينبت بك الطريق ، فتهم شريداً في أودية
التيه ...

إني لأراك تمضي وراء ذلك الركب ، ولكنّ بقدمي
سلحفاة ، في حين أن الركب يندفع على جناحي طائره !
أيها الشرق العزيز :

بعض هذا التأؤب ، وبعض هذا التملّط !
أعط عن كتفيك خيوط العناكب ، وأخرج من الغار
كما فعل الرسول حين خرج منها جبراً يدعو إلى دين جديد ...
فليكن خروجك اليوم لنبشّر في العمل بدين جديد ،
دين قوامه التطور والتطلع والثوب !

لقد راعني أول مارا عني من خصائص الحياة في « نيويورك »
ذلك الجمال الأمريكي ، وأخص به الآن : جمال المرأة .
يقيني أن جمال المرأة لا يُحسن الحديث عنه إلا الرجل ،
فإن الرجل في هذا الشأن أصدق حديثاً وأنور بصيرة . . .
هو إذا تحدث عن رجل آخر فإنما يتحدث عن نفسه ، ولذلك
يتحوط ويتحفّظ ، ويتخذ وسائل المغالطة والمجاملة والدّهان .
من يرضى أن يفتح بابه على مصراعيه للبلا يكشفون خباياه ؟ !

على أن حديثه عن الرجل حديث مبتذل مملول ، فهو موضوعه الذى يعيش فيه طول حياته ، لا يحدث فيه شوقاً إلى الوصف والتسجيل .

أما شأن الرجل مع المرأة فله اعتبار غير هذا الاعتبار... إن المرأة حيال الرجل عالم شائق مجهول طالما تمنى ارتياده وكشف طلاسمه ، فهو يسعى فى دأبٍ وشغفٍ إليه ، تحفزه أقوى الغرائز والطباع ، وإنه ليتغلغل إلى أعماق سريرة المرأة ، ويتفطن إلى كوامن نفسياتها التى قد تكون هى لا تعرف منها شيئاً ..

لقد خلّق الرجل ليرتاد قلب المرأة ، فهو يتابع الجهاد على هدى من بصيرته ، لا بدافع من عقله ومنطقه وإن من البصائر لما يبلغ بهدايته فوق ما تبلغ العقول !

ماذا أنا قائل فى جمال المرأة الأمريكية ؟

إخائى أطلت التقديمة ، وأشدت بلباقة الرجل فى الحديث عن المرأة ، وإذا بى أقف الآن حيران أخشى ألا يصيب قولى جلائل الأهداف .

ترى أين لى تلك البصيرة التى أعليت من شأنها لتعنى

على طريق ، فأَمِنْ العِشَارَ ؟

لعل لا أكون على غلوٍّ في القول ، إذا سجلتُ أن الجمال النسوى
في العالم تتنازعه أَرْضَان : أَرْض الكِنَانَة ، وأَرْض « العَمِّ سَام » .
لا أَقْصِدُ بالجمال المرموق ذلك التَنَاسُبَ الفِينُوسِيَّ من عَيْنِ
نَجْلَاءِ وَأَنْفٍ دَقِيقٍ وَخَدَّ أُسَيْلٍ وَقَوَامٍ كَغَصَنِ البَانِ ...
ولكني أَقْصِدُ بالجمال ذلك النوعَ المَتمِيزَ بِالْجَاذِبِيَّةِ الأَنْثَوِيَّةِ .
ذلك الذي يسمونه « السكس أَيْبِل » ...

Sex appeal

وهذا التعبيرُ أَمْرِيكِيٌّ مُحَضٌّ ، نَبَتَ هِنَالِكَ بِحَقٍّ ، ولم يُخْلَقْ
بِاطِلًا ، فَجَمَالُ الأَمْرِيكِيَّةِ عَلَى وَجْهِ عَامٍّ يَحْفَلُ بِتِلْكَ الجَاذِبِيَّةِ
الْأَنْثَوِيَّةِ . وَلَعَلَّ مُرَدَّ ذَلِكَ إِلَى انْصِهَارِ الأَجْنَاسِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْمُخْتَلِفَةِ
فِي تِلْكَ البُوتَقَةِ الكِبْرَى ، وَمِنْ ثَمَّ يُخْرِجُ مِنْهَا مِزَاجٌ
طَرِيفٌ ، هُوَ نُخْبَةٌ الحُسْنِ ، وَصَفْوَةُ الْفِتْنَةِ . . . هُوَ « كُوكَيْتِيل »
الجمالِ الْغَرْبِيِّ !

وإن هذا الانْصِهَارَ الذي يَتِمُّ فِي البُوتَقَةِ الأَمْرِيكِيَّةِ قَدْ
تَمَّ مِثْلُهُ فِي البُوتَقَةِ الْمِصْرِيَّةِ مِنْ قَبْلُ . . .

إن أَرْضَ الكِنَانَةِ بِمَوْقِعِهَا الجُغْرَافِي المَتمِيزِ وَخَصَبِهَا
الذي أَسْبَغَهُ عَلَيْهَا النِيلُ السَّخِيُّ ، ظَلَّتْ مَهْبِطَ الرِّحَالِ ، وَمَلَقَى

الاجيال ، ينزح إليها المستعمر والمستثمر ، والتاجر والمهاجر . .
 هي بؤقة سبقت البؤقة الأمريكية ، وتمخضت عن
 جمال نسوي أنضجته شمس الصحراء ، وغذته خصوبة الوادي ،
 ورواه رحيق النيل ، وشاعت في سماته أحلام الشرق وأخيلته ،
 فأصبح د كوكيل ، الجمال الشرقى ، وغدا سحراً لا يفوق
 مستواه أى مستوى آخر للجمال العالمى !

أى د أمريكا : لقد وجدت فى جنسنا اللطيف ندّاً لك ،
 ينافيك عرش الجمال ، ولكنه ندّ لا يباريك بالأسنة والرماح ،
 بل بإيماء الطرف ولحظ العين . فمضى تجدى فى جنس الرجال
 منا ندّاً لك يباريك فى ميادين العمل ورحاب الكفاح ؟ !
 فى د أمريكا ، اليوم مدرسة عالية ، بل معهد أكبر ،
 يدرس فيه فن الجمال ، وتتخرج فيه روائع الحسان ، يُرسم فى
 ذلك المعهد منهج الدراسة وما إلى ذلك من برّ ناجح وخُطة ، وتعدّ
 فيه الوسائل والموادّ والتجارب .

ليس ذلك المعهد إلا د هولود . . .
 فهذه المدينة على ضآلتها وانتزاحها عن قلب د أمريكا ،
 قوية التأثير ، واسعة السلطان . . . إنها مصنع عظيم للجمال

الأمريكي ، منه تخرج نماذج شتى في كل مظهر من مظاهر ذلك الجمال في الزينة والزي والشماثل ، وفيه تقرّر الأذواق الفنية التي تغدو ذوقاً رفيعاً يدين له الرأي العام . . . إن « الفلم » الأمريكي لينشر فينا رسالة هذا المعهد ، ويبشر بمبادئها أينما حلّ ، وإن أثر ذلك « الفلم » في نفس المرأة الأمريكية خارج البيت وداخله ، لأثر ملحوظ الجانب واضح السمات .

يفتقر الشرق إلى « هوليود » أخرى خاصة به ، تتولى درس الجمال الشرق وتعزّزه وإبراز خصائصه وتعميمها وفق بيئته وطابعه وذوقه . . . لا تستطيع المرأة المصرية أن تتطلع إلى « هوليود » أمريكا إلا كما يتطلع الطالب المصري إلى معهد « في » أوربي أو أمريكي ، فهو يلقن ما فيه من علوم ومعارف ، ولكن لا بد له من أن يهضمها ويتمثلها ثم يجلوها بعد ذلك وقد اتخذت لها وضعاً آخر ، هو الوضع الملائم لوطنه وقوميه من شتى النواحي والاعتبارات .

سوف تُلْمِش « هوليود » المصرية أجلاً أو عاجلاً ، وسوف يكون المعوّل في إنشائها على أختها الكبرى « هوليود »

الأمريكية ، كما هو شأننا في مظاهر حضار تناسلنا التي نضطلع بها
على غرار حضارة الغرب ... ولكن علينا أن نستعير من
هنا لك أحدث الأساليب ، محتفظين لأنفسنا دائماً بجوهر
الجمال الشرقي ، لاستبدال به جوهر أجدد يشوّهه أو يبدله
خلقاً آخر ، حتى يكون عملنا في ذلك أقرب إلى التطور
والتجديد ، منه إلى المحاكاة والنقليد .

حقاً إنه ليوم عاصف...

لم تكن سماؤه ملبدة بالغيوم ، ولم تتطاير فيه البروق ولا
دوت الرعد ، ولم تهطل فيه شأيبُ المطر ولا هجّجت الرياح .
إنه كان عاصفاً ببرناجه الذي أعدته لنفسى ، أو بالحرى
الذى أعدّوه لى ...

أنت الآن فى « نيويورك » عروسِ العالم الجديدِ حضارةً
وطرافةً ... أترك الأيامَ تتابعُ يوماً إثرَ يومٍ دون أن تفتحمَ
المدينةَ فى عرينها الأصيل ، وفيما يحفُّ بها من أرباضٍ ؟

إنك لتُلقي بنفسك فى « الشارع » تجول فيه وتصول ، ولكن
أليس لحياةِ « الشارع » من نهايةٍ ؟ إنها حياةٌ رخوةٌ على الرغم
عما بها من زحمةٍ وتدافعٍ ... هى لا تسكفك إلا هبوطاً إلى
الطريقِ وانسياً فيه ، تُزجيك أمواجه . . .

وحقاً إنَّ « للشارع » مباحجَ تفعم النفسَ من لذة وإمتاعٍ ،
ولكنها ذات طابعٍ واحد ، وإن تغيرتْ ظواهره وألوانه .

لقد حلت « نيويورك » منذ قليل ، وستفارقها عما قريب ، فإذا بك تعودُ خاويَ الوفاضِ إلّا من « شارع » وبعضِ شارعٍ !

حقّ أنك لم تقدّم هذه المدينة لنزهةٍ أو طوافٍ ، وإنما قدّمتَ في مهمةٍ علاجٍ واستشفاءٍ ، ولكنك على أية حال « سائحٌ » ، أَيْتَ أم رَضِيتَ ؛ وعلى « السائحِ » فروضٌ يجبُ أن تُرعى . .

لقد اندمجتَ في زُمرَةٍ أولئك السادة الذين يسيحون في الأرض ، ويرتادون السِّقَاعَ والأَصْقَاعَ . . . فعليك أن تمثل دورَ هؤلاء الأبطال ، لتشبعَ من نفسك غرورها المبهومِ !

للسائحِ في كل بلد مقامٌ ملحوظٌ ، فالتبجيل يحوطه ، وتيسير سبيله حقٌّ له على كل من يتصلُ به .

إن الأدلاء والتراجم لا يكادون يلمحونه حتى تراهم يهرعون إليه يخطفون ودّه ، ويكرمون وفادته . ويغدقون عليه ألقاب العِزّة والإعظام . . . همّهم الأول أن يُزيّنوا له النزهة ويُعيدّوا له الأهبة ، ويتخذوا لذلك زُخرفاً من القول يتزوّن به بضعة دريهمات . . . لا يعنّيهم بعد ذلك أأصاب

متعة أم ضلّ سعيه وخاب ١٤

إن « السائح » في الواقع هو الرمز الأكبر للتغفل...
الدليل يُعلم ذلك حقّ العلم ، والسائحُ نفسه يعلم ذلك حقّ
العلم يند أن هذا لا يمنع أن يتحدّ كلاهما وأن يتصافيا ، وأن
يُسلم كلٌّ منها عنانَه لصاحبه !

لا يفوتُ السائحُ أنه مضحوكٌ منه ، مكذوبٌ عليه ، في أغلب
الأمور ، وأنّ ما يَبْدِيهِ الأدلاء من علامات التبجيل وآيات
المُصافاة ليس إلا شباكا منصوبة تنصّيدُ مغامره ، ولكنه على
الرغم من ذلك يُلقي قيادَه لهؤلاء الأدلاء ، لغير شيء إلا أن
يبدو في أعين الجماهير سائحاً ، سيداً من السّراةِ الأعلامِ دفع به
الترفُّ إلى أن يقدم الديارَ ، إبهاجاً لنفسه ، وتنعيماً لناظره !
إنه يطمعُ في أن يبرزَ أمام سواد الناس تُحدِّقُ به العيون
وتُحدِّقُ فيه ، وتشير إليه الأصابعُ إشارة الاهتمام... فيُحس
أنه طرازٌ آخرُ من الناس أنفَسُ وأغلى ، وطينةٌ أخرى من
الخلق أطيّب وأزكى ...

إنه في بادئ الأمر سائح مستطلعٌ ، فإذا غمرته موجة
الحفوات ، وأحاطت به التشاريْفُ من كل جانب ، نسي أن

ذلك كله تمثيلٌ وتمويهٌ ، وخيّلَ إليه حقاً أنه أحدُ أولئك
السّراقةِ الأعلامِ الذين يشارُ إليهم بالبنان ...

بهذه الخواطرِ رضيتُ لنفسى أن أكونَ سائحاً بحق !
أليس لي العُذرُ بعدَ ذلك في أن أعدّ هذا اليومَ عاصِفاً ؟
سألتُ مُرافقى :

إلى أيةِ وجهةٍ أنتَ ماضٍ بي ؟

— إلى « ولدرف استريا »

— وما هذا « ولدرف استريا » ؟

— فندق « نيويورك » الأولُ ، وإذن هو فندقُ العالمِ

الأول !

ومثلتُ أمام ذلك الصّرحِ الشاهق العظيم في « بارك أفنيو »
أصعّدُ فيه النظر . إنه ليعلو بطبائقه ويتشامخُ ، وإنه لينبسطُ
يميناً ويسرةً ، فإذا به يحتلُّ بضخامته رُقعةً مربعةً من الأرض
تتفرّعُ على جوانبها شوارعُ أربعةٌ فساحٌ .

ولم يطلُ بي التطلعُ خشيةً أن يعاجلنى دوارٌ ، فاندفعنا مقتحمين
ببابه ، فطوانا الصّرحُ في جوفه طيَّ القطرة في صخب الأمواج ،
وأخذ يرمى بنا من جانبٍ إلى جانبٍ ، كأننا في قصر التّيهِ ندور

في مسالك متشابهة مُفَضِّ بِعَظْمِهَا إِلَى بَعْضٍ ، لَامْدَخْلَ لَهَا
وَلَا مَخْرَجَ .

وَلَبِثْنَا نَجُوبُ هَذِهِ الْمَتَاهَةَ ، نَعْرُجُ إِلَى سَمَائِهَا ، وَنَهْبِطُ إِلَى قَاعِهَا ،
وَنَضْرِبُ فِي أَرْجَائِهَا طَوْلًا وَعَرْضًا ، تَتَوَالَى عَلَيْنَا الصُّورُ وَالْمَشَاهِدُ
كَأَنَّنَا فِي مَنَامٍ مُضْطَرَبٍ تَتَرَاءَى لَنَا فِيهِ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ...

رَدَّاهَاتُ نَخْمَةٍ ، مَطَاعِمُ مَتَبَايِنَةٍ الدَّرَجَاتِ ، مَسَارِحُ
وَمِرَاقِصُ ، قَاعَاتُ لِلْحَاضِرَاتِ ، أَبْهَاءُ لِلْحَلَاقَةِ تَعُدُّ فِيهَا الْمَقَاعِدَ
عَشْرَاتُ ، مَكْتَبَاتُ ، حَوَانِيتُ ، مَضْخِمَاتُ لِلصَّوْتِ يَتَعَالَى
ضَجِيجُهَا حِينًا بَعْدَ حِينٍ .. . وَهَذِهِ إِلَّا كِدَاسُ مَنْ الْبَشَرِ
تَحْسِبُهَا حُزْنًا مَا ضَخْمَةً مِنْ أَوْرَاقٍ مَالِيَةٍ تَخْطُو هُنَا وَهُنَاكَ
وَخَلْفَ هَذِهِ الْمَظَاهِرِ الْمَالُوفَةِ أَمْثَالُهَا فِي دُنْيَا الْفَنَادِقِ ،
حَيَاةٌ أُخْرَى مُسْتَوْرَةٌ لَا تَقِلُّ عَنْهَا ضَخَامَةٌ وَسَعَةٌ ...

أَنْتِ إِذَا قَرَأْتَ نَبَأَ مَوْقِعَةٍ حَرِيَّةٍ طَالَعَتْكَ عَلَى الْفُورِ
صُورَةُ الْكِتَابِ تَلْتَحِمُ وَتَنْطَاحُنُ ، وَلَكِنْ هَذِهِ الْكِتَابُ
خَلْفَهَا أَمْدَادُ أُخْرَى قَدْ تَفُوقُهَا عِدْدًا هِيَ عُدَّةُ النَّصْرِ الْحَقَّةِ ،
كِتَابُ مِنَ الْعَمَلَةِ وَالصَّنَاعَةِ الْفَنِيِّينَ الْقَائِمِينَ عَلَى الْمِيرَةِ وَالذَّخِيرَةِ
وَالْتَمْرِيطِ وَضُرُوبِ الْخِدْمَةِ الْعَامَّةِ ...

فذلك ماتراه مائلاً في هذا الفندق ، فإن وراء الردهات
والقاعات والمطاعم والمراتب وغيرها تختفى حجرات وساحات
تحتوى المطاهى والمصانع والمغاسل ، فيها جحافل جرّار من
العمال الساهرين على سدّ حاجات تلك المدينة الحافلة التى تسمى
فى « نيويورك » : فندق « ولدرف استريا » . . .

وسمّعنا الدليل يقول خاطف اللهجة . كأنه يُلقى درساً :
الفندق يتسع صدره لعشرين ألف طارق .
الفندق يشرب كل يوم أكثر من سبعة آلاف لتر
من اللبن . . .

الفندق يهضم كل يوم ألفى كيلو من ضروب اللحوم .
الفندق يأكل كل يوم عشرين ألف رغيف .
الفندق مأهّب لأن يقدم عند الطلب من الأنبدة ما قيمته
مائتا ألف دولار .

الفندق يحوى ثلاثة آلاف من الخدم يتولّونه ، إلى
جانبهم مئوّن من ماسحى الزجاج « البهلوانيين » مخصّصون
لتنظيف ستة آلاف من النوافذ .
الفندق . . .

فقلت لصاحبي أقاطعه :

حسبك !

— ألا تريد أن تعتلي السطح لِتشهد منظرًا لا يساميه
منظر آخر عظمة وروعة ؟

— أريد أن أتمس عظمة أخرى غير ما أشهد !
وخرجت ناجياً بنفسى من أغوار تلك المتاهة ، أحاول
أن أتَنَسَّم نسيماً بمنحني الهدوء وراحة الأعصاب .
وسرّْتُ خُطواتي ، وقد لمحتُ في رأسي أطراف قريتي
المتواضعة في ريف « بصر » بأكواخها التي لا تناطح شجرة ، بله
سحابة ، ودارى المتواضعة التي لا تتطلب نوافذها العباناً واحداً
يتراقص عليها لتنظيفها !

وهمهمت أناجى نفسي :

حقاً إنَّ السعة والضخامة والسُمُوقَ عظمة أي عظمة ،
ولكن أليس في السداجة والضآلة عظمة لا تقل عنها قدراً ؟ !
والتفتُ إلى مُرافقِ أقول :

إلى أين المساق ؟

— إلى « امبير ستيت بلدنچ » كبرى نواطح السحاب

« نيويورك » ، فهي لأن أكبر أبنية العالم أجمع !

— أما ننتهى من نواطحكم هذه ؟ إني لأشعرُ بها تكاد

تَحطُّم رأسي تحطيا !

ومضينا إلى تلك الناطحة التي تُرَبِّي طباقها على المائة ، والتي يبلغُ علوُّها نحو ألف ومائتين وخمسين قدما .

حقًّا إنها الماردُ من مر دة « سليمان » مائلٌ بقوامه الفارع المشيق يتعالى فرعةً وعتوًّا . . .

في مستطاعك أن تخترقَ جوفه بمصعدٍ جنِّي يبلغ قعره في طرفة عين . .

هنالك في رأس ذلك الماردِ تنظرُ بعينه حولك ،

فتنكشف لك « نيويورك » على مدِّ البصر ، جزيرةٌ رشيقة ،

شوارع منظمة ، حدائق منسقة ، أبنية متراصة ، أنهارٌ جارية ،

جبال نائية . . . وبينما أنت تتملّئُ خلاصة هذا المنظر الجميل إذا به

يختفي بين غلائل من السحاب تحاصرُك من كل جانب ، فلا

ترى إلا غما ينبسط تحت ناظريك ، فيخيّل إليك أن المارد

قد طار بك بين أجواز الفضاء ، وأنه يخترقُ بك طباق السماء . . .

ولا يلبث المارد أن يُغمضَ عينيه ، ويجتذبك إلى جوفه ،

ثم يهبط بك إلى قراره في لحظات ، ثم يلفظك في الطريق ،
فإذا بك قد قطعت الرحلة بين السماء والأرض في غفوة خاطفة
من غفوات الأحلام ...

وملت على مرافقي ، وأنا أمرٌ يدي على جبهتي ، أستعيد
يقظتي ، فقلت له :

ماذا بقي من برّناجك ؟ ألم تنته بعد ؟

— إننا لم نكد نبداً !

— إلى أين ، برّبك ؟

— إلى تمثال الحرية ...

— وبعده ؟

— نزهة حول جزيرة « مانهاتان » ...

— وبعدها ؟

— جولة مساءية في أحياء « نيويورك » الأصلية ...

ورضعت يدي على كتفه في استسلام ، وأنا أقول :

قدّنا حيث تريد ، فلقد أسلمنا أمرنا إليك وإلى الشيطان !

إلى تمثال الحرية ...

وحشّرنا في سيارة حافلة ، جرّت بنا إلى منطقة « نيويورك »

الجنوبية : حتى كأنه من أحياء « أوربا » العتيقة ، شوارع
مُسَمَّاة ، لم يَجْرُ عليها نظام الترقيم الجديد . طرقٌ ليست مخططة
بالمسطرة والفرجار ، هي التي تقرب من أفهامنا ونظامنا المعهود ..
إن هذا الحيّ هو « نيويورك » القديمة ، بل إنه
« أمستردام » الجديدة مُحطَّ رحال الهولنديين ، حين هبطوا
هذه الدنيا مستعمرين ، وما زال هذا الحيّ يحملُ من « هولندا »
ظلالاً ونفحات . لقد أقاموا سوراً يحدُّ مدينتهم ويحميها من
العدوان ، فأصبح مكانُ السور طريقاً ضيقاً يحملُ اسمَ
السور .

في ذلك الحيّ طفقنا طوافاً عاجلاً بمتحفٍ « لوانشنتون » :
طُرَفٌ ومخلفات ومصوِّرات من عهد ذلك الرئيس الأوَّل
للجمهورية الأمريكية ، مابرح المتحف يحمل روحَ العصورِ
الوسطى ، ويتنفسُ أنفاسَ حربِ الاستقلال !
إسراع إلى السيارة الحافلة .
هبوط عند المرفأ .

قيلَ لنا إننا في الميناء ، ولكن أى ميناء هذا ؟
إنه ساحل مرصوف يتطاوَل ويمتدّ ، دون أن يُدرَكَ له انتهاء ،

فيه تتراصّ البواخرُ على نحو أمريكيّ كلّهُ زحمة واحتشاد .
هُنالك زَجُوا بنا في باخرة ، أو شبه باخرة على الأصح ،
فراحت تمخرُ بنا الماء إلى الجزيرة التي يقوم فيها تمثال الحرية .
أتمثال للحرية هو ؟

إنه يبدو للعين كلما اقتربنا منه ، كأنه إلهةٌ لذلك المعنى المحبوب
الذي تهوى إليه أفئدة البشر .

طالعنا تلك الإلهة بوجهها الوسيم ، ورأسها المتوّج ، وثوبها
الفضفاض ؛ ومشعلها البلوريّ تحمله يدها الطوّلى ...
لقد ارتفعت تلك اليدُ بذلك المشعل ، وما برحت مرتفعةً
مناراً للسمالك ، ورمزاً لتلك الفكرة المثالية المنشودة الخالدة
كرُمت تلك اليدُ ، ولا زالت قبلة السلام ، ومبعث النور ،
وجرّ الأمل الرحيب !

هي إلهة حقّاً ، ولكنها من خلق البشر .
عبقرية فرنسية صاغتها ، ونفخت فيها من روحها ..
وعبقرية أمريكية أخرى صنعت لها طوداً باذخاً تعتليه
التبعث من عليائه النور على الإنسانية الشقيّة بالظلام .
إن « فرنسا » و « أمريكا » لتجتمعان في ذلك النصب

العظيم : فى التمثال يتجلى الفن الفرنسى الرائع ، وفى القاعدة
تتجلى العظمة الأمريكية بضخامتها وجلالها .
نزولٌ فى جزيرة التمثال ...
صعودٌ فى جوفه ...

شرقة نطل منها على « نيويورك » فنرى شواهدا مُشرقة
بهيجة تتجمع متطلعةً إلى إلهة الحرية ، كأنها عذارى يتزاحن
مُسْتَمِدَّات من أمهن الرءوس روح الحياة ! ...
فَترَةٌ رَاحة واستجمام فى أحدِ المشاربِ .
قُفُولٌ إلى المرفأِ ...

وهناك ركبنا إحدى البواخر ، نستمتع فيها بِضِع ساعات
بنزهة بحرية حولَ جزيرة « مانهاتان » ...

وما « مانهاتان » هذه إلا قلبُ « نيويورك » الخفاق !
رشيقةٌ أنيقةٌ هى تلك الباخرة ، لم يعبها إلا ذلك التكسُّد
والازدحامُ ، ونظامُ « الطواير » الذى استتبَّ أمره فى
« نيويورك » فأصبحَ لا غنىَ عنه فى كلِّ شىء ولا مَعْدَى .
وتحرَّكتُ الباخرة يشقَّ صدرُها مجرى من الماء لِينَا
سهلاً فى جوٍّ طيِّع ، كأننا فى سيارةٍ حافلةٍ تقطعُ بناطريقاً مُعَبَّداً

من الطرق الفساح .

وأخذنا نشهد ما يمر بنا من المباني والحدائق ... وذلك الطريق العجيب تتعدد طبقاته وتباين أشكاله ، وهذا الصف الممتد من البواخر والسفائن كأنه كتائب في يوم عرض عظيم . وتخبرنا مكاناً ينأى عن الزحمة ، يتوافر لنا فيه الهدوء ... وما كدت أستمع فيه بمجلسي ، وأتنسم نفحات البحر ، حتى علا صوت لا أدرى من أين نجم ... إنه يجلجل وسط الباخرة وينفذ إلى أعماقها وخوافيها ، هو صوت إنسان يتحدث في أداة من مضخّمات الصوت ، أما ذلك المتحدث نفسه فلم أعثر له على ظل ...

وعلمت أن صاحبنا دليل يمكن في ركن مخصوص ، يلقى بشظاياه ، وهو آمن في مكانه مستقر ...

لقد وكدوا إليه أن يشرح لنا ما يجوز به من المعالم والمغاني . ليتّه يعلم أني أوثر الاستمتاع وحدي ، مستدلاً بعني ، مستوحياً من المعالم نفسها فيض الشرح والإيضاح ، تاركاً لخيّلي أن تسبح بي في آفاق التأمل ما شاءت أن تسبح ، غير مزعجة بمنكر من الأصوات !

وَيَحْكُ مَنْ ثَرَّ ثَارَ حَمْ وَرَى الصَّوْتِ، مُصِصٍ لِلْأَسْمَاعِ! ...
إِنَّكَ صَوْتُ مُجَرَّد... لَقَدْ طَالَمَا بَحِثْتُ عَنْ شَخْصِكَ، فَأَعْيَانِي
الْعُشُورُ عَلَيْكَ... لَعَلَّكَ اخْتَرَعْتَ أَمْرِيكَ جَدِيد... ضِفْدِعُ
مَنْ طَرَأَ حَدِيثٌ فِي الصَّيَّاحِ وَالنَّقِيقِ!

مَكَانَكَ أَيْتَهَا الضَّفْدِعُ، تَسْتَرِيحِي وَتُرِيحِي!
وَلَكِنَّ الضَّفْدِعَ لَا تَبْرَحُ تَنَقُّ، وَلَا يَبْرَحُ نَقِيقُهَا يَأْخُذُ عَلَى
الْأَذَانِ سَبِيلَ الْإِصْغَاءِ!

مَاذَا تَرِيدُ أَنْ تَقُولَ هَذِهِ النِّقَاقَةُ الْجُوجُ؟
لِئَنَّا تَسْلِمُ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَتَعْبَرُ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، مَاهِرَةٌ فِي
الْإِلْقَاءِ وَالتَّعْبِيرِ...

تَارَةٌ هِيَ شَاعِرَةٌ تَتَمَدَّحُ بِمِفَاتِنِ «نِيُيُورِك»، ثُمَّ لَا تَلْبِثُ
أَنْ تَنْقَلِبَ تَارَةً أُخْرَى مُؤَرِّخَةٌ عَالِمَةٌ تَقْصُّ عَلَيْكَ تَارِيخَ الْمَبَانِي
وَالْمَعَاهِدِ وَالْآثَارِ، وَتُسَرِّدُ لَكَ الْوَقَائِعَ وَالْأَحْدَاثَ، وَتُشْرَحُ لَكَ
مِنْ ظَوَاهِرِ الْعِمَارَةِ وَالتَّخْطِيطِ مَا يَدُلُّ عَلَى إِحَاطَةٍ... وَهِيَ فِي
هَذَا وَفِي ذَلِكَ تَحَاوِلُ أَنْ تَكُونَ طَلِيسَةَ الْحَدِيثِ فَكَهَّةَ الرُّوحِ،
تُلَقِّيْ عَلَيْكَ النُّوَادِرَ وَالنَّكَاتِ، مُسْتَوْرَةً حِينًا مَكْشُوفَةً حِينًا
آخَرَ. وَلَكِنَّهَا لَا تَنْتَظِرُ مِنْكَ قَهْقَهَةً اسْتِحْسَانٍ، وَلَا صَفِيرَ

استهجان.. إنها ماضية لطيبتيها ، كالفلم المسترسل ، أو كقرص
الحاكي ، لا يفتأ يدور حتى ينتهى الدور! ...
الأمم لله أولا وآخر أيتها الضفدع ...
سنشتف كأس لجأجتك حتى الشمالة ، طوعاً أو كره
كنا نحسبها نزهة تقرر لها الأعصاب ، فإذا بها حرب
وقودها الأعصاب!

وظالت الباخرة تسير ، والضفدع لا يَحْتَق لها صوت
من طول النقيق ...

عن الشمال « مانها تان » ، وعن اليمين جزائر وخليجان ،
وامتداد « لنيويورك » العظيمة : « وبروكلن » ، « كوينز » ،
« برونكس » ، جسور شواخ كأنها أطواذ معلقة تكسوها
الرهبنة والجلال ، أو كأنها هولات من الشياطين تمددت بأجسادها
فوق الماء لتصل بين أجزاء اليابسة !
وسمعت الضفدع تقول :

أمامكم جزيرة أصدقائنا المجانين !
والتفت أنظر ، فإذا بجزيرة مُزهِرة مشمسة ، تجوس
خلال خمائلها جداول رقراقة ، وفي وسطها مبنى جميل تبدو

حواله أشباحُ تروحُ وتجيُّ في رزانهٍ وهدوءٍ .
ليست جزيرةُ المجانين إلا جنةَ عدنَ ...

وددت لو وجدنا السبيلَ إليها ، لنخلص على الأقل من ضفدعِ
الباخرة ؛ ولسنا نبالي بعد ذلك أن نُحرَمَ ألقابَ العقلاء !
وجهرَ الصوتُ يقول :

هاهو ذا سجنُ « البرونكس » . لا تَنَسُوا أنَّ حِجراتِه
مجهزةٌ بآلاتِ تكيفِ الهواءِ !

يا للعجب ! ... نحن في بلدٍ يحظى بالسعادةِ فيه صنفانِ من
منكودي البشرِ : المجانينُ ، والمساجين !

وانبرتِ الضفدِعُ تُسرِدُ أنباءَ المعالمِ والمشاهدِ ، مؤيدة
حديثها بلغةِ الأرقامِ : لغةِ الملايين ، غيرِ ناسيةٍ في كل مرةٍ أن
تَصِفَ ما تصِفُه بأنه أعظمُ من أمثاله في العالمِ المسكون .

هذا معهدٌ بلغتْ تكاليفُه كذا مليون دولار ، وإنه أعظمُ
معهدٍ من نوعه في العالم !

هذا نُصِبَ بلغتْ تكاليفُه كذا مليون دولار ، وإنه أعظمُ
نُصِبٍ من نوعه في العالم ! ...

يزهو الأمريكيُّ دائماً بضخاماتِ ثلاثِ :

ضخامة المال .

ضخامة الشكل .

ضخامة الصّيت .

وإنه يؤسّس مدنيّته على تلك القواعد الثلاث !

وطالعنا في أطراف جزيرة « مانهاتان » غابة من أروع الغابات ، قائمة على تلال عجيبة .. غابة موحشة تمثّل البداوة والفطرة في قلب الحضارة والعمران !

لكأنهم اقتلعوها من مغربها الأصيل في المجاهل والأدغال وجاءوا بها ليتخذوها طرفة وقرّة عين ، كما تجتلب الوحوش من مغاورها وأجحارها ومسارحها ، لتسكن في الحواضر حدائق الحيوان ...

ودارت بنا الباخرة يسرة ، ومضيئنا ، ... فإذا نحن أمام جسر « واشنطن » العظيم ، يتلأأ بلونه الفضيّ في وهج الشمس ، ويمتدّ بجرمه الرائع وبسلاسله الضخام كأنه صرّح بمرد من زئبق رجاج .

ثم بدت « نيو جرسی » مخنّلة بمصانعها ، يحدّثها الشاطئ الجميل ؛ وتتناثر فيها المغاني أنيقة رشيقة ، وتنسبط فيها المروج

بهيجةً نصيرة... .

وما زالت الباخرة تخرُ العبابَ ، والضفدعُ توالى النقيق ،
والمناظر الأمريكية وكأنها ألواحٌ فنيّةٌ ، يحاولُ كلُّ لوحٍ منها
بفتنته أن يقيّدَ الأنظارَ

وبلغنا غايةَ المطافِ

فوقفتُ الباخرةُ ، وخيرست الضفدعُ .
وإذا بنا نُدفعُ خارجَ الباخرةِ دفعاً ، وميلقى بنا في
معرض الطريقِ .

والتفتُ إلى مرافقي ، يقول :

حان وقتُ الجولةِ المسائيةِ في أحياءِ « نيويورك » الأصلية .
وما كاد الظلامُ يُسبِلُ أستارَه ، حتى انبرت له الأنوارُ
الألّاقةُ تدافعه ، فيرتدّ مقهوراً على أعقابِه .

طرقنا أولَ ماطرقتنا ، قريةَ « جرينوتش » .

ليست بقرية ، وإنما هي حيٌّ معروفٌ له طابعه ورؤُوحه ،
ولكن ماسمعناه عنه أكبرُ من مظهرِه . . . إنه مثابةُ الفنانين ،
فيه نبت أكثرهم وترعرع ، نشأوا فقراء في أكنافه المتواضعة ،
فلما أخذت أسماؤهم تعلو ، وصيتهم يطيرُ ، ارتحلوا عنه إلى

منطقة نواطح السحاب ، كأنهم يوازيون ويلاثمون بينهما وبين ما كتبَ لآسمائهم من علوٍّ وبُعدٍ صيت .

إنَّ من بين هذا الدُّور الضئيلة ما هو معروفٌ حتى اليوم باسم أصحابه الأقدمين ، من الفنانين الذين هجروه ، وخالفوه لغيرهم من السكان المحدثين .

إن « جرينوتش » قريةٌ حقا إذا وُوزنت « بنيويورك » ، قريةٌ بمنازِلها المتخاضعة ونواديها المنزوية لا يقيم أهلها شأنًا للعرف ولا للتقاليد . . وما أشبه مشاربها ومراقصها ومغانبها بنظائرِها في مثل ذلك الحى من عواصم « أوربا » العجوز . لقد جُبننا أرجاء « جرينوتش » وقضينا فيها بعضَ الوقت ، ولكننا لم نَفُزْ بغيرِ ظاهرها المكشوف ، وليس بذى بال . . . أما الخفى المستورُ فهو لأهلها خاصة لا يزاحمهم فيه واغل دخیل . من ذلك الخفى المستور مسارحُ للفن قائمة ، ولكنه الفن الوضيعُ فيما يرى بعضُ الناس ، أو جوهر الفن الحق فيما يرى بعضُ آخرون !

فى تلك الدَّمنِ تنبُت زهراتٌ نواضرٌ ، تفتتح بين الفينة والفينة ، فإذا نزع الشوك عنها ، وأزيل الغبارُ منها ، كانت

أهلاً أن تزيّن صدور المجامع والمحافل وتنفجها بعطرها الفواح .
وانثنينا إلى « الجتو » :

حتى الأنوف البارزة ، والمشية المتهمة ، والأعين الحذرة
التي تبعث لمحاتها خلف النظارات ... حتى اليهود .

هذه حوانيت كأنها صوامع عتيقة ، أو معابد أثرية ، يتردد
حولها أو يجلس بأبوابها أشباح كأنهم نُسّاك متعبّدون !

بنو إسرائيل الأصلاء هم هم ، لا فارق بينهم إلا اختلاف
الاسماء ... سوائهم شوارع « الجتو » ، أم استهواهم
المبكي في فلسطين ، أم احتضنتهم في القاهرة أعماق
« حارة اليهود » !

وطرقنا البوري ، مباءة الإجرام ، ومشوى الصعلكة
والتشريد ، ووكر الفن المبذل الرخيص ..

على السّوار يستريح الصعلالك ، فإذا ما لمحك واحد منهم
وأنس فيك مخمناً ، تقدّم إليك بجسمه الرّخو ، وثيابه الرّثة ،
وخطواته المتسكعة ، وأنفه المتورم المخمور ، يمدّ إليك يد
السؤال وعليك حتماً أن تجيب ، وإلا انقلب السؤال
إلى وعيد وتهديد !

يا لله... هانحن أولاء في أمريكا، دنيا الرخاء والثراء
 بلا حننا ذلك الصنف من الناس، أولئك المستجدون الذين
 لا ينقطع لهم سبيل في بلاد الشرق... ولكن المستجدي الأمريكي
 والمستجدي الشرقي يمثل كل منهما طابع أمة وروح وطنه...
 فالسائل في القاهرة، مثلاً إذا زجرته استعان عليك بالله،
 وانصرف عنك في استسلام، وأما السائل في نيويورك،
 فإنه يتقاضاك ما بعده حقاً له بالظفر والناب...!

وهذه مشارب ومراقص تكتظ على سعتها بالحشود من
 الأوشاب، طلاب الدنيا من المتع، يتجمعون حول موائد
 الشراب، وقد اندست بينهم الخواني المتبدلات.

وبدت لنا على منصة في أحد تلك المراقص امرأة، بل
 كتلة خسيصة من لحم وشحم، بوجه لو أنه الطلاء البشع، وشعر
 منتفش موحش، وقد اكتست حلة برقتها زوائف الزينة
 والوشى، وهى تصوت أمام مضخم الصوت في نغمة منكرة،
 موهمة سماعها أنها تشدو وتنغى...!

ما أشبه الليلة بالبارحة... أليس هذا المكان هو نفسه
 ذلك المرقص الوضع الذي كان يزخر بالقصا في أحط أحياء
 (١١)

« القاهرة »، إبان الحرب العالمية الأولى منذ أكثر من ربع قرن؟

ألا فلنؤلِّ فراراً من البورى... ..

وحثنا الخطأ...

لى أين؟

إلى « مدينة الصين »، إنها منا على مقربة... ..

حيالك الله أيتها « الصين »، النائمة فى وداعةٍ وهدوء... .. إننا

مُلاقوك بعدَ قليلٍ، وإنْ باعدتْ بيننا الدارُ، وعزَّ المزارُ؟

وأقبلنا على ما يسمونه « مدينة الصين »..

حقاً إنه حى متميز قائمٌ بنفسه، لا تُطالِعُ فيه إلا أشباحاً

صينيةً فى أزياء غريبةٍ، تتناثرُ بينها الأحاديثُ فى لهجةٍ تشبه

همسَ القططة... ..

ثمّة حوانيتُ ترى على جبينها تلك النقوشَ والزخارفَ

الصينية التى هى فى أغلب الظنِّ أحرفٌ وكلماتٌ... ..

وثمّة دُورٌ متواضعةٌ متخاضعةٌ، وطرق ضيقة غيرُ مستقيمةٍ

ولكن أنحن حقّاً فى « مدينة الصين »؟

دخلنا مطعماً نستهديه الجواب... ..

إنه ليَحمل نفحةً آِصينية استرعت أنظارنا بظاهرتين: الأولى

تلك الألوان الغريبة التي قدّمت لنا، فكان مذاقها مبعثاً للحيرة والعجب ، وإن الرز ليقدم بينها بديلاً من الخبز، والشاي يقدمُ أثناءها عوضاً عن الماء... والظاهرة الأخرى ، ذلك النادل الصيني الذي ما كاد يبدأ خدمته لمائدتنا ، حتى اتجى ناحية عن كُثبِ منا يلثمهم عشاءه بعصوين تقومان مقام الشوكه والملعقة ، وهو يحركهما في مهارة تستدر الإعجاب !
وحمدنا لله ماقدّر ويسر ، وخرجنا وفي بطوننا خواء .

وانصرفنا نسلُك الشارع الضيق ، تطل علينا من نوافذ دوره تلك الوجوه الصفرة والأنوف الفطس والحواجب المشربة وسمعت مرافقي يقول :

هل لكم في زيارة المعبد ؟

— تالله إنني إليه لمَشُوق ...

مَدْخُل ليس فيه من روح التعبد إلا مظهر ضئيل .
واجتزنا نمرّاً ضيقاً ينتهي بنافذة ، كأنها شباك التذكريات في دور اللهو ...

أَمْعَبَدٌ هذا أم مسرحٌ تمثيلٍ ؟

واشترينا تذكريات الدخول ، وتابَعْنَا الحُطَا .

بَهُوَ غير فسيحٍ تتراص فيه المقاعدُ، تزينُ حائطه نقوش
صينيةٌ وخرقٌ ملوّنةٌ كأنها أعلام، وفي صدرِ المكانِ محرابان،
أو بالحرى هيكلان مشحونان بالذهرف والتماثيل من فن الصين،
يتميز أحدها بالعظمة والفخامة، وما أظنه إلا تمثال «بودا»،
المعبود... إنه حقاً لتحفةٌ من تحف النحت، تدل على صبرِ
الفنان الصيني ودقته وأناقته!

وكان دليلُنَا في المعبد فتاةً صينيةً على جانب من الرقة
والآدب، انطلقت تصفُ لنا مراسم الزواج، وكيف تتم
أمام هذا الهيكل.

وحانت مني التفاتة، فألفيت أريكة ساذجةً ترتفعُ عليها
امرأةٌ صينية هزيلة تخطت عصرَ الشباب. وسرعان ما أدركنا
أنها أمُ تلك الفتاة التي تقومُ في المعبد مقامَ الدليل.

لقد كانت هذه الأمُ تمثلُ في جلستها «بودا»، آخر، بيد
أنه «بودا»، من طينة البشر، منهمكٌ في تقشير برتقالة!
واقتربنا من الإله البشري نبادلُه إيماءة التحية في
صمتٍ ووقار.

مابالُ هذه البرتقالة تشوبُ في هذا المكان صفاءَ التعبد! ١٩

أغلبُ الظن أن ذلك المبني دارٌ تسكنها هذه الأسرة .
وقد أحوالها مسرحاً كما نرى تمثّل فيه العبادة تمثيلاً لا حقيقة له
ولا روح فيه . . . إنه معبدٌ للأجانب من الزوّار ، لا للبواطنين
من أهل « الصين » ، ولكنّ حسبّه أنه يكفل الرزق لتلك
الأسرة ، ويُعينها على أعباء العيش . . فلا ضيرَ علينا في أنْ
نُحسّن له الرثوسَ خاشعين !

كثيرٌ من معالم المدينة يَصوّرُ مظاهر من حياة « الصين » على
الأسلوب الذي هو أقربُ إلى التمثيل منه إلى الحقيقة والواقع .

إن « مدينة الصين » على الرغم من كل شيء ، وعلى الرغم
مما قيل فيها وما توصفُ به ، رقعةٌ من « نيويورك » ، لا قطعة
من « الصين » الأصلية !

أراهنُ على أن الصينيّ المقيمَ في هذه المدينة قد بدأ ينسى
صينيّته ، ولم يحتفظ منها إلا برطانةِ كلماتٍ يميزُ بها شخصيته ،
كما يُحلى حانوته ببعضِ الزخارف والنقوش . . . وقد يكونُ
مثله في ذلك كمثل الملحدِ الزنديقِ يتخذُ السَّبَّحةَ ليحركَ حباتها
بين أنامله ملعبةً وملكهاةً ! . . .

أراهنُ على أن صيني « نيويورك » لم تطأ قدمه أرضَ

« الصين » يوماً في حياته ، حتى إنه لم يرَ منها ظلَّ « شنغهاي » مدينة
الأوربيين في « الصين » . . .

إن مدينة الصين في « نيويورك » تمثِّلُ ما كان يمثلُه قصر
« المهر اجا » في معرض « ونبلي » في « لندن » . . . وأخشى أن
أقول إنها تمثِّلُ ما يمثلُه اليومَ « مسجدُ باريس » في « باريس » . . .

في أثناء الأسبوع المنصرم ارتدنا بعض الأحياء الأمريكية ذات الطابع الخاص ، أو بالحري الأحياء المتميزة بأجناس مختلفة تتألف منها كتلة الأمة الأمريكية . . . تتناثر في نيويورك ، الأحياء الخاصة بالأجناس المتباينة ، فهذا حي الإيطاليين ، وهذا حي الإيرلنديين ، وهذا حي الأسبان ، وهذا حي الروس ، وتلك أحياء أخرى لأجناس أخرى وإن تلك الأحياء لتبتلعها المدينة وتؤمر كُها ، فتتضال على مر الزمن ، كأجناس هذه الأحياء ، تربطهم جامعة أمريكية واحدة ، وإن ، تفرقت بهم المساسب والأصول . . . تتحلل أحياء لأجناس في بوتقة المدينة ، كما تتحلل الأجناس أنفسها في بوتقة الأمة الأمريكية . .

ولكن ثمة حي لا أدرى كيف يتحلل في بوتقة نيويورك ؟ وكيف يتحلل جنسه في بوتقة الأمة ، ومتى يتم هذا وذاك ؟ إنه كالحجر الصلد لا يلين للأحماض المؤذية ، ولا ينصهر في أتون النار المتقدمة . . .

Harlem

ذلك هو حيُّ الزوج ، أو مدينة هارلم ، كما يُسمُّونها
هناك ..

إنه أبعدُ أحياءِ «نيويورك» ، صيداً ، وأوضحها تميّزاً ،
ومرجعُ ذلك إلى قوة المقاومة في جنسه ، وما يحيطُ به من
ملايسات تُعين على احتفاظه بجوهره .

إن الأجناس الأخرى لِتُسرعُ إليها التحولُ والاندماج . حتى
لتكاد تنسى أصولها العريقة ، أما الزنجيُّ فإنه وإن استمسك
بأمريكيته واعتزَّ بها واكتسب كثيراً من مظاهر الحياة فيها ، فهو
ما برحَ يَعُدُّ نفسه غريباً في «أمريكا» ، غريباً في وطنه !

إنه ليشعرُ بأن جنسه هدفٌ للضم والاضطهاد . ولذلك
يتحصَّنُ خلف أسوار حيِّه ، يكاد يحظرُ دخوله على غيره ، بل
يكادُ يقيم عليه باباً لايسنطيع اقتحامه أحد . . .

وإنه لمن عجيب المفارقات أن تجدَ جنساً لا يعرف له وطناً
إلا «أمريكا» ، التي يسكنها ، وهو مع ذلك يتأبَّى الاندماجَ في
هذا الوطن ، أو لعلَّه لا يجد السبيلَ إلى هذا الاندماج !

تجولُ في «هارلم» ، فإذا بك في حيِّ كسائر أحياءِ «نيويورك»
في ظواهر العمران ، إلا في الشُّكان ..

مستعمرة سوداء لا ترى فيها الأشباح البيض إلا لئلا !
 إن الأبيض يطرق هذا الحي وهو عليم بأنه إذا توغل فلن
 يأمن على نفسه الغوائل ، فكأين من كلمة أثارت شغباً وأججت
 حرباً ، وكأين من إيماء أقامت قتلاً وأورثت وبالا !
 إن هذه الوجوه السود لتقلب فيك نظر المستريب ،
 فإذا رجعت إليها البصر تحفزت لك مستوفزة متممة ...

إن قصة الأبيض والأسود قصة تتجلى فيها الطرافة ، وإن
 شئت قلت الغرابة والشذوذ ... إنها مأساة دامية ، بل وصمة
 في جبين الحضرة الأمريكى الناصع !

كادت قصة الأبيض والأسود تقوِّضُ بناء الجمهورية الفنية
 وتفصم عراها ، فتفكك دويلات ضللاً ضائعة الشوكة
 والسلطان ، ذلك لأن قدِّيساً من البشر ، مثالى الفكرة ، تعمّر
 الإنسانية قلبه ، أبى أن يكون في الجمهورية الجديدة أرقاء من
 السود يباعون بيع السلع ، فمنحهم حق الإنسان ، حق الحرية
 والمساواة ... ذلك هو « لنكولن ، العظيم ، الذى كانت روحه
 فداءً لفكرته ، ما كاد يرفع راية العدالة ، ويقضى على الثورة ،
 حتى خارت صريعاً بيد رجعية آثمة ، وراح شهيداً مثله الأعلى .

لقد وضعت الحربُ الأهلية هنا لك أوزارها ، وعَفَّت
الحقَبُ آثارها ، ولكن ثمة حربٌ أخرى ما برحت مُستعِرةً
الأوار في الخفاء !

لقد محا القانونُ معاني الرِّقِّ والاستعباد ، ولكنها لما تزل
عامرةً بها الصدور . . . الأسودُ والأبيضُ سيَّانِ أمام القانون ،
وأمام فُرصِ الحياة الرسمىَّة في كل منحى من مناحي الاجتماع ،
ولكن نصوصَ القانون في وادٍ ، وفهْمَ القانون والانطباع به
في وادٍ آخر بعيد . . . فإذا عرفتَ أن عقليةَ الأبيض لا تُسبِّغُ
بأية حال شخصيةَ ذلك الأسود المنبوذ ، تَسَنَّى لك أن تعلمَ كيف
يفهَمُ الأبيضُ ذلك القانون ، وإلى أيِّ مدى يجرى تنفيذه في
المجتمع الأمريكيِّ الذي نَعُدُّه مَعْقِلَ الديمقراطية وملاذَها
الأمين !

ربما تحدثَ الأبيضُ إليك عن الأسودِ بروح « لنسكولن »
الأصيلة ، روحِ الإخاء والمساواة ، ولكنه إذا مارسَ شئونَ
الحياة ، ولا بسَ ذلك الأسود في هذه الشئون ، فسرعانَ ما تبدَّلَ
به الحالُ غيرَ الحال ، فترى الأبيضَ ينظرُ إلى الأسودِ نظرةً
الآحرار إلى العبيد ، ويعامله معاملة السيد للَسود . . .

لا ألفة بين الأبيض والأسود في « أمريكا » ، فيبينهما حاجزٌ
تَكَافُت طَبَقَاتُهُ وَتَحْجَرَتْ عَلَى تَرَادُفِ الْأَيَّامِ ، وَمِنْشَأُ ذَلِكَ أَنَّ
الْأَبْيَضَ مَا زَالَ بَوَاعِيَتِهِ الْخَفِيَّةِ يَنْظُرُ بَعَيْنِ أَجْدَادِهِ ، فَيَرَى الْأَسْوَدَ
عَبْدًا رَقِيقًا ، لَهُ أَنْ يَبِيعَهُ وَأَنْ يَشْتَرِيَهُ وَأَنْ يَسْخِرَهُ فِيمَا يَبْغَى مِنَ
الْأَعْمَالِ ، فَكَيْفَ يُرَادُ الْأَبْيَضُ الْيَوْمَ عَلَى أَنْ يَسَاوِيَهُ أَوْلَئِكَ
الْعَبِيدُ الْأَرْقَاءُ ١٩

وَمِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى يَرَى الْأَسْوَدُ قَدْ اسْتَنْارَ عَقْلُهُ ، وَاسْتَبَانَ لَهُ
حَقُّهُ فِي أَنْ يَعْدِشَ حُرًّا عَلَى قَدَمِ الْمَسَاوَاةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَائِرِ النَّاسِ .
وَإِذَا كَانَ قَدْ اتَّخَذَ « أَمْرِيكَ » وَطَنًا لَهُ ، فَشَأْنُهُ فِي ذَلِكَ شَأْنُ
الْأَبْيَضِ سِرًّا بَسْوَاءً ... وَفَوْقَ ذَلِكَ فَهُوَ يَرَى بَوَاعِيَتِهِ الْخَفِيَّةِ أَنَّ
الْأَبْيَضَ الْقَدَمَاءَ قَدْ اسْتَعْبَدُوا أَجْدَادَهُ ظُلْمًا وَعُدُوَانًا : فَهُوَ يَحْفَظُ
الْإِخْلَافَ بَيْنَ الْبَيْضِ ثَارِ الْجُدُودِ . وَمِنْ ثَمَّ تَشْهَدُ فِي الْأَسْوَدِ الْمَعَاصِرِ
عُنْجُومِيَّةً وَخَيْلًا ، وَتَلْهَجُ فِي عَيْنِهِ نَظَرَةُ الثَّائِرِ الْمَخْنُوقِ ، فَيَزِيدُ
ذَلِكَ مِنْ حَفِظَةِ الْأَبْيَضِ عَلَيْهِ ، وَيُوسِعُ بَيْنَهُمَا هُوَّةَ
الشَّقَاقِ ..

وَمِنْ أَضَاحِيكِ الْمَفَارِقَاتِ أَنَّ الدِّيمُقْرَاطِيَّةَ الرَّحْبَةَ الَّتِي
هِيَ شِعَارُ الْجُمْهُورِيَّةِ الْأَمْرِيكِيَّةِ قَدْ أَعَانَتْ عَلَى التَّفَرُّقَةِ بَيْنِ
الْأَبْيَضِ وَالْأَسْوَدِ دُونَ عَمْدٍ ... فَهَذِهِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةُ تَمْنَحُ الْهَيْئَاتِ

Imperial

والأفراد حرية التصرف في الأنظمة والإجراءات واتخاذ
الخطط التي تُيسّرُ سبيل النجاح . وكان من أثر ذلك أن عمدت
طائفة كبيرة من المعاهد والمؤسسات ونحوها إلى إقصاء
الأسود عن رحابها . مستخدمة في ذلك حقها في أن تقبل من
تشاء وتأبى من تشاء . . . فلم يجد الأسود بُدّاً من أن ينشئ
لنفسه معاهد ومؤسسات خاصة ، فاشتدت بذلك الفُرقة ،
وتَلَظَّت البغضاء ، وتقطعت أسبابُ التواصل والاندماج
ستظلّين يا « هارلم » ، كما أنت ، لا يُعنى عليك الزمن إلا إذا
انقلب الأمر يكون البيض جميعاً أشباهاً « لنسكولن » خُلِقوا
من طينته ، وأشربت قلوبهم فكرته ، وكانوا كمثلَه قدّيسين ،
نُصِبَ عيونهم بمثلَه الأعلى في الإنسانية والإخاء .
ولكن أَمِنَ الخير للأمة الأمريكية أن تكون على غرار
« لنسكولن » مثالية قديسة ، فيندمج العنصران النقيضان ،
وتتزاوج العقليتان المختلفتان ؟
أم الخيرُ كلُّ الخير في أن يظلّ للأسود ميدانه وديناه ،
وللأبيض حضارته يمضى بهاطوع هواه ، ويطبّعها بعقليته ومنحاه ؟
مهما يكن من قول ، فإن في سريرة الغد جلاء ما تضطرب
فيه الظنون !

أول بونيه

ما كان لنا وقد ذرّعنا شوارع «نيويورك» وندسّسنا إلى أحيائها إلا أن نخرج من عزلة المدينة، متخطّين أسوارها، في نزّهات فاصية بين الضواحي والأرباض.

وإنك لتحسب نفسك في نزّهة حول المدينة، فإذا بك تعلم أنك قد اقتحمت حدود ولاية أخرى، وبدأت تجوب مدائنها، وتطرق عاصمتها!

تحاط «نيويورك» بضواح طريفة، سمّتها كما شئت ولايات أو مدائن أو مقاطعات... لها جميعاً طابع واحد، فما أشبه بعضها ببعض: «البالساد»، «بير ماونتن»، «وست شستر»، «لنج بيتش»، «كوني أيلند»، وما إليها.

دساكر وبقاع تتجلى فيها مفاتن الريف بجمعاء، ولكنه الريف في مظهر مثالي شائق... إن هذه الدساكر لتعدّ قرى هنالك، ولكن أية قرى هذه؟ تلك وسائل الحضارة في هذه المدن الريفية مستكملة مستوفاة تحيلها حضرأ له مزايا الريف.

للناس في «نيويورك» عادةً أليفوها ، هي أن يخرجوا
إلى تلك البقاع في أيام الآحاد والعطلات ، وإن بعضاً من
الناس ليتخذونها مستقراً ومقاماً ، يفرعون إليها انتجاعاً للراحة ،
ونجاءً من الزحمة والضجيج . . .

وإن لأهل «نيويورك» نزعة قوية إلى طلب الراحة ،
ينشدونها ويسعون إلى تحقيقها ما وجدوا إليها الخلاص .

تري أكثر كلماتهم دَوْراناً على ألسنتهم هي كلمة «ريلاكس»
يتناقلونها في كل مناسبة ، فهي فردوسهم المفقود ، ونعيمهم
الموعود . . إنها «التراخي» .

و«حق» الأمريكيين أن يحلموا بهذه الرخاوة ، يهيمون بها
حباً ، ويتحرّقون إليها شوقاً . ولكن هذا الفردوس عزيز
المنال على أولئك المساكين الذين دارت بهم الآلة ، وضغطتهم
الزحمة ، وجهدهم التكالب على الكسب والاغتنام .

إنهم لا يخرجون من رَهَق إلا إلى رَهَق ، ولا يخلصون
من مجهود إلا إلى مجهود . . .

إلى أين يقصدون ؟

إلى سفوح الجبال ، حيث تجول يدُ الفنان في مجالى

الطبيعة ، فتجلبها جنات بحق . . حقائق وغابات ، جسور معلقة ، وهاد ونجاد ، جداول وبحيرات للسباحة والجدف ، ملاعب تحت الخنازل ، مقاصف بين الأيئك والغصون ، إلى غير ذلك من محاسن تقرُّ بها العيون ، وتشلج لها الصدور . . .

ولكن كيف السبيل إلى الاستمتاع بهذه المجالى الفاتنات ؟ ليس ثمة من سبيل إلا أن تُترهق نفسك وتزحمها بين الكُتَل البشرية في البواخر والقطارات والسيارات الحافلة ، فإذا استخلصت جسمانك من بين الجموع في آخر المرحلة ، ورأيت نفسك قاب قوسين أو أدنى من تلك الجنان الزاهية ، ألفت شياطين الزحمة وأنظمة الطواير ، قد سبقتك هنالك ، ووقفت لك بالمرصاد ، تُعكِّرُ عليك الصفو ، وتسلبك أملك في « الريلاكس » ، فتشيد مع الشاعر العربيُّ قوله :

المستجيرُ بعمرٍو عند كربته كالْمستجيرِ من الرَّمضاءِ بالنارِ
إن نَشِدَ انْ الراحة في مظانِّ الراحة هنالك مُعْضَلَةٌ من

جسام المعضلات !
ولذلك تجلبت أمنية « التراخي » في مظاهر شتى من الأدب الأمريكى والفن الأمريكى ، ولاسيما « الفلم » السينمائى . . .

تراهم يصوِّرون حياة الطبيعة الفطرية تصويراً بالغ الروعة ،
ويشيدون بمفاتن المواطن غير المتحضرة إشادة ظاهرة ، وليس
ولعهم بذلك التصوير وتلك الإشادة إلا إرواءً لظمأ نفوسهم
إلى الراحة والرخاوة ...

ما أكثر المتنزهات الخلوية ، وما أحفلها بالمتع المتنوعة
تواتى كل امرئ بما تصبو إليه نفسه !

وما أروع الطرق التي تصل بعض هذه المتنزهات ببعض !
إنها طرقٌ فسيحة معبّدة أخليت مضماراً للسيارات تنتهبها
وحدها انتهاباً ، وقد يتحول الطريق جَسَراً عظيماً يمتدُّ أميالاً
طوالاً ، ثم ينقلب نفقاً هائلاً يتغلغل في جوف الأرض
متسللاً تحت أعماق الماء ، ثم تخرج منه تستقبلك المروجُ
الخضرُ ، والغابات المشتبكة ، وتلك المغاني الفاتنة تبدو في فنِّ بنائها
كأنها لعبٌ مكبرٌ أو نقوشٌ ملونة

أما الشواطئ الخاصة بالاستحمام ، فلكل بقعة منها نصيب ،
فإن ضنّت الطبيعة به خلقه لها خلقاً وأنشأوه إنشاءً !
ولعل أكبر ما يميّز تلك الشواطئ حفوها بتلك الملاعب
التي نسمّيها : «لونا بارك» ، ...

✓
Luna park

ما أنسَ لا أنسَ ملعبَ «كوني أيلند»... رقعة واسعة
تحوي كل عجيب غريب من الألعاب التي تأخذُ بمجامع الألباب .
وانها اظاهرة تسترعى النظرَ ، تلك الرغبة التي تملي بها
نفوس الأمريكيين في ارتيادِ أما كن التسلية الطفولية العامة
بالصخب والضجة والمخاطر .

ربما كانت علاجاً يفزعون إليه ، شفاءً لأعصابهم المنهكة ،
على نحو ما كان يشفي به نفسه «أبونواس» ، إذ يقول :
دع عنك لومي فإن اللومَ إغراءٌ وداوني بالتي كانت هي الداءُ
إنهم يعبثونَ من تلك الحزيرِ الكاوية للأكباد ، لينسوا
ما نهكهم من مشقة وجهاد ...

إنهم ليترامونَ في ذلك الصخب والضجيج ، يتركون
أنفسهم على سجيئتها ، منطلقة تمرح وتلعب ...
هي رغبةٌ في التحرُّرِ من الأغلال : أغلالِ العمل الدائب ،
وأغلالِ النُظم الصارمة !

في هذه الملاعب يحاولون أن يخطّموا هذه الأغلال .
فتجد الرجل الناضج قد اهتز طرباً وهو يعتلي صهوة حصانٍ
من خشب يسابقُ به الريحَ ، أوضجَ مرّحاً وهو يترنّحُ على
(١٧)

مقعده في ذلك القطار الأهوج الذي لا يفتأ في صعود وهبوط ،
أو انبعث ضاحكا والرحى السحرية تدور به دورتها الجمقاء
ثم تلفظه لفظ النواة ... فلا تراه قد ترك اللعبة إلا مقبلا على
أخرى ، طلباً للمزيد من الضحك والمرح !

في تلك الملاعب الثائرة تتجلى المخاطر في صورة واضحة ،
ولكنها مخاطر مأمونة العُقبى . وإن الإنسان ليولع بها إرضاء
لنزعة أصيلة في أغوار نفسه ... هذه الحضارة على وجه عام
قد أمّنت عيشه ، ومهدت طريقه ، فأصبح يحيا حياة أمن
لا تكلفه جهداً ذاتياً في المغامرة ومجادة المخاوف ، ولا تتطلب
منه أية جرأة أو جسارة ، لا كما كان يعيش أبوه الأول ،
يصارع ويصاول ، تعناقه في كل طريق عقبة ، ويخشى في كل
خطوة أن يقع في شرك ، فإذا ذللّ العقبات ، وتخطى الأشراك ،
أحس قوة الشخصية وكبرياء الفتوة وزهوا الغلب .

أما هذا الإنسان الحضريّ ، فإنه قد أحيط بما يؤمنه ، حتى
دلّ الأمن الشائع حوله ، فهو تَوَاقى إلى أن يستعيد حياة
الفرع ومجابهة الأهوال ، ولو ساعة في مجال تتناثر فيه
اللاعب الصّيان ...

amusement
park

ومن ثمَّ يرمى بنفسه في تلك المخاطر المصنوعة ، ويخرج منها
سالمًا يؤمُّ كبريائه أنه الفارس المغوارُ والبطلُ المَقْدَامُ !
طال بنا التَّجْوَالُ يوما في هذه الشواطئ العامرة بالملاعب
والمساجح والمقاصف ، حتى آذنت شمسُ النهار بالمغيب ، فإذا أنا
أسمع صوتاً يقول :

هلا رافقتُموني إلى «مغنى فكتور» نقضى فيه هزيعاً من
الليل ؟

فالتفتُ صَوْبَ الصوت ، فواجهني صديقٌ كريمٌ سمحٌ
المحيّا ، طلق الأسارير ، فقلتُ له على الفور :

وما هو «مغنى فكتور» ؟

— مثابة في إحدى الضواحي القُصوى ، إن شئت سميتها
مطعماً ، وإن شئت سميتها مُنتدًى تستمتع فيه بجلسة صافية ..
فقلتُ له :

لبَيْتِكَ !

وأفلتتنا سيارته الرشيقة ، فانسابت في طريقٍ من تلك
الطُّرُق الفِيسَاح ، تمرُّ بنا المروج والغابات والأضياع يتلوى بعضها
بعضاً في جوٍّ رَخِيٍّ الأنسام ، حتى شارَفْنَا «مغنى فكتور» .

حديقة طيبة ، وبركة أنيقة ، يتوسطهما مبنى جميل ، كل
ما فيه يشعرك بالألفة ومظاهر الحياة العائلية .

لست في مطعمٍ أو مشرب ، وإنما أنت في بيتٍ غدير
سرى من أسرار الطليان له في الحياة ذوقٌ فنيٌ مُصَفَّى ، تخير
هذه البقعة النائية ليحيامع ضيوفه ورؤاد مغناه في دعة وطما نينة
وصفاء ، يقدم لهم أنفخ الطعام وأطيب الشراب في تأثق وسخاء .
وتوخيئنا معزٍ لا هادئاً بجوار الشرفة ، وأمضيئنا فترة
هائلة ... لا موسيقى ولا رقص ، لا حركة ولا جلبة ، لا شيء
عما تحفلُ به مقاصف الليل !

إن انتزاح هذه المثابة عن قلب « نيويورك » وقيامها على
أطراف الأرض ، وخلوها من المغريات الشائعة ، جعلها
مهيوى أفئدة أولئك الذين يبتغون تذوق المتع الغالية الرفيعة
في سكون وهدوء ...

وتلفتُ حولي أقول :

أين رب البيت السيد « فكتور » ؟

فعلاً صوت ضخم رددت أصداءه أبهاً المغنى ، وقد شاعت
فيه نغمة حفاوة وترحيب تصحبها ضحكة رنانة لا يجيد إطلاقها

إلا من كان خالي البال !

فقلتُ على صديقي أقول :

قَسَمًا إِنَّهُ السَّيِّدُ « فكتور » !

فاعتاضَ الصديقُ عن الجوابِ بالابتسام ...

وهُزِعَ بعضُ قُصَّادِ المَعْنَى إلى مصدرِ الصوتِ في بشاشة
ولِيناس ، وأهابَ بنا الصديقُ أنْ نَهْضَ كما نهضوا ، فَتَبِعْنَاهُمْ ،
فإذا بنا أمامَ قفصٍ لطيفٍ ، تقفُ على إحدى دعائمه ببغاءُ
رشيقَةٌ تصوَّبُ فينا النظرَ وتضعِّده بعينين حادتين ...

فهمستُ في أذن صديقي :

من يكونُ هذا السيدُ الظريفُ ؟

— إنه الخِلُّ الوفيُّ والصديقُ الودودُ لربِّ الدار .

— حقًّا إنه خيرُ من يؤدِّي حقَّ الضيافة ... !

ولبثنا حيناً يحيينا هذا السيدُ ونحييه ، ويفاكهنا ونفاكهه ،
وقد توثقَ بيننا الودُّ ، واتصلتْ أسبابُ الألفة .

ولكن القُصَّاد تَكَاثَرُوا حولَ القفصِ ، وتكاثفتْ
الحُلَّةُ ، فإذا بهذا السيدِ الظريفِ ينقلبُ عفريتاً من
الجنِّ يصخبُ ويشور ، ويسلُقنا بلسانٍ سَلِيطٍ ، فتراجعنا

عنه مقهورين .

لقد استجبنا لنداء هذا الزعيم الحبيس ، فلم ندعُ صيحتَه
تذهبُ مع الريح ، ولكنه ما كاد يحسُّ عظمتَه تتجلى ، ويرى
مكانته تتسامى ، حتى أشرَّ وبَطِرَ ، وحسبَ نفسه زعيماً بحق ،
وانبرى يشور على من استجابوا له . . .

ذلك صنيعُ حيوان . . .

أترأه محاكياً استطاع أن يُفصحَ عن طبيعةِ الإنسان ، كما
استطاع من قبلُ أن يحاكيه بالثُّطقِ والبيان ؟

وشرعَ صديقى يروى لى قصةَ السيد « فكتور » .

إنه طليانىٌّ تأمرك ، طليانىٌّ فنانٌ فى روحه وذوقه ،
احتل هذا المعنى بحديقته وبربِّ كنه ، فأقامَ هو فى الطبقة العليا ،
وجعل الطبقةَ الدنياَ مطعماً ومثابةً للوجَّاه المترفين . . .

ولأنه ليتفنَّنُ فى كل ما يقدمه من مأكلٍ ومشربٍ ، وما تقع
عليه العينُ من أثاثٍ ومتاع . . .

ولقد استغل الحديقةَ ، فاتخذَ منها حظيرةً للدواجن ، ومزرعةً
للخضَر والفاكهة ، ولذلك يقدمُ لك من ثمرِ المزرعة ما هو
يا نفعٌ جنى ، ومن نتاجِ الحظيرة ما هو مُستقى شهى . . .

كلُّ ما عندك أيها السيد « فكتور » — أو على الأصح أيها
« السنيور فيتوريو » — طريفٌ شائق ، حتى هذه البَغْضَاءُ
المتعمِّدة الشَّغُوبُ ! ...

لقد تفتَّحت عبقريتك عن عملٍ قتيّ يدلُّ على أن الطليان
القدحَ المَعْلَى في حبِّ الجمال ...

حقاً لقد ظلمكم زعيمكم الراحلُ « موسوليني » أيها الطليان ،
إذ حاولَ أن يخلقَ منكم جبهةَ حربٍ وضرب ، وكرَّ وقرَّ ،
وما أتمَّ إلا أمةً فنٍّ جميلٍ ، وذوقٍ رفيعٍ ...

وهل تنقلُ عظمةُ الفنِّ والجمال عن عظمةِ القتال
والصِّيَالِ ؟ ... !

جلست في بهو الفندق أنظرُ مَقْدَمَ صديقِ كريم ، اتفق
معي على أن يصحبَنِي لزيارة « دار الكتب الأهلية »
في « نيويورك » ...

ولم يطلُ بي الانتظار ، فقد أقبلَ عليَّ الصديق ، يتأبط
رِزْمَةً ضخمة ... وتبادَلْنَا التحية ، فأسرَعَ صديقي يَسُطِ
رِزْمَتَهُ ، فإذا هي طائفة طريفة من مجلات وصحف ...
وما هي إلا أن قال :

هاك نماذج من صحافة أكبر مدائن العالم المتحضر .
وأخذ الصديقُ مجلسَه حِياي ، وقد أشعلَ لِفافته
فاخرة ، وقال :

كم صحيفة تصدُرُ في « نيويورك » فيما تَظُنُّ ؟
فقلت ، وأنظاري تَسبَح بين الصحف والمجلات :
مئات ومئات ...
— بل عَشْرَةٌ فقط .

— لا أكاد أصدق ...

— إنها عشر صحف يومية .

ولكن مدينتكم مدينة الكثرة في العدد ، والضخامة

في المظهر ...

فتمكّن الصديق في جلسته ، ونفّث الدخان في ثقة

واعتماد؛ وقال :

إن الكثرة والضخامة لم تفت الصحافة ! ... فالصحف

الشعبية يصدر من كل منها نحو ثلاثة ملايين نسخة ، أما صحف

الخاصة فيصدر من كل منها نحو نصف مليون نسخة . وإنك

لترى الصحف اليومية تخرج في نحو خمسين صفحة ، أما نسخة

يوم الأحد فتخرج في نحو مائة من الصفحات ...

— والمجلات ما شأنها ؟

— هذا فيض لا يغيض ... لكل منحنى في العلم والفن

والاجتماع مجلات خاصة ... لكل ما يخطر ببالك مجلة تُعنى بشأنه !

ووجدت يدي تعبث بالصحف والمجلات ؛ وتُخرج من

بينها اعتباراً لمجلتين ، أولاهما مجلة لصيد السمك . والأخرى

لشئون الكلاب !

وأخذت يدي تعبثُ ثانية ، فإذا بها تتصيدُ مجلَّةً في حجمِ
رشيقٍ ذاتِ غلافٍ ملونٍ شائقٍ... فليحبا الصديقُ في يدي ،
وقال من فورِهِ :

تُعَدُّ مجلاتُ هذا النوعِ بالعشرات... طرازُهُ جديد من
مبتكراتِ الصحافةِ الأمريكية... إنه صحافةُ الضَّغْطِ والإجمالِ .
— براعةٌ حقاً أن تُحيلوا الكتابَ الضخمَ صفحاتٍ قلائلَ ،
وأن تُخرِجوا القصةَ المطوَّلةَ في أسطرٍ ضئيلةٍ... أخشى إذا
امتدت بكم الحالُ أن يكونَ زادُ القارىءِ من العلمِ والفنِ
مُجملاً وكلمات !

ونفَضَ الصديقُ رَمادَ لفافَتِهِ ، وهو يحدِّقُ فيها برهةً ثم قال :
ربما كان هذا طلائعُ ما يلحقُ الصحافةَ والتأليفَ من تطوُّرٍ
في المستقبلِ . . قد يَقْنَعُ قارىءُ الغدِ بسطرٍ يُغْنِيهِ عن مقالٍ ،
وبصحيفةٍ تُغْنِيهِ عن كتابٍ ، وبمجلدٍ يُغْنِيهِ عن مكتبةٍ زاخرةٍ ،
وانسرحت أفكارُ :

أيجلُ حقاً هذا اليومُ ؟ أنُحرَمُ متعةَ الإفاضةِ والتوسُّعِ
والإطنابِ ؟

لا يخلو حديثُ الصديقِ من حق... قد يغدو إنسانُ الغدِ غيرَ

مفتقِر إلى مطوّلات ومبسّطات ، إذ تُغنيه عن ذلك نشأته في
بيئة نيرة ارتفع مستواها الثقافي ، وتغلغل العلم في مجتمعيها
العام .

يا لله !... شدّة ما كنتُ أكره الثرثرة ، ولكن ما أشدّ كلني
بها وإشفاقي عليها الآن ، وأنا أراها تنكمش وتضاءل ، وتوشكُ
أن تحلّ بها ساعة الاحتضار !

قد يكون من معقّبات هذه الحضارة السيّارة القضاء على
مُتعة الكتاب ، ذلك الجليس الأنيس ، والخيّل الوفيّ .
ما أظلمها حياة تلك التي تطالِعنا دونَ ثُرثرة ، فيها للنفس
مؤانسة ، وفيها للذهن إمتاع !

ورفعت إلى الصديق عيني أقول :

مهما يكن من أمر ، فإن هذا الأسلوب الجديد في الضغطِ
والإجمال يبعث على الرهبة والروع... إن العملَ الفنيّ روحه
الحرية ، يتنفس فيها طليقاً ، لا تُؤدّه القيود ، ولا تصدّه
الحدود... أنسى لك أن تتصور لوحاً فنيّاً ، أو لحناً فيّاضاً ، أريد
على أن يُزجّ به في قوالب الضغط والإجمال ؟...

إني لأتمثل هذه المضغوطات كما أتمثل إنساناً سويّاً تدفعُ

به في مَكْبَسٍ ، فُخْرِجَ مِنْهُ قِزْماً شائهاً متداخِل الأوصال !
وهذا العملُ الفنيُّ أساسه الجمالُ ، وغايته الإحساسُ بذلك
الجمال ، فكيف للإنسان أن يتذوقَ الشيءَ الجميلَ ، وقد عَجِبَتْ
بِقِسْمَاتِهِ ومحاسِنِهِ يَدُ الضَّغْطِ والإجمالِ ؟ ...

إن سادتُ فِكْرَةُ الاختصارِ والاقتضابِ ميادينَ الفنونِ ،
فإن ذلكَ حتماً يسايرُهُ تَغْيِيرُ أَصْلِهِ في تذوقِ الجمالِ ، وسيُصْبِحُ
للجمالِ مقاييسُ واعتباراتُ أخرى غيرَ ما لنا اليومَ من
اعتباراتٍ ومقاييسٍ .

تُرى : أيُّهما خيرٌ ، مانحن فيه ؟ أم ما يكون من تَغْيِيرٍ بعدُ ؟
فقال الصديق ، وهو يَهْمُ بالنهوض : الحكم في هذا كُلُّهُ
للغَدِ المَغْيِبِ . وما يطوى في تضاعيفِهِ من تطوُّرٍ محتومٍ لا مخلصَ
منه لإنسان ، ولا يَهْدِفُ التطوُّرُ إلا إلى ارتقاء !
وأخذ يبدى قائلاً :

لقد حان الموعدُ . فهِيَّا بنا إلى « دار الكتب » .
ومضينا في الطريق ، فألفيت رفيقي يُرَبِّتُ كِتَافاً ملاطفاً
وهو يقول :

إن صديقك الكتابَ ما بَرَحَ موفور الكرامة ، وإن سُوقَهُ

ما زالت راجئةً أيّ رَواجٍ... هذه المطابعُ الأمريكيةُ تخرجُ
في كلِّ يومٍ أكثرَ من ثلاثين كتاباً !
فهممتُ :

قُرابة ألفِ كتابٍ في الشهر...؟ حقّاً لا يزالُ الكتابُ
بخير ، مدّاً الله في عُمره !

وشارَفنا « دار الكتب »... مبنيّ رائعٌ عظيمٌ أقربُ
شبهاً بالطَّرَازِ الرُّومانيّ... دَرَجٌ متوافٍ فسيحٌ ينتهي بأعمدةٍ
متطاولة... حُجَر وقاعات تتجلى فيها الرحابةُ والتنسيقُ.

ورحنا نجوبُ الأرجاءَ ، لاندخلُ حجرةً إلا بارحناها إلى
حجرةٍ أخرى ، كأننا في مَزَارِ نقضٍ فيه شعائرُ الطواف...
فاستهوتني تلكَ الطرافةُ والتجديدُ في كلِّ ركنٍ ، وذلكَ التيسيرُ

وسرعةُ الإفادةِ في كلِّ موضوع . وهذه الفهارسُ... إنها
مكتباتٌ مستقلة ، لها أنظمتُها وأوضاعُها التي ترسلُ أضواءها
للتنويرِ طريقَ البحثِ والإطلاعِ !

وزَهاني أن تقعَ عيني هنالك على قسمٍ عربيٍّ ملحوظٍ
الجانبِ بين سواه من الأقسام . . هذا سفيرُ الشرقِ العربيّ
يتربّعُ هنا في مهابةٍ وإجلال... ألا تراه أعزَّ مكاناً وأحمدَ أثرًا

من مقاعد تُعَدُّ للشرق في هيئة الأمم أو مجلس الأمن أو غيرهما
من هيئات السياسة والشئون العالمية ومجامع الشرف والتكريم؟
وزايلتنا الدار، أو بالأحرى صدرنا عن ذلك المعبد
المقدس، حيث كنا بين يدي إله الحكمة، نتطلع إلى ما وراء
صدره، يَغْمُرنا فيض نوره العظيم !

وجعلتُ أُنَمِّلُ هذه الملايين المرصوفة من عقول البشر
في مختلف العصور على تباين الأجناس، فدارت بخاطري فكرة
في شأن هبات القرائح والفهوم
لقد أخرج العقل البشري عُصَارَتَه الأصيلية، فليس له
اليوم من جديد، وإنما هي إعادة وتكرار ومحاكاة، أو مغايرة
في المظهر والصُّور والأوضاع.

رمن ثمَّ يمكنُ أن نستعيضَ عن ألفِ الكتب بعشراتها،
مادامت هذه العشرات قد استخلصت الجوهرَ واللُّبَّابَ .
ألا يحشدُ لك «أرسطو» في فلسفته جمعاً زاخراً من
الفلاسفة والفلسفات ؟

ألا يمثِّلُ لك «شكسبير» في روعة شعره وعِظَمِ فنِّه
صفوة المسرحية المظومة خلال قرون وأحقاب ؟

ألا تجد في ديوان «المتنبي» مثل الشعر العربي في
أوج خصائصه ؟

ألا تغنيك قراءة ما ترك هؤلاء الثلاثة عن قراءة ما ترك
أضرابهم ممن يُعدّون بالِمئاتِ أو الآلاف ؟

لكن أليس في هذا الرأي حكمٌ على العقل بالحجر
والجمود، وإلغاء لظهور العبقريات التي لا يمكن أن تزول
من الوجود ؟

حقاً إنه لا جديد تحت الشمس، وإن هذه العبقريات
لتنناولُ حقاً مطروقَ الموضوعاتِ وأمّهات الأفكار، ولكنها
تعالجُها على ضوءٍ جديد، وتبعثُ فيها روحاً فتيّةً، فتبدو في
مظهرٍ أخاذ، كأنما خُلِقَت خلقاً، ولم يكن لأحدٍ بها عهد...
وبذلك تستثيرُ الشوق والشَّغَفَ، وتنقي عن نفسِها دوا عيِّ الملالِ
أو ليس في الحقِّ إذن أنه لا يُغني كتابٌ عن كتاب ؟

هذا يومٌ طريف...

تَخذناهُ لسياحةٍ غريبة ، ليست من نوع السَّياحات المعهودة .
إنها سياحةٌ خَيَّلَتْ إلينا أننا طَوَيْنَا مِئينَ من السنين ،
دون أن نبلُغَ من الكبرِ عِتَبًا ، أو نفقِدَ من عُمرِنا
إلا بضعَ سُويعات ...

لَكأننا في سفينةِ نُوحٍ ، نحيا بين أجناسٍ مختلفةٍ من البَشَرِ ،
وأصنافٍ متباينةٍ من الحيوان ، وضروبٍ شتى من الجماد .

لَكأننا امتطينا « مركبة الزمن » التي وصفها لنا « ولز » ،
في إحدى رواياته الشائقة ، تلك المركبة العجيبة ، أو على الأصح ذلك
الجوَادَ السحريَّ الطيَّارَ . . . تَهْمِزُهُ همزةٌ خفيفة ، فإذا به
يرجع بك القَهْقَرَى في أغوار الزمن ، عابراً صحائفَ التاريخ ،
مُطِلاً بك على الكوائن والأحداث في غوابرِ الحَقَبِ ، حتى
إنك لَتَجْتَازُ عصورَ المديِنَات فتقتحمُ وراءَها عهودَ الحياةِ
الإنسانيةِ في غَيَابَاتِ الكهوفِ وفوقَ أغصانِ الشجر ، وحتى

إنك لتبلغ أقصى الشاطئ، للبدنية البدائية، حيث تدنو سحنة
الآدمي من خلقه الحيوان !

فإن همزت جوادك همزة أخرى قفز بك ينقلبك إلى عالم
المستقبل المجهول، عالم الأحلام والتكهنات، حيث تتسلل
إلى منافذ المستور من الغيوب، وترى ما يتمثله العقل البشري
من حياة اللاحقين في ركب القرون الآتية .

كان هذا اليوم يوم المتاحف الثلاثة، المتصلة الحلقات،
التي يتم كل منها غيره .

وما أقرب شبهها بمسرحية طليّة ثلاثيّة الفصول،
يمثل الفصل الأول منها متحف التاريخ الطبيعي، ويمثل الفصل
الثاني متحف الآثار والفنون، ويمثل الفصل الثالث متحف
العلوم والصناعات .

بين أرجاء هذه المتاحف شهدنا رواية الحياة كاملة الفصول.
لقد تعاقت علينا أجناس الخلائق، ومواكب العصور،
فترأى لى الإنسان قطرة فى ذلك المحيط المتلاطم الأمواج،
الزواجر العباب، وتمثلت لى الأجناس والعناصر متواصلة
الأصول، وثيقة الأنساب، وبدت لى القوميات والوطنيات

تذوبُ وتتزايد في ذلك الكونِ الشاسع الذي يَرُدُّ الطرفَ وهو حسير .

ولكن سرعانَ ما احتجبتْ هذه الصُّورُ في خاطري .
وشعرتُ بنفسى أزهو ، ويستيقظُ بين جوانحي حنينٌ واغترابٌ
حين رأيتُ الركنَ المصرىَّ في متحفِ الآثارِ وانفنون يشمخ
على سائرِ الأركانِ ، فإن عظمتَه لتُسخُ بجانبها عظمة الإغريق
والرومان ...

في هذا الركنِ مُتحَفٌ كاملٌ للآثارِ الفرعونية بنواويسها
الرائعة ، وتماثيلها الفخمة ، « وموميائاتها » الخالدة ، ومخلفاتها
من كل دقيق وجليل ... حتى إنك لتشاهد الضرائحَ وقد نُقِيت
أحجارها وأعيدَ بناؤها ، فإذا دخلتَ وطوّفتَ بأرجائها خُيِّلَ
إليكَ أنك تسمعُ صلواتِ الكهنة وأهازيجَ الغابرين ، وأُك
تشمُ البخورَ يسرى من المجامرِ طيّبَ الأنفاس .

معجزةٌ أيةٌ معجزة حقاً ذلك الركنُ المصرىُّ السحيق الذى
ينفضُّ عن نفسه أ كفانَ العصورِ والحقبِ ، ليحتلَّ مكانه في
قلب عاصمة الحضارة الجديدة ، وكبرى مدائن العالم الحديث !
حقاً لقد جمعتْ لى هذه السياحة المباركة زُبدة الحضارات

المتعاقبة ، وعصارة القوى الإنسانية في ماضيها وحاضرها ،
فاختزلت لى في ساعات ما يقتضى تحصيله شهوراً بل سنين .

هو اختزال واختصارٌ في تقديم المعلومات ، ولكن على
نحو يخالف أشدَّ المخالفة ذلك الذى تجرى عليه مجلاتُ
الضغط والإيجاز !

لقد قطعنا السَّيْدَ والمفاوز ، وجُسُنا خلالَ الأدغالِ
والأحراجِ ، واجتزنا رِحابَ الصقيع ، وحلَّقنا في مسارح الطير ،
وغُصْنَا في أعماقِ الماء ، وتصاعُرْنَا حتى حَيَيْنَا بين ضئالِ
الحشرات وصُغَرِيَّاتِ الجراثيم .

ثم تسامِينَا مندفعين بين السبع الطَّباقِ ، نجتلى أسرارَ
الفلكِ الدَّوَّارِ ، وانتقلنا إلى أودية الأخيصة والتصورات ، مَهْمِمْ
بين القوى الذَّرِّيَّةِ ، كأننا أرواحٌ تتقاذفُ بها أمواج الأثير !
هى دُنِيَّاتٌ ودُنِيَّاتٌ . . . إن اختلفت أجناساً وأصنافاً

وعناصراً ، فهى هى ، ينتظمُها جوهرٌ مشتركٌ ، ألا وهو تلك
القبسة العلويَّة الثَّورانيَّة التى يتجلى بها على خلقه الله . . . فما
نحن من بشرٍ أو حيوانٍ أو جمادٍ إلا جُزْئِيَّاتٌ تتجمَّعُ أو تتفرقُ ،
تموتُ أو تُبعثُ ، ليكونَ مَصرُها جميعاً أن تَفنىَ الفناء

النَّامَ فِي مَلَكُوتِ الْمَلَأِ الْأَعْلَى .

هَذَا رَكْبٌ عَظِيمٌ بَالِغُ الرَّوْعَةِ ، زَادَهُ الْعِلْمُ وَالْمَعْرِفَةُ ،
يَحَاوِلُ أَنْ يَبْلُغَ بِالْإِنْسَانِيَةِ أَوْجَ السَّعَادَةِ وَذِرْوَةَ الرَّفَاهِيَةِ ، وَإِنَّا
النَّارَهِ يَمْضَى قُدُمًا جَبَّارِ الْخَطْوِ تَكَادُ صَوْلَةُ ضَجَّتِهِ تُصَمُّ الْأَسْمَاعَ ،
وَسَنَا ضَوْؤُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ، وَرَوْعَتُهُ تَنْخَلَعُ لَهَا الْقُلُوبُ . . .

رَوَيْدَكَ أَيُّ هَذَا الْعَقْلِ الْإِنْسَانِيَّ الْجَمُوحِ !

دَعِ لَنَا فِي دُنْيَانَا بَقِيَّةً مِنْ جَهَالَةٍ نَلُودُ بِهَا فِي مَهْرَبٍ مِنْ
تِلْكَ الرَّوْعَةِ وَالضَّجَّةِ وَالسَّنَا ، فَتَنْتَعِمَ غَا فِلِينَ بِشَيْءٍ مِنْ رَاحَةِ
الْأَمْنِ ، وَدَاعَةِ الصَّمْتِ . وَهَدْوَةِ الظَّلَامِ !

أول بولية

عَوْدَ إِلَى لُغَةِ الْأَرْقَامِ ...

لا عَجَبَ فِي أَنْ أَتَّخِذَ هَذِهِ اللُّغَةَ بَيْنَ الْفَيْسَةِ وَالْفَيْسَةِ ، فَإِنِّي
مَا بَرَحْتُ نُزِيلَ « أَمْرِيكَ » أَتَنْسَمُ هَوَاءَهَا ، وَأَحْيَا فِي مَغَانِيهَا ،
وَلَيْسَ « لَأَمْرِيكَ » مَعْنَى إِلَّا أَنَّهَا أَرْقَامٌ وَأَرْقَامٌ ..
أَرْقَامٌ مُتَكَاثِرَةٌ مُتَعَالِيَةٌ .

نَوَاطِحُ سَحْبٍ أُخْرَى قَوَائِمُهَا الْأَعْدَادُ لَا الْأَحْجَارُ !
لَيْسَ ذَلِكَ بِمَقْصُورٍ عَلَى مِيَادِينِ الْعَمَلِ الْمُخْتَلِفَةِ ، وَلَكِنَّهُ يَتَعَدَّاهُ
إِلَى الْمَلَاهِي وَمَا إِلَيْهَا مِنْ ضُرُوبِ الْمَتَعِ .

تَضُمُّ مَدِينَةُ « نِيُويُورْكَ » وَحْدَهَا سَبْعِمِائَةَ مَبْنًى بَيْنَ مَسْرَحٍ
لِلنَّمْثِيلِ ، وَدَارٍ « لِّلْسِينِمَا » ، إِلَى جَانِبِهَا ثَلَاثُمِائَةٍ وَأَلْفٌ مِنْ أُنْدِيَةِ
الْلَّيْلِ . تِلْكَ الَّتِي يَسْمُونَهَا بِالْفَرَنْسِيَّةِ « الْكِبَارِيَهَات » ، وَاعْلَمْنَا
لَا نَخْطِئُ إِذَا سَمَّيْنَاهَا : الْمَسَاهِرُ .

هَذِهِ الْمَوَاطِنُ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا بِمِثَابَةِ مُتَنَفِّسٍ لِسُكَّانِ
مَدِينَةِ التَّزَاحُصِ وَالضَّجِيجِ . . . هَؤُلَاءِ الْآدَمِيَّةِ الَّذِينَ لَوْ انْطَلَقُوا
مِنْ عَقَالِ مَدِينَتِهِمْ لَكَانُوا أَحْرِيَاءَ أَنْ يَعْمُرُوا أَقْطَارَ أَسْوَاسِ

تعمل تلك المسارح والمساهر وما إليها في هذه المدينة عمل
النوافذ للحجر، والرئات للأجساد !

إنها مشوى راحة، ومثابة استجمام، لذلك الآدمي الذي
ينهمك في عمله رغبة في « الدولار »، كما كان ينهمك عمّال
السخررة في الزمن القديم رهبة من العقاب !

وبدیه أن تكون تلك المنتمسات موفورة الحظ من أسباب
الدعة والتسلية وإمتاع النفوس، وإلا انعكست الآية، فازداد
قصّادها رهقاً على رهق، وشقيقت أعصابهم بعذاب جديد !
وطوعاً لذلك الغرض المنشود، حرصت تلك الدُّور على
أن تقدّم لروادها من نِساج الفن ثمرات دانية المنال، أخاذة
المظهر، وشراباً قريب المثل، سائغ المذاق، وأن يكون فيه
من عناصر التفكّه والمرح ما يملأ النفوس من اغتباط،
وینسبها ما یثقلها من أعباء المعاش .

ومن ثمّ كان الرّوح الغالب فيما يُرضى بذلك الدُّور
هو روح التسلية المحضة .

على أنّ التسلية ألوان، وإنّ منها لما یصدِفُ عنه الرجل
المهذب الذي علّت ثقافته وصفا ذوقه، فلم تعد نفسه تهجج

بالرخص من التسلّيات ، ولذلك تعدّدت ألوانُ المسارحِ
والمراقصِ والمساهر ، لكي تُواقيَ مطالبَ الأذواقِ والأهواءِ .
وعلى الرغم من أن روحَ التسليةِ تَسْرى في هذا النتاجِ الفنيِّ ،
وتتبدلُ به أحياناً إلى دَرَكَاتِ النفاهةِ أو الانحرافِ ، فإنّ ذلك
النتاجُ بمجموعه في المستوى الذي يلائمُ بلداً متحضراً ، أهله
على حظٍّ ملحوظ من الثقافة وسلامة الذوق .

خرجتُ يوماً لأشهدَ حفلةً موسيقية في «استادיום كونسير»
أُستمعُ فيها إلى عازفٍ على «البيان» أحسّبه بولونيّ الجنس ، اسمه
«روبن اشتين» . وبينما كنا نجتازُ الطريقَ إلى المثابة المنشودة ،
اعترضتنا زحمة هائلة اضطرب لها نظام المرور ، وتناهى إلى أسماعنا
أن وقائع دموية تجري ، وأن رجال الشرطة يعالجونها اضطراباً للأمن .
وبعدَ حين استبانَت لنا جليّةُ الأمر ، فإذا بنا نعلمُ أن الزحمة
لم تكنْ إلا إقبالاً من الجمهورِ على شراءِ تذكّراتٍ لمشاهدةِ
«الملاكم» «لويس» يُنازل خصماً كبيرَ الخطر .

وكان الطريق على رحابته وامتداده يموجُ بتلك الجوع التي
تتناقلُ الحديثَ والنقاشَ ، بين متابعي الملاكم العالميِّ ، وبين
مُناصر لخصمه الذي تصدّى له .

فأذكرني ما أرى مجالس « شاعر الربابة » في العهود القريية
حين يتحلق الناس حوله ، يستمعون إلى ما يقصُّه من أساطير
« الزناتي خليفة » و « دياب بن غانم » وما كان بينهما من حرب
ورنصال ، فإذا المستمعون فريقان : مُشايح لهذا ومناصرٌ لذلك .
وربما أدَّى الخلاف إلى شجار بين الفريقين حامى الوطيس .
ما أشبه الآدمي بالآدمي ، مهما تختلف بهما ثقافةٌ والتحضر !
ليس من فارق بين المعركة القائمة حول مجال الملائكة ، وتلك
المعركة التي كانت تقوم حول « شاعر الربابة » ، إلا أن الجمهور
الأمريكي تدور معركته حول أبطال في عالم الحقائق ، والجمهور
الشرقي تدور معركته حول أبطال في ذهنة الأساطير وعالم الخيال !
ولقد انتقلتُ عدوى التحديث والمجادلة في شأن هذه
الملائكة ، إلى ساقية السيارات ، فاندمج سائق سيارتنا في غمار
المتحدثين والمجادلين : حتى خشينا أن تحدث مشاجرة نكون
من وقودها دون أن نجنى ذنباً !

لقد كانت السيارات وهي تجتاز الطريق ، كأنها مراكز إذاعة
متنقلة ، مراكز استقبال وإرسال في شأن هذه الملائكة الخطيرة !
وبعد لأي بلغنا « استاد يوم كونسير » في سلام ، ولم نكد نطأ

أرضه ، حتى ألفينا أنفسنا بين حشود من الناس يختلق بهم المكان
 إن « استاديوم كونسير » رجة فيساحة مكشوفة للهواء
 الطلق ، ملىء نصفها بكراسى مصفوفة ، وأقيم في نصفها الآخر
 مدرج عظيم . . إنها ساحة للألعاب الرياضية على طراز روماني
 يتخذونها أحياناً مثابة للفن ، ومسرحا للموسيقى .

كانت هذه الآلاف المؤلفة يوج بها المكان ويرتج ، فما
 إن جعلت الموسيقى تطلق أنغامها ، حتى عم السكون ، فاستحال
 المكان كعبة عبادة يخيم عليها الخشوع !

ولما تجلى العازف البولوني يصافح « البيان » بأنامله ،
 راحت هذه الجموع الحاشدة تهيم معه في آفاق رموحية رائعة .

وانتهى العزف ، فإذا الجمهور المتعبد الخاشع ينبعث مهتلا
 مرحاً ، يعلن حفاوته في حمية بين التصايح والتصفيق .

يمينا إن الفنان في رموحه الإنسانية السامية ليلقى من حفاوة
 الأمر يكيين وتكريمهم ما لا يقل شأناً عما يلقاه بطل الحرب
 وزعيم السياسة !

ولقد أثار انتباهي إقبال الجمهور الأمريكي بوجه عام على
 نوعين مختلفين متضاربين ، يستنفد فيهما وقت فراغه : أحدهما

مجالات الملاكمة والصراع ، والآخرة أنديّة الموسيقى والغناء !
 ظاهران قد تبدّوا على تناقض : نزعة إلى الوحشية ،
 تبسّيرها عاطفة رقة وحنان ...
 ليس ثمة من تناقض .

إنّ الطبيعة قوامها هذان العنصران من خير وشر ، من
 شدّة ولين ، وما زالت الإنسانية بخير إذا استوفت نصيبها من
 هذين العنصرين على درجةٍ سواء !
 فإن لم تتوافر السلامة والاتزان بينهما ، قطعاً أحدهما
 على الآخر ، صار الأمر إلى فساد .
 والدّول في ذلك كالأفراد ... بتكامل هذين العنصرين فيها
 تتصف بالاعتدال .

وليست فورات الشعوب في الغارات والحروب إلا اختلالاً
 في أنسجتها الحيويّة ، أفقدها ما بين العنصرين من توازن ووفاق ...
 إنها طغيان لعنصر على الآخر ، وما أقرب به شهاً بشوران بعض
 الأنسجة في الأبدان ، ذلك الثوران الذي يحدث أوراماً سرطانية
 تورّد صاحبها موارد الخوف !

المسرحُ في «نيويورك» على تباينِ أنواعه ، لا يختلف كبيرَ اختلافٍ عن أمثاله في أمهات المدائن المتحضرة . فما يُعرَضُ فيها على مسرح «متروبوليتان أوبرا» تصادفُ مثله في «أوبرا باريس» و «كوفنت جاردن» في «لندن» . وما يُعرَضُ في مَسْهَرِ «كوبا كابانا» لا يزيدُ على ما يعرض في مسهر «الليدو» في «باريس» . . . وقد تجدُ الروايةَ الفنيةَ تمثل أعواماً تباعاً على أحدِ مسارح «نيويورك» ، فتذكر أن ذلك يجري أيضاً على هذا النحو في مسارح «لندن» . . . وإذا ذكرت المسرحَ الثلجيَّ المسمَّى «أيس شو» في «نيويورك» طالعك على الفور قصر الجليدِ في «باريس» المسمَّى «باليه دو جلاس» . فإن أبيتَ إلا أن تلتمسَ بينها بعضَ الفروق ، لم تجد إلا تلكَ الفروقَ المظهريةَ بين بلدٍ وبلد ، من حيث الطابعُ المحليُّ والذوقُ الشخصيُّ !

ولكن ثمةَ في الفنِّ الأمريكيِّ ظاهرةٌ خليقة بالذكر ، وإنني

لأحسب أن « أمريكا » قد تفرّدت بها ، أو لعلها سبقَتْ
غيرها إلى تجويدها ..

هذه الظاهرة وليدة فكرة يسمونها « تيسير الفن للجميع »
وغرضها تحبيب الفن الرفيع إلى الجمهور الكبير ، بعرض
نماذج شائعة منه يستسيغها مستوى الذوق العام .

وقد تكفّل مسرح « رديوسى هول » بتحقيق هذه
الفكرة .. وهو فى الحق مَفْخَرَةُ البناء المسرحى ، وآيَةُ إعجاز
بين دور التمثيل !

إنه ليرحّبُ بستةِ آلافٍ ومائتين من النَّظَّارَةِ ، على مقاعد
فسيحةٍ وثيرةٍ ، لا تقلّ فخامةً ولا رَوْعةً عن المقاعد فى أمّياتِ
دور « الأوبرا » فى العالم المتحضر .

فأما الأجرُ الذى يؤديه المتفرجُ ، فهو زهيدٌ تافهٌُ بالنسبة
للأجور الغالية فى الدور الرفيعة للتمثيل .

والبرنامجُ فى هذا المسرح يبدأ منذ الصباح ، ولا ينتهى
إلا بُعَيْدَ منتصف الليل ، فهو فى تكرارٍ خلال هذه الساعات
الطوال . وإنه لبرنامجٌ طريفٌ نستطيع أن نعدّه وافياً بالغرض
من تسليّةِ الذهنِ وتغذيته .. إنه يماثلُ وجبةً من الطعام

خفيفة الهضم ، مستوًة لعناصر الغذاء الصالح . ولو أُلقيت
نظرة على أى برنامج من برامج هذا المسرح لوضحت لك تلك
الفكرة فى غير عناء .

البرنامج عدة فصول : عرض رواية سيمائية من المشهورات ،
حفلة موسيقية قوامها ستون عازفاً يؤدون قطعة عالمية متعارفة ،
فغناء تقوم به جوقة يرأسها مطربات ومطربون ممن لهم مكانة
ملحوظة وصيت بعيد ، فعرض موسيقى غنائى راقص قوامه
أسراب من الفتيات يؤدين رقصات شعبية وأخرى فنية ، فى
مشاهد جميلة رائقة ، تتميز بالطرافة فى الإضاءة والإخراج .

أو لست ترى من تضاعف هذا البرنامج أن الهدف الأول
هو تقديم نماذج طيبة لا تنزل إلى مستوى التهريج الرخيص ،
ولا تسمو إلى الفن الذى قد يستعصى على سواد الناس ؟

قيل إن « الأوبرا » محاولة لجمع فروع الفن فى إطار
واحد : التمثيل والغناء والموسيقى والتصوير والبيان نثره
وشعره . وإنى لأرى أن « رديوسى هول » هو محاولة
أخرى — وإن تكن فى حداثة عهدِها — لجمع مناحى الفن
الحديث فى دائرة واحدة ، وقد تنمو هذه الفكرة على الأيام

وتتطور، حتى تلهم شتات الفن على نحو جميل .
وعلى أية حال فإن هذا المسرح يطمح إلى أن يجعل الفن
ديمقراطياً ، وأن يخلع عنه رداء الأرستقراطية التقليدية التي
طال عليها الزمن .

ولكن هل يمكن حقاً أن تطوى الديمقراطية تحت
جناحها روح الفن الرفيع ؟

إن هذا الفن الرفيع في معناه الأصيل أرستقراطي في كل
ناحية من نواحيه ، فهو سمو في التفكير ، وعلو في الذوق .
إنه أرستقراطية الذهن يتفكّ عن عبقرية ونبوغ .

ولا نزاع على أن العباقرة في كل أمة وفي كل عصر نفر
قليلون ، وأن ولائد قرأهم ستظل بمعزل عن المستوى الشعبي
الذي ينتظم أفهام السواد .

ولاذن فبؤن شاسع بين أرستقراطية الحياة التي هي في
متناول النغير والتبديل ، لقيامها على أسس من الماديات ،
وبين أرستقراطية الفن التي هي عصية متمنعة ، لقيامها على
أسس من مواهب خفية ليس إلى احتلالها من سبيل !

وثمة ظاهرة أخرى في الفن هنالك ، لا يحتاج التدليل عليها

Democracy
+ art

إلى بيان ، تلك هي عظمة « الفلم » الأمريكي ، وتفرّده بالغلبة ،
وسموه إلى القِمة .

وجليُّ أن هذا « الفلم » يكادُ يستوعب مظاهر النشاطِ
الفنّيِّ جميعاً ، فيه تتلاقى الجهودُ الفنية المختلفة الألوان ، وإليه
تجنّد المواهب والعبقريّات في شتى مناحيها . . .

ولا مِرْية أن ملابساتٍ دوليّة في الحرب العالميّة الأولى
أتاحت « لأمريكا » فرصة التجويد في هذا الفن ، وتزويد
الأسواق به ، على حين أن الأمم الأخرى كانت في شغل
بأثقال الكفاح ، فتخلّفت في هذا المضمار . . .

على أنه لو لم يكن الزاد الأمريكي الفنّيُّ ثمين الجوهر ، لما أعانته
تلك الملابساتُ الدوليّة على التغلب والظفر .

ولو ذهبنا نتقصّى العوامل التي أبرزت « الفلم » الأمريكي ،
وجمعت حوله الأهواء ، وجعلته فنّاً عالمياً تنفسح له جوانب
الأسواق ، لألفينا العواملَ يتقدّمها عاملُ الإخراج وما يكتنفه
من معيّداتٍ .

إن المخرجَ في « الفلم » الأمريكي هو رُوحه وقوامه ،
وإن هذا المخرجَ قد تفتنَّ إلى لب الحياة ، وزاول من تجارب

صناعته وتفهم جمهوره ما بصّره بوسائل النجاح . فهو إذا
عرّض عليك إنتاجه ، حاول أن يضع اتجاه نظرك قطعة حية
من دُنْيَاكَ التي تعيش فيها ، لا تزيين ولا تزييف . فسرعان
ما تستجيب نفسك لما تشهد ، وسرعان ما تتم بينك وبينه
الألفة ، وتجسُّ بأنك تعيش من ترى من الناس ، وتزاول
ما يدور من المشاهد والأحداث .

لقد توأرى في « الفلم » الأمريكي ما كنا نشهده قبلا من مبالغة
في الأداء ، وتلفيق في الصور ، وتزوير على ما تراه العيون ،
وتستشعره النفوس ، في دنيا الناس ...

لقد أصبح فنّ « الفلم » الأمريكي هو فن الحياة !

إلى «واشنجتون» .

على ذلك استقر عزمنا بعد طول تردد وجدال .
دخلنا محطة «بنسلفانيا» العظيمة ، فكأنما تلقينا مناهة
تترامى أرجاؤها ، أو كأنما تلقفنا « برج بابل » يختلط فيه
الحابل بالنابل .

محطة «بنسلفانيا» بناء متراكب الطابق ، ذوابها رحاب
تشرمد في أنحائها العيون ، وعلى الرغم من ذلك تغص بالأفواج
من طلاب السفر . . .

هريج ومرج ، ولكنه منظم منسق يجرى على نمط مضبوط
ثمّة أرقام ترشدك إلى مآربك ، ومضخّمات صوت
تهديك السبيل . . .

لزام عليك أن تكون عيناً يقظى ، وأذناً واعية ، وأن
تحك الخطأ تلو الخطأ ، تجرّز بظلال ومواطن : مقاصف
ومتاجر ، لا تحصى لها عدداً ، ولا تدرك لها منتهى . . .

وبعد لاى تجد نفسك أمامَ سلامٍ متحركة ، صاعدة
بالمسافرين هابطة ، فتحسب أنك فى إحدى دورِ اللهو
تسلى باللعب ...

وترى الزنجى حمالِ الحقائب قد سبقك يخط لك
الطريق ، كأنه يشجّعك على أن تمارس لعبة السلام
المتحركة !

ثم إذا بك على الطوار ، تجاه القطار .
إنه رابض فى مشواه تحت الأرض ، وإنهم ليصفونه بأنه
قطار ديموقراطى لا فصل فيه لدرجة عن درجة ، فالناس فيه
سواء لا سيد ولا مسود ...

مركبات متائلة فى النظافة والأناقة ، وأسباب الراحة .
ولكن ثمة مركبات كأنما تحاول أن تتوارى عن الأعين ،
هى مركبات « البولمان » الفاخرة . . . تمتاز مقاعدُها الوفيرة
الدائرة بأنها طيبة لك ، تميل فإذا هى مضطجعة ، أو تنبسط
فإذا هى مخدعة ...

وإنك لتراها وقد استأثرت بها ذلك الضرب المتميز من
الجنس الأمريكى ، تلك الكتل الضخام المشوبة « بالدولارات »

هؤلاء السراة الذين يمثلون أرستقراطية المال والأعمال ،
 في معقل الديمقراطية والمساواة !
 وليس بمُعْجَزٍ لك أن تتبينَ هذا الضربَ من الناس ،
 وأن تفرِّزه من بين سائرِ الضروب في أى المواطن شئت من
 أنحاء هذا العالم الأمريكى العريض ...

ولكنه في مركبة « البولمان » واضحُ التمييز :
 وجهُ أمرْدٍ يكسوه احتقانٌ ، ورقبةٌ غليظةٌ صُلْبةٌ ، ولفافة
 ضخمة سوداءُ تتنقَّل بين الشدقين ، ومحفظةٌ في اليد تتجمَّعُ فيها
 الإضماراتُ والقوائمُ وأوراق الحساب ، وضيعةٌ متراخية ،
 وكأس من شراب مثلوج !

إن « البولمان » مظهرٌ جليٌّ للأرستقراطية الأمريكية ،
 في حين أن المركبات الأخرى « الكوتش » تمثلُ الديمقراطية ،
 السافرة : حشدٌ متكدس ، صُخْبٌ ولُجْبٌ ، باعةٌ من الزنج
 يحملون مختلفَ الأطعمة والأشربة ، يهتفون بها في تحفُّظٍ ،
 وهم يعبرون الممراتِ عبور السيادة والترفع ، كأنما ينتظرون
 أن تستعطفهم إذ تشتري مما يحملون !

أين من هؤلاء الزنج الشاخين باعُتْنَا المتواضعون الذين

يمرون بالسَّمدِ وابيض والجبن في قطارات « مصر » وهم
يمرضون سلعهم في رجاء وإخافٍ ١٩

انطلق القطار متغلغلاً في مسارب الأرض وقباً ثم إذا به
يجرى على ظهرها متنفساً الصُّعداء ، في عالم الضوء والهواء ...
فيمر بالمروج النواضر ، والغابات الشواسع ، والصفحات
المتألقة من الماء !

إنها النزهة رائعة حقاً ، هذه التي يُتيحها لنا القطارُ أربع
ساعات بين « نيويورك » و « واشنطن » ... وفي هذه النزهة
تتجلى الطبيعة عروساً بمفاصلها تجذب العين وتختلب الفؤاد .
تركنا القطار في « محطة الاتحاد » : مبنى ضخم تعلوه قبة
بعيدة الأطراف ؛ تشعرُك بما لها من عظمة وخيلاء ...

وطرقنا باب العاصمة ، قاصدين الفندق في أقصاها .

يا لله لتلك الحضرة النظرة الريانة !

حيثما تتلفت يقع بصرك على أشجارٍ حالية بشتى الرياحين .

إن « واشنطن » بستانٌ يتجدد أمام ناظريك مختلفاً ألوانه ،

قارة أنت بين خمائل بديعة التنسيق ، وارفة الظل . وطوراً

تجتاز غابات متعاقبة الشجر ، تسلك فيها السجادة للوهاد . وحيناً

أنتَ عابرٌ جسوراً جميلةً تترأى تحسّتها الجداول والأنهر ضاحكةً
الموج بهيجة الرّواء . وتلك المَغْصَانِ منشورة هنا وهناك ،
ترعاها شمسٌ « يوليه » الساطعة ، ويُروّحُها نسيمُ الصَّيفِ
الوَادِعُ الرفيق

وهذا الهدوءُ الشائع ..

لا تدافعُ بالمناكب ، ولا تراحمُ على الطريق ، ولا قوالب
مكدّسة تُرْهِقُ أعصابك بحمودها ، كتلك التي ضغننا بها ذرعاً
في « نيويورك » مدينة القوالبِ من بشرٍ وحجرٍ !
ما أقربَ مدينته « نيويورك » شبهاً بغانية القرن العشرين ،
في رُوحها المتمرّدة ، ونظّرتها المنهلّبة ، وحركتها المتوثبة ،
ولبّوسها السادرِ الجري ..

فأما مدينة « واشنطن » في هذا الشهر الصائف ، وهي تختالُ
في غلالة من ضوء الشرق ودفئه ، فما أقربها شبهاً بغانية الشرق
« شهر زاد » : مشيةً متخطّرة ، وفِتنة متراخيةً ، ودلال مستنيم ،
ونظراتٌ وانية تترأى فيها أطيافُ الأحلام !
أيامٌ معدودات ، قضيناها في تلك المدينة ، مرّت كما يمرُّ
الحلم الوردِيّ السعيد ..

لا تُباهى « واشنجتون » بالأرقام ، فسكانها يُعدُّون
بمئات الألوف لا بالملايين ، ومساكنها تُعدُّ الطبقات فيها
بالآحاد لا بالعشرات ... ولكنها تباهى بما هو أجلُّ وأروعُ ،
هو تلك الحضرةُ الناضرة ، فهى خليفةٌ أن تلقَّبَ
بالعاصمة الحضراء !

شدَّ ما يروغى أن أعلم أن « واشنجتون » عاصمةُ
الدولة ! ...

فهى مركزُ دُورِ الحكومة ، ومقر السفارات ، وملتقى
المصارف ، وتجمُّع الكثير من الإدارات والأعمال ...
ما كان أجدر أن تخلُصَ هذه المدينةُ من تلك المعالم التى
تمثلُ الآليةَ والماديَّةَ ومظاهرَ الحياة الواقعة ... فما خلقتُ
المدينةَ لشيءٍ من هذا كله ، وإنما خلقتُ فردوساً تحوِّمُ
فيه الأطيافُ اللطافُ ، والأرواحُ الصافية ...
يأبى القومُ إلا أن يريدوك أيتها المدينةُ الحاملةُ على أن
تكونى مركزاً للدولة ..

لقد أقاموا فيك مبنى « الكابيتول » : دارِ البرلمان ؛ بقبتها
المتنفخة ، وأعمدتها المتشاحخة ، ودراجها الذى تكاثرت

وتعالى حتى لكأنه صراطٌ أعدّ لمن يلجُ أبوابَ الدار ،
امتحاناً لقدرته على الكفاح .

ولقد حشدوا في أرجائك تلك الأنصابَ التذكارية
والمؤسساتِ الحكوميةَ مختلفة الطراز ، متباينة الأشكال : هذا
يستعيرُ شكلَ المسلةِ المصرية ، وذلك ينتحلُ الطابعَ الرومانى ،
وتلك من وحي الفن الحديث .

إنك لتجوسُ خلالَ ما شُيِّدَ من هذه الأنصاب ، فيدولك
« لنكولن » على مقعده ، تكسوه مهابةُ الزعيم ، وتفكيرُ
الحكيم ، وروعةُ القدّيس . ويطلُ العُك «توماس جيفرسون»
مبسوطَ القامة في معطفِه انسابع ، تنجلسى فيه ملاحُ الحزْمِ
والإرادة التى كان بها ساعداً « واشنجتون » الأشدّ ، ودعماً
قويّاً فى صرح الوطن الأمريكى .

إنها لأنصابٌ رائعة أقامها الأمريكى الحديثُ العهد ، مدفوعاً
إلى ذلك بباعثِ نفسى دفين . . .

إنه ليُسلحُ فى اتخاذِ الوسائل التى تجعلُ من قومه أمةً وراها
ماضٍ يحفلُ بالأحساب ، وتاريخٌ يزخرُ بالإنجاد !

ولكنّ هذه الأنصابَ جميعاً تحملُ طابعَ الجِدّةِ ، لم يكذُ

القانون ينفذون أيديهم منها، فليست روعتها في جلال العنق
والقدم، ولكن روعتها الحققة فيما توحى به من المعاني الكريمة
والمثل العالية.. بيد أنه لا بد من أحقاب وأحقاب. حتى
يكسو هذه الأنصاب وقار الزمن ونجلها مهابة التاريخ!

إن المسحة الغالبة على المؤسسات الحكومية في هذه المدينة
هي مسحة العظمة والفتخامة. إلا مبنى واحداً، لا أدري كيف
تفلتت من هذه المسحة، ذلك هو « البيت الأبيض »!

بالغ هو في سذاجته. حتى لنكاد نخطئه العين حين تجتاز به:
دار متواضعة ذات طبقين، لا ميزة لها إلا في بياضها
الناصع، وحديثها الفياحة.

لقد بنيت تلك الدار على هذا النحو مقر الرئيس الجمهورية،
وأقيم تجاهها مبنى « الكابول » العظيم، ووصل بينهما طريق
ممدود فسيح...

ولكأنى بالأمريكي حين صنع ذلك إنما أراد أن يرمز إلى
أصول الحكم في تلك الجمهورية، فجعل من الطريق بين المبتنيين
تعاوناً وصلة، وكأنهما في تقابلهما يستمد كلاهما من الآخر قوة
على الاضطلاع بالإمرة، وهيمنة على صوالح البلاد.

ما كان لنا ونحن في « واشنجتون » ألاّ نزورَ بيتَ الرئيس
الأول ، منشئ الوطن ، نحجُّ إلى مشواه ، ونزورُ ضريحه
العامرَ بالقُصَّاد .

ما أجمَلَهَا نزهةٌ تلك التي يستمتعُ بها السائرُ إلى بيت
« واشنجتون » في مزرعته الأصيلّة في « مونت فرنون » .

طريقان هنالِكَ للذهابِ إلى ذلك البيت . طريقٌ ريفيٌّ
جميلٌ يترأى على بُعدٍ امتداده وافر الحُضرةِ وارف الظلال ،
وآخرُ نهرىٍّ تَمُخِرُ فيه باخرةٌ بجذاءٍ شواطئ ترفلُ في وشيٍّ من
نسج الطبيعة بهيجٍ .

ومنى بلغت البيت رأيت نفسك قد رجعتَ إلى حِقْبَةِ من
التاريخ ، هي الحِقْبَةُ التي عاش فيها « واشنجتون » ، فإن القوم
احتفظوا في تلك الرقعة من الأرضِ بشتى مظاهر الحياة في ذلك
العهد الغابر ، وأنتَ تنسَمُّ من كل شيءٍ يُحيط بك عصرَ
الاستقلال ، وبدء تكوين الجمهورية . . .

وبتُ ريفيٌّ ، ناصعُ البياض ، ظاهر السداجة ، ذو طبقتين ،
يشرف على النهر في شكل يأخذُ بمجامع القلوب .
وإن هذا البيت على تواضعه ليروعُكَ بذكرِ ياته وطرَفه

التاريخية الماجدة الخالدة...

وَحَسْبُكَ وَأَنْتَ تَنْتَقِلُ بَيْنَ حُجَرِهِ وَأَنْحَائِهِ أَنَّ هَذَا الرُّكْنَ
كَانَ يَجْلِسُ فِيهِ « وَاشْنَجَتُونَ » فِي لُحْمَةٍ مِنْ أَعْوَانِهِ ، يُبْرِمُونَ
الرَّأْيَ وَيُجْمِعُونَ الْأَمْرَ ، وَأَنَّهُ فِي هَذِهِ الزَّوَايَةِ كَانَ يَخْلُو لِيَقْرَرِ
مَصَائِرَ الْبِلَادِ ، وَأَنَّهُ فِي تِلْكَ الْحَجَرَةِ كَانَ يَتَخَذُ مَخْذَعَهُ لِيَدْعَ
لِأَحْلَامِهِ أَنْ تَوَاتِيَهُ بِأَطْيَافِ الْأَمَانِ الْحَسَنِ ... !

فَإِذَا بِكَ قَدْ اسْتَشْعَرْتَ رُوحَ ذَلِكَ الرَّجُلِ الْعَظِيمِ تَطْيِيفُكَ ،
وَأَنْفَاسَهُ تَسْبِيحُكَ مِنْ حَوْلِكَ ...

وَاسْتَرْعَى نَظْرِي بَيْنَ مَخْلَفَاتِ ذَلِكَ الْبَيْتِ مِفْتَاحَ طَرِيفٍ ...
كَانَ هَذَا الْمِفْتَاحُ لِسُجْنِ « الْبَاسْتِيلِ » ، فَلَمَّا ذَهَبَتْ الثُّورَةُ
الْفَرَنْسِيَّةُ بِذَلِكَ السُّجْنِ ، أَهْدَى مِفْتَاحَهُ إِلَى « وَاشْنَجَتِينَ » ...

رَأَى الْفَرَنْسِيُّونَ فِي ذَلِكَ الرَّجُلِ الْعَظِيمِ رَمْزًا لِكُسْرِ قِيودِ
الْإِسْتِعْبَادِ ، وَرَفَعَ لَوَاءَ الْحَرِيَّةِ ، فَلَمْ يَجِدُوا لَتَحِيَّتِهِ أَثْمَنَ مِنْ
مِفْتَاحِ « الْبَاسْتِيلِ » يُهْدُونَهُ إِلَيْهِ ، فَإِنْ ذَلِكَ الْمِفْتَاحُ لَيْسَ
إِلَّا رَمْزًا لِقَيْدٍ مِنْ قِيودِ الْإِسْتِعْبَادِ كَسِيرٍ ، وَعَلِمَ مِنْ أَعْلَامِ
الْحَرِيَّةِ رُفْعَهُ !

زَايِلُنَا الْبَيْتَ ، نَخْطُو عَلَى بَسَاطَةٍ مِنْ زَمْرِدٍ ، جَلَّاتِهِ الطَّبِيعَةُ

مُتَرَامِيَ الْأَطْرَافِ عَلَى أَدِيمِ الْأَرْضِ، حَتَّى أَدَّى بِنَا إِلَى الْمَقْبَرَةِ
لَا صَرْحَ وَلَا قَبَّةَ، لَا زِينَةَ وَلَا زُخْرَفَ، وَلَكِنَّهُ مَبْنَى
صَغِيرٌ ذُو بَابٍ حَدِيدِيٍّ يَتَرَامَى خَلْفَهُ تَابُوتَانِ مِنَ الرُّخَامِ
الْأَبْيَضِ، هُمَا «لَوْ أَشْنَجْتُونِ» وَزَوْجُهُ ...

مَكَانٌ ظَلِيلٌ تَغْشَاهُ رَهْبَةٌ وَصَمْتُ، إِذَا دَنَا مِنْهُ الرُّوَادُ
خَفَّفُوا الْوَطْءَ، وَخَفَّفُوا الصَّوْتَ، وَحَنَوْا الْهَامَ !
إِنَّهُمْ لَيَقِفُونَ لِحِظَاتِ خُشْعٍ حَيَّالٍ ذَلِكَ الْجَدَثُ الَّذِي
حَوَى أَمْنِ حَقِيقَةٍ فِي حَيَاةِ الْوَطَنِ الْأَمْرِيكِ، وَأُرُوعَ مَعْنَى
مِنْ مَعَانِي الْمَثَلِ الْعَالِيَةِ .

هَاهُوَ ذَا مَعْبَدَةِ إِنْسَانِيٍّ تُقَدَّسُ فِيهِ رَمُوزٌ وَأَهْدَافٌ، وَإِنَّ
هَذَا الْمَعْبَدَ لَتَتَوَافَدُ عَلَيْهِ أَفْوَاجٌ وَأَفْوَاجٌ تُحْسِي ذِكْرِي رَجُلٍ
مَا كَادَ يَفْرُغُ مِنْ أَدَاءِ وَاجِبِهِ، وَبُلُوغِ أَمْنِيَّتِهِ فِي تَحْرِيرِ وَطَنِهِ،
وَتَوْطِيدِ أَرْكَانِ الْحُكْمِ الْجَدِيدِ، حَتَّى آثَرَ الْعُزْلَةَ فِي مَسْكَنِهِ
الْمَتَوَاضِعِ وَسَطَ مَزْرَعَتِهِ الْقَدِيمَةِ، يَحْيَا كَمَا يَحْيَا الْفَرْدُ مِنْ عَامَةِ
النَّاسِ، فَأَبَى أَنْ يَسْتَمَعَ بِأَبْهَةِ السُّلْطَانِ وَسَطُورَةِ الْحُكْمِ، هَرَبًا
مِنْ عَظْمَةِ تَحِيْطٍ بِهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ !

عَلَى أَنْ الْعَظْمَةُ ظَلَّتْ تَلَا حِقْقَهُ وَتَحَاصَرُهُ، حَتَّى اتَّخَذَتْ مِنْ

اسمه عنوان الدولة ، وجعلت من قبره مزاراً تقديساً !
إن الإنسان في كل زمان ومكان يلتمس نوراً يضيء له
ليل الحياة الطامس ، وأملأً يعينه على وعورة الطريق ومشقة
الجهاد ، فلا يكاد يلبس زعامة تتألق ، حتى يتهافت عليها ،
ويهتمف بها ، ويرفعها منار هداية وكعبة آمال . إليها يقصد ،
وفي ضوءها يتابع السرى !

ما أخرج الإنسان دائماً إلى مثل تلك الكعبة وذلك النور .
إنه حين يعوزه أن يعثر عليهما بين الناس ، ينساق بباعث
من عجزه وتخذه ، متخذاً من الجهاد أو الحيوان رموزاً يتوسم
فيها العون والرعاية ، ويتلبس منها سلسيل الطمأنينة واليقين !
أتاحت لنا « واشنجتن » لقاء أصدقاء وأحباب من بنى
الوطن . ولا غرو أن تكون السفارة المصرية هناك ملتقى
أولئك الأصدقاء والأحباب !

ما أجلّ مقام السفارات الأجنبية في العاصمة الخضراء !
إنها انحطى بأكبر نصيب من الرعاية والإعزاز ، وإنها
لنحتلّ حياً خاصاً بها تنجمع فيه كأنها تنشد من تلاقيها تبادل
المؤازرة والعون .

وإنك حين تجوزُ بحى السفارات تُمَرُّ بدورها واحدةً بعدَ
الأخرى، لتَحْسَبُ نَفْسَكَ سَاحِجاً تجوب الأقطارَ والممالك
مجتازاً حُدودَهَا فى لحظات !

فى تلك الرقعة التى هى رَوْحٌ ورِيحانٌ ، وظلالٌ وأفنانٌ ،
يقومُ مَبْنَى السَّفَارَةِ المِصْرِيَّةِ رَشِيْقاً ذا طَبَقَتَيْنِ ، عليه رونقُ الجِدَّةِ .
هو مَعْنَى أَمْرِيكِيَّ الطرازِ نظاماً وتنسيقاً فى سِداجَةٍ ، ولكنه
على الرغم من ذلك قطعةٌ من « مصر » .. « مصر » المتأمركة !
إنَّ الرُّوحَ الأَمْرِيكِيَّةَ تطوى تحت جناحها بُزْلاءَ العالمِ
الجديد من بنى الوطنِ . . . فالحياةُ هنالك تضطربُ المِصْرِيَّةَ إلى
أن يُسَايِرَهَا ، ويُذعن لمظاهرها ، وإلا شَعَرَ بوِطْأَةِ الوحشةِ
وقسوةِ الإِغْتِرَابِ !

اشتدَّت فى «أمريكا» أزيمة الخدم ، فلم تجدْ الأسرةُ المِصْرِيَّةُ
هنالك بُدّاً من أن تضطلِحَ بِمِرافِقِ المنزل ، فألفيننا المرأةُ
المِصْرِيَّةَ قد نشِطَتْ من عِقالها ، وغدَّتْ أَمْرِيكِيَّةً تتولى شُؤْنَ
الأسرةِ داخِلَ البيتِ وخارجهُ . فهى فى المطبخ طاهيةٌ ، وفى
السوقِ شاريّةٌ ، ولأولادِها حاضنةٌ ومربّيةٌ ، وهى فى السيارة
سوَّاقَةٌ ماهرةٌ وهى فيما يبقَى من وقتِ فراغِها متنقلةٌ بين المجالسِ

والنوادى ، تقومُ بقسطها من المشاركة فى المجتمع الأنيق !
لقد خلعتُ المصريةُ عن كنفِها فى بلادِ « العمَّ سام »
مطارفِ التدلُّلِ والرخاوة ، واقتحمتْ ميدانَ العملِ تُناضلُ
فى معركةٍ وقودُها الأعصابُ !

خرجت « شهر زاد » من خدرِها المعطر ، خدرِ الأخيلة
والأحلام ، ورمّت بجسمِها فى لُجةِ الحقيقة والواقع .

على أن المصرىِّ فى « أمريكا » سريعُ الاندماجِ والتأقلمِ ،
يُعينُهُ على ذلك خُلُقُهُ الطيِّعُ ، وشمائله المرنة ...

وإنه لمن الطريفِ حقًّا أن طاهياً مصريًّا لعظيم مصرىِّ

يتقاضى اليومَ هنالك ثلاثين جنيتها فى الشهر ، وقد اتخذ لنفسه
سيارةً خاصة يتولى قيادتها ...

فإذا دخل المطهى لم يلبث أن يستحضرَ مصريَّته ،

ويُعيدُ صحاف « الشراكسية » و « بلع الشام » لتزيين ما يُقيمه

ذلك العظيم لضيوفه الأجانب من المآذب

عُدنا إلى « نيويورك » نذكرُ مالفينا من حماوة أباء الوطن

فى تلك المدينة الخضراء التى أنستنا أنساى بلاد المادّة

الجافّة ، والآلة الصّماء !

آن أن نفكّر في الرحيل .

فلما مضينا نلتئمِس وسيلة الانتقال إلى «أوربا» علمنا أن
الأمّاكن في البواخر وفي الطائرات محجوزة كلها إلى ثلاثة أشهر
لا مَنّاص لنا إذن من البقاء ثلاثة أشهرٍ آخر في بلاد «العمّ سام»
ثلاثة أشهرٍ نقضيها ، لا مهمّة لنا ولا عمل إلا محض
الانتظار .

ذلك حُكمٌ قضت به علينا شركات البواخر والطوائر .

ولكن أليس لهذا الحكم من استئناف ؟

علّمنا المدرسة ، ونحن نتلقى علّم الهندسة ، أن أقرب بُعدٍ
بين نقطتين هو الخط المستقيم ، وها نحن أولاء نريد تطبيق تلك
البدية الهندسية فيما نريد من الانتقال ، فتتخذ الطريق المستقيم
الرسمي في طلب التذكّرات . . . فإذا أقرب مسافة بيننا وبين
ما نريد هو ثلاثة أشهرٍ طوالٍ عراض !

وهالنا ما زقنا الحرج ، فخرجنا على تلك البدية الهندسية

نطلب ملتويات الطريق ، لعلها أقرب بعداً ، وأيسر جهداً .
دخلنا سوق الشفاعات والوساطات ، فخرجنا بصفقة
الراج . وتوارت عن أذهاننا تلك البديهة الهندسية ، كأنما
قلود بالفرار من خجل وخزي !

إني لأخشى أن تذهب دنيا اليوم بما قد سنناه من حقائق ،
وما هفونا إليه من أمثلة الأخلاق !

إننا على وشك السفر خلال أيام معدودات ، فلنكن على
أهبة ، حتى يبلغنا الموعد القريب .

وبعد أيام تلقينا نبأ من الشفيح الأعظم بأن الطائرة ستقلنا
بعد أيام ثلاثة ... فأمضينا هذه الأيام نطوف في نيويورك ،
طوفات عابرة ، هي تحيات وداع :

وداع للطاعم ، للتمنيزات ، للهلاهي ، للطبيب : نتزود منه بتلك

الابتسامة الخاطفة التي كانت كل ما في جعبته حين قدمنا عليه

من تحية واحتفاء ، وهي اليوم كل ما في جعبته من نصيح وإرشاد !

وأخيراً ، وداع لذلك الصديق الكريم ، « الشارع الخامس » ،

الذي صحبناهُ أربعة أشهر ، لم نلق منه إلا صدراً رحباً ،

ومعينا عذراً ، يفيض بالمباهج والمسرات .

4 months

في صباح يوم السفر أَطْلَمْتُ من نافذة حجرتي ، تطلع
إلى منظر أَلِفَتْهُ حتى مَلَأَتْهُ ... أبنية سوامق ، وطريق صادر
ورد ، ومُنَزَّة في أَقْصَاهُ صغير .

وقفتُ أرنو إلى ذلك المنظر المألوف لى ، فإذا به في هذه
اللحظة يسرعُ عنه تفاهته وابْتَدَأَ .

إنه لَيَسْهُولِي كأنما يتجلى لناظرى أول مرة .

مفاتنُ جديدة ، تتوضَّحُ لى ، لم أعهدْها من قبل .

لكأنَّ الشارعَ كان يسترُ عني جوانبَ منه ضنَّ بها على
ولكأنَّه كان يدَّخرُها لهذا اليوم ، بل لهذه اللحظات ، حتى
أفارقَه بشوقٍ جديد ، وسُخْفٍ مَزِيد .

أربعة أشهرٍ ترادفتُ وعيني تتردَّدُ في هذا المنظر ، دون
أنَّ آبه له ..

واليوم ، وأنا على وَشْكٍ فراقه ، أراي مُتَشَبِّهاً به ، رانياً
إليه ، أتملِّ محاسنه ومفاتنه ، كأني أريدُ أن يَحْتَوِيَهُ صدرى ،
لا يفلتُ منه شَيْءٌ ...

يا لقلبِ الإنسان !

إنه يظل غافلاً عن قيمةِ الشيء ، لا يفتنُ إليها

إِلَّا حِينَ يَتْرُكُهَا أَوْ تَتْرَكَه .

إِنَّهُ لَا يَكْتَشِفُ الْكَنْزَ إِلَّا حِينَ يُضِيعُهُ .

أَنْتَ إِذَا مَلَكَتْ شَيْئًا ، أَهْمَلْتَهُ ، فَكَأَنَّكَ تَقُولُ : فِيمَ الْإِهْتِمَامُ
وَالْتَعْجِيلُ ، وَهُوَ طَوْعٌ يُمْنِي ، وَبَيْنَ يَدَيَّ مِنْ وَقْتِ فُسْحَةٍ لِلتَّمَتُّعِ
بِهِ ، فَتَنْطَوِي الْأَيَّامُ بَعْدَ الْأَيَّامِ ، وَأَنْتَ عَنْ شَيْئِكَ غَافِلٌ ، حَتَّى إِذَا
أَحْسَسْتَ أَنَّكَ مُوشِكٌ أَنْ تَفْقِدَهُ ، تَوَاسَّيْتَ قُيُوءًا مِنْ تَلْقَاءِ
نَفْسِهَا تَتَشَبَّثُ بِهِ ، وَقَدْ احْتَدَّ شَخَفُهَا ، وَاشْتَدَّ كَلْفُهَا . وَتَسْتَبِينُ
لِعَيْنَيْكَ مَزَايَا يُدْهِشُكَ أَنَّكَ لَمْ تَحْسِنِ الْإِتِّفَاعَ بِهَا قَبْلُ .

وَأَقْوَى مَا تَكُونُ هَذِهِ الْمَزَايَا تَوَضُّحًا لِنَظَرِكَ ، حِينَ
لَا يَسْتَطِيعُ الْوَقْتُ أَنْ يَسْعِفَكَ بِفِتْرَةِ اسْتِمَاعٍ وَإِتِّفَاعٍ . فَلَا
تَمْلِكُ إِلَّا أَنْ تَدْعَ ذَلِكَ الشَّيْءَ وَقَدْ أَتْبَعْتَهُ مِنْ كَرَارَةِ نَفْسِكَ
حَسْرَاتٍ تَلَوَّ حَسْرَاتٍ !

ظَلَّتْ هَذِهِ الْخَوَاطِرُ تَعْتَابُجُ فِي رَأْسِي ، فَكَبُرَ عَلَيَّ نَفْسِي
أَنْ يَكُونَ بِهَا كُلُّ هَذَا التَّشَوُّقِ وَالتَّعَاقُ بِذَلِكَ الْمَنْظَرِ ، فَرَحْتُ
أَسْأَلُ الْقَلْبَ :

تَرَى مَاذَا يَكُونُ مِنِّي إِنْ تَلَقَّيْتَ الْآنَ نَبَأَ بَنِي جِيلٍ مَوْعِدٍ
السَّفَرِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ؟

ترى هل أتخذُ في مسلكي نحو هذا المنظرِ شأناً غيرَ ما كان
من شأنى معه في أربعة الأشهرِ الماضية ؟
أم يتكرّرُ ما كان منى قبلُ ، فأغفل عنه ، ولا أكرثُ له ،
حتى تحين ساعة الوداعِ ؟

ركبنا السيارة ، قاصدين مطارَ « لاجوارديا » .
ما أشبه الليلة بالبارحة !
الطريقُ هو الطريقُ ، والمشاهد هي المشاهد ، ولكن
شتانَ بين شعورين : شعور القدوم ، وشعور الرحيل !
دخلنا المطار ، وانتظرنا في البهو الدائر يزخرُ بالناس ،
بين رايح وغادٍ ، وبين جالسٍ إلى أمتعته ، ومقبلٍ على الميزان
يستوفى إجراءاته .

ورحت أطلعُ إلى تلك الرسوم العظيمة تزينُ جدارَ
المطار . . . رسوم تسجيلُ مراحل الطيران في مختلفِ عهودِهِ .
ولبئنا ننظر ، وامتد بنا الوقت ، ولكن ما حيلتُنا ،
والجيش عليه أن يظلَّ في الانتظار ، وأن يكون متأهباً مرهف
السمع ، يرتقبُ صوت النفير . . .
وحانت ساعةُ الفرج .

سمعنا مضجعهم الصوت يقول :
القاصدون « باریس » يتقدمون .

فاجتمع الشمل ، وانتظم الصف ، وخرجنا إلى ذلك الممشى
المظلل ، كأنه عريشُ بستان .

وما كدنا نبليغ أقصاه ، حتى لاح لنا « شمروخ » .
وقفتُ أتأملُ لحظة ...

أنت و « أبو الهول » صنوان .. يحمل كل منكما اسماً
من « مضر » ... فنيكما نفحة من الوطن ... كلاهما في وقفته
المتطوعة شاح مهيب ، وكلاهما في مظهره الجميل سنج الحياء ،
مفتر الثغر ... إنه لفأل طيب ، فعلى بركة الله !
احتوانا صدر « شمروخ » ، والوقت ظهر .

إنه كأخيه « أبي الهول » في وئادة مقاعده ، ونظام طاقاته ،
وسائر شئياته ... لو ح النور هو هو ، يوصى بشدة النطاق ،
ويحظر التدخين . وهذا الفق الأمريكي وزميلته السمحة في
لبوسهما الرمادي الرسمي المهندم ، كأنهما طيفان من « هولبود » .
وأقبل الباب ، ذلك الفاصل بين عالم الأرض والسما ...
بل إنه لفاصل يقرر مصائر الركب ، فكان صريره

إذ يُوصدُ يقول :

ثمةَ حِقْبَةٍ متميزةٍ من حياتنا قد خُتِمت بخيرها وشرها ،
وصارت ماضياً مطوياً ، وها هي ذى حِقْبَةٍ جديدة تبدأ ،
ما برحت مجهولة لنا ، وإن كانت مسطورة في لوح القدر المغيب .
ورُحْتُ أتأمل تلك الفترة التى مضت من حياتى فى ذلك
العالم الجديد . . . وطافت بالرأس أفكاراً

يقولون : إن الحياة ماضٍ وحاضر ومستقبل ، ولكن فى هذا
الرأى كثيرٌ من إلقاء الكلام على عواهنه ، دون دقةٍ وتمحيص .
ليت شعرى أىَّ شىء هو الحاضر ؟ أين هو ؟

ما الحاضرُ إلا وهُمٌّ مُصَوَّرٌ ، لو حاولتَ قَبْضُهُ
لما تحصَّل فى يدِكَ منه شىء . .

إنه ليمرُّ بك خطفاً ، وينزلق عنك انزلاق الزُّبْقِ
الرجراج . . فليس فى مقدورك أن تدعى الاستمتاع بشىء
منه ، إلا أن توهم نفسك إيهاماً .

إن خفقة القلب ، وفيها معنى الوجود وسرُّ الحياة ، لا تكاد
تبدأ حتى يبتلعها الماضى من فورِهِ ، فكأنها قذيفةٌ منطلقةٌ
يغيبُها ذلك الفضاءُ العريضُ ، وإن الكلمة وهى ترجمانُ النفس

وتعبيرُ الشعور ، لا تكادُ تنفجرُ عنها الشفتان حتى يلقفها
الماضى فيدوّنُها في سِجله العتيد .

ذلك الماضى تَنِينٌ هائلٌ يَفْغَرُ لك أفواههُ يَمَنَةً وَيَسرةً ،
وَتُحْدِقُ بك مخالبه من كل جهة ، مُرْتَصِداً يقظان لكل إشارة
أو عبارة ، ولكل حركةٍ أو حَسٍّ ، فهو مَأْصِدٌ يَنْ لا يشبعُ مهما
يطعم ، ولا يَرَوَى مهما يعُيب !

إنه لا يفتأ يقطِّعُك ويعتصِرُك ، حتى يحين وقتٌ تَفَنَّى
في جوفه ، فتصبحَ نسيجاً في جسمه ، ونقطةً من دمه ... تصبح
صفحةً من الماضى !

وليت شعري أى شىء هو المستقبل ؟ أين هو ؟

سَدِيمٌ غامِضٌ ، مهما تُنْفِذْ فيه بصرك ، لم يستبين لك
من طواياه قليلٌ أو كثير .

ما برحَ هذا السديمُ في طورِ التكوين ، لم يتخلَّقْ ، فهو
في ذمة أقدارٍ محجَّبةٍ تصوُّغه وفَّقَ هواها ...

ليس المستقبلُ إذن إلا خيالاً غامضاً ، جوهره الظنون !
الحياةُ ماضٍ وحده .

إنه الحقيقةُ الثابتةُ منقوشة في سجلِّك الصخرى لا تبلى .

في مُسْتَطَاعِكَ أَنْ تَتَحَدَّثَ فِي هَذِهِ الْحَقِيقَةِ حَدِيثَ خَبْرَةٍ
وَعِلْمٍ ، وَتَصِفَهَا وَصَفَ رُؤْيَا وَتَمَعُّنٍ ، لَا تَمْلِكُ أَنْ تَمْحُوَ مِنْهَا
مِنْقَلَابَ ذَرَّةٍ ، وَإِنْ بَذَلْتَ فِي ذَلِكَ غَايَةَ الْجُهِدِ .

لَيْسَ لَكَ أَنْ تَسْتَمْتَعَ بِشَيْءٍ سِوَى الْمَاضِي . . .

لَيْسَ الْإِنْسَانُ فِي الْحَقِّ إِلَّا حَشْدَ ذَكَرِيَّاتٍ وَذَكَرِيَّاتٍ !
ظِلٌّ ، شَمْرُوحٌ ، يَطِيرُ ، وَأَنَا مُسْتَفْرَقٌ فِي تَأْمَلِي ، قَطُوحٌ فِي
الْخَوَاطِرِ فِي شَتَى الْآفَاقِ ، وَقَدْ أَلْقَى النُّظْرَةَ بَعْدَ النُّظْرَةِ مِنْ
الطَّاقِ ، أَشْهَدُ قِطْعَ السَّحَابِ تَسْبِحُ فِي السَّمَاءِ ، قَارَةً تَلْتَحِمُ
وَتُرَبِّدُ مَنْدِرَةً بِوَابِلِ هَتَّانِ ، وَطُورًا تَنْقَشِعُ لِأَذْنِ الشَّمْسِ
أَنْ تَبْعَثَ ابْتِسَامَتَهَا تَحْيِينًا وَتُبَيِّثَ فِي نَفْسِنَا الطَّمَأْنِينَةَ وَالرِّضَاءَ .
وَفِي السَّاعَةِ الْخَامِسَةِ مَسَاءً ، هَبَطْنَا مَطَارَ ، « جَنْدَار » ،
وَوُظِّهَتْ السَّيَّارَةُ الْحَافِلَةُ ، فَامْتَطَيْنَاهَا تَجُوسَ بِنَا دُرُوبَ تِلْكَ
الْقَرْيَةِ الْكَثِيبَةِ الْمُنْعَزَلَةِ ، هَذِهِ الْمُسْتَعْمَرَةُ الْجَوِّيَّةُ الَّتِي اتَّخَذَتْ
مَحَطًّا لِرِحَالِ الطَّائِرَاتِ . وَمِثَابَةً اسْتِجَامِ .
وَزَادَ هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَحْشَةً وَكَأَبَةً أَنْ السَّمَاءَ كَانَتْ غَائِمَةً
تَوَالِي رَذَاذَهَا .

وَبَلَغَتْ بِنَا السَّيَّارَةُ مُقَصِّفَ الْمَطَارِ ، ذَلِكَ الْمَبْنَى الَّذِي يَمَاطِلُ

ميتَ فلاح ثرى من سادة الريف .

وبعد أن طعِمنا تناهى إلينا أننا في المطارِ نبيتُ . ولكن
علينا أن نكونَ على تمام أهبة الرحيل ، فقد يباغتنا أمرٌ بالمضى
إلى ركوبِ الطائرة .

وأقلتنا السيارةُ الحافلة إلى ما يسمُّونه هنالك الفندق ،
وما هو إلا مُكنة وحق السماء ، لا تجنّى ولا مغالة !

في ذلك المكانِ حيننا حياةَ الجندي في شتى مظاهِرِها . . .
حجرٌ بلغَ بها التواضعُ حدَّ الشظفِ ، وأسرَّةٌ عجافٌ لا يسترها
إلا ما تمسُّ إليه الحاجةُ من فرُشٍ ساذجة ، وضجعة ارتقاب
وتوفزٍ ، توهمُ في الفينة بعد الفينة أننا مزيجون بطلب الرحيل !
صحوتُ في الخامسة صباحاً ، كأنما عزَّ على نفسى أن يوقظها
أمرٌ مسيطرٌ . . فاستيقظتُ هي تمثُّلاً بقول القائل :

« يبدى لا يبدِ عمرو ، ! »

لا جديد في شأنِ الرحيل .

الجوُّ عابسٌ ، وبين السماء والأرضِ بريدٌ لا ينقطعُ من
رذاذ ، فكأنه يحملُ إلينا رسالةَ الانتظار !

عدنا إلى مبنى المقصفِ ، لا عملَ لنا إلا أن نطعمَ

ونستريح وننتظر .

من أسس الرحلة الجوية أن نتظر ، وأن نروض أنفسنا دائماً على هذا الانتظار .

أمضيتُ الوقت على تلك المقاعد الوثيرة ، أنقلُ بصرى فى الحاضرين ، وما فتىء الرِّذاذُ يشقر زجاجَ النوافذ .

لكأننا نحن طلابُ «شروخ» فى جزيرةٍ مُوحشيةٍ ، قد فننا حطامُ سفينةٍ مَهِيضَةٍ إلى الشاطئ ، فبقينا نرتقبُ النجدة .

وكنْتُ كلما بَرِمْتُ بالانتظار مضيتُ أسائل ضباطَ المطار ، وَمَنْ إليهم من الأعوان ، ولكن لا جديد !

ليس فى جعباب المسئولين من الجوابِ إلا ابتسامة غامضة ، وإيماءة خاطفة . . .

وأخذ الصَّحْبُ يتجمعون للعبِ بالورق ، وانعقدت سحائبُ اللغائف ، وبطالعتنا الكؤوس والأقداح ، تغدو ملامى وتروحُ فارغة . . .

إني لأَغِيظُ هؤلاء الألاعيبين ، فلقد اندجوا فيما بين أيديهم ، فأنسا هم كل شئ . نظرناهم مُسرَّعةً إلى الورق . كلُّهم عاجلة

يتطارحونها تارةً فى ضحكٍ وتارةً فى عبُوس ، حركاتهم آليّة

وهم يوزعون الورق في مهارةٍ كمهارةِ الحواة والمهرجين .
 إني لأحسَّ بهم قد سُحِرُوا صوراً كنتك الصور الأنيقة
 الملونة التي تحلى ورق اللعب ، صور الملوك عليهم تيجانٌ مذهبة ،
 والصبايا زدانٌ بالزهر الناضر ...

ضجرتُ بهؤلاء اللاعبين في موقفٍ جيدٍ ، فنهضتُ أتلفتُ
 حولى ، لأشغلَ نفسى بشيء ، فألفتُ نشاراً من المجلات ،
 فأقبلتُ أقرأ ...

ثمّة مقال تلوح طرافته ، قصةٌ صحفى أمريكى ؛ يصفُ ما شهد
 في زورةٍ لإحدى المناطق الألمانية الخاضعة للاحتلال الروسى .
 إنَّ الصحفى ليطنبُ في الإشادة بما يلقى به الروسى ضيفه
 من كرم وحفاوة ...

إنه ليكرم يذكرنا سماحة العربى في كُتبِ الأولين .
 أولئك الروسىون يقيمون مأدبةً لذلك الصحفى الأمريكى
 ومن معه في التاسعة صباحاً ، مأدبةٌ تزخرُ باللحوم والألبان
 والأشربة . فلما أكلوا حتى اتخموا أخبرهم مُضيفهم القائدُ
 الروسى أن ليس هذا إلا تصبيحة ومُجالة ، فأما الفطورُ التامُ
 فهو في الحادية عشرة ... في الحادية عشرة !

أمامك ساعتان أيتها المعدة ، لكي تهضمي ما ألقى إليك من
لحم ولبن وخمر ، وتشمري لما تفجؤك به المائدة الجديدة بعد .
لقد مضى اليوم سلسلة من المآدب ، موصولة الحلقات .
وكان منك الختام عشاء حافلاً في الساعة الأولى بعد
منتصف الليل !

أما ألوان الطعام فكثيرة ، لا ينتهي لصحافها عرض .
وكانت معارك الطعام تدور على نغمات الموسيقى ،
ومطاميات الأحاديث .

« أوربا » اليوم بين متصر ومنهزم ... أما المتصر فيقضى
يومه يفكر متى يهضم ما أكل ليستزيد ؟ وأما المنهزم فيقضى
يومه يفكر متى يتبلغ بشيء يُسكِت به سُعار الجوع ؟ !
حقاً إن « أوربا » اليوم بحالٍ لمجاعة شاملة ، وإن هذه المجاعة
لتمثل في نهم المتصر ، كما تمثل في حرمان المهزوم . !

كان طريفاً أن يجري الصحفي الأمريكي على أسلوب
الأرقام والإحصاء في التعقيب على تلك الضيافة ... وقد خرج
من الحساب بأنه أنفق خمسين في المائة من يومه آكلاً ،
وثلاثين في المائة نائماً ، وخمسة عشر في المائة منتقلاً ، وخمسة

في المائة مُقْبِلًا على مُهمَّته المجيدة التي رحل من أجلها في
همة ونشاط !

وأنبئني مضخَّمُ الصوت يقول :

رُكَّاب « شمروخ » يستعدُّون للسفر .

فألقيتُ بنظرةٍ على الساعة في بعضمى ، فإذا بها قُبَيْلَ

السابعة مساء .

غَيَّبْنَا جَوْفُ « شمروخ » واعتلى بنا صهوة الرياح يستقبلُ
المحيطَ ، ويتأهبُّ لاجتيازِهِ قُدُمًا لَا رَيْثَ وَلَا هَدوءَ ، وكان
الضبابُ ما برحَ مركومًا ، والرَّذاذُ يداعِبُ زُجاجَ الطاقاتِ ،
ولكن « شمروخ » يَشْتَقُّ ذلكَ الحِجابَ الثقيلَ المعتمَ ،
ويسمو إلى آفاقِ الصفاءِ والنور .

وإذا بنا نلجُ تحتَنا بساطًا ناصعَ البياضِ ، كأنه غواربُ
مَوْجٍ ، أو بطاحُ متراميةٌ من جليدٍ لَا يُدْرِكُ نهايتها الطَّرْفُ ،
وعلى حواشي السماء يزهُو وَشْيٌ أَرْجَوَانِيٍّ من صبغة الشمسِ
في لبُوسِ المغيب ...

كان « شمروخ » رَشِيقًا في طيرَانِهِ ، فلبثنا نعبُرُ المحيطَ في
سكينة وأمان ، وتراخت الأعصابُ بعدَ توتر ، فتهاكَّتْ على

ذلك المقعد الطيِّع ، وقد أردتُه أن يكون مِهَاداً ، فكان
وجَدْتُ الدَّثَارَ على رِكْبتي ، وأُسلت للنوم جَفْنِي ...
وَسُرَّ عَانِ ما استجاب لي السُّبُبات .

وفي منتصفِ الخامسة صباحاً ، صَحَوْتُ من نومي ، فَأَلْفَيْتُ
الطَّائِرَةَ على مقربةٍ من مطارِ « شانون » مُوشِكَةً على التَّصْوِيبِ
كان أوَّلُ صنيعٍ لنا في مطارِ « شانون » أن نصلحَ من
ساعاتنا ، فتقدَّمنا بها نحواً من ثلاث ساعات !
أنت في رحلاتِ الجوّ كما تدينُ تُدَان ...

هذه ساعاتٌ من حَيَاتِنَا نخسرُها اليومَ ، وما هي إلا تلك
السَّاعاتُ التي استزدناها يومَ ذهابنا إلى العالمِ الجديد .

قضينا ساعةً في المطار ، تناولنا فيها طعامَ الإفطار ، وعُدنا
إلى الطَّائِرَةِ نَسْتَأْنِفُ الارتحالَ إلى « باريس » ...

وما هي إلا ثلاثُ ساعاتٍ حتى كنا في مطارِ عاصمةِ الفرنسيين
ها نحنُ أولاءُ نتوبُ إليك يا « باريسُ » بعد غيبةٍ أربعة
أشهر ... فكيف أنت ؟ وما حالُك الآن ؟

لن تَكُونِي إلا محطةَ استبدالٍ مطيِّةٍ بمطيِّةٍ ، فنَصِيئُكَ منا
نظراتُ المتعجِّلِينَ ، ومرورُ الكرام !

٥ أغسطس

اليومَ يومَ الرحيل عن «باريس» ..
كما نحسبُ أننا سنقضى فيها يوماً أو بضَ يومٍ ، فإذا بها
تأسرنا عشرةَ أيامٍ ثقال ...
إني لأسأل نفسي الساعةَ :
كيف قضيت تلك الأيام ؟
لقد كانت مَشارَ إرهاقٍ وإجهاذٍ ، لم نَطْعَم فيها الراحةَ
إلا غراراً ...

جوتُ أحق ، كأنَّ بهِ جِئَةً ، لا قرارَ له على حالٍ ، فمَرَّةٌ
هو قَـيَـيْـظٌ مُـنـلَـبٍ ، وحيناً هو أهْوِيَةٌ وأمطار
وهذا الكدُّ بين مكاتب العمُلة وشركات الأسفار :
أعصابٌ متوتِّرةٌ ، ونفسٌ ثائرةٌ . وحيرةٌ في مَوعِدِ الرِّحْـلَةِ
ووسيلةِ الانتقال . . . هل نُسافرُ بالطَّارِ ، أو بالطَّائرة ،
أو بالسيارة ، أو مشياً على الأقدام ؟
يعلِّمُ الله !

في تلك الأيام المضطربة التي عشناها ، كان إلزاماً علينا

أن نصطنع الحذر الشديد، والتحيثُ الدائب .
وقد يغدو المرء على الرغم منه مختلاً كذوباً ، فأوضاع
الحياة ثمة لا تعينُ على حق وصدق وتصريح !
إن القيمَ الأخلاقية تبدو لنا الآن غريبة الوجه ،
لا تلائمُ ملابسات العيش ، وسوق الحياة !
هذه القيمُ تلينُ وتتلوى إزاء ما تقتضيه الحالُ الراهنة
في ذلك العهدِ العجيب .. لا طالَ عَهْدُهُ !
تبدو لنا « باريس » بعد أربعة أشهر ، كما هى « باريس »
التي مررنا بها من قبل ، إلاّ فيما ندر من الظواهر ...
ولعل مؤتمر السلام الذى اختار مقره فى « باريس » قد
أعان على أن تظهر المدينةُ على نحو لا يخلو من بهاء .
فلقد تكاثرت سيارات الأجرة ، وعمرت الأندية بالأجانب
من أعضاء المؤتمر ومن إليهم من أعوان وصحفيين وزوّار ،
فكنت تلح فى « باريس » أطياً من روائها فى ماضيها البعيد .
وربما كان أوضح معالم « باريس » سوقها السوداء ،
ولكنها اسمٌ على غير مُسمى ، فقد احتلت كل مرافق الحياة ،
وأصبحت هى السوق الحرة التى لا مناص منها لمن يشتري ويبيع !

هذه السوق السوداء تغلغل في كل شيء ، وتنشب أظفارها في كل مكان ، حتى إنها لتتسلل إلى مؤتمر السلام . . .

في المجالس الرسمية سوق بيضاء ، تتناقل فيها الخطب والمشاورات ، وتداول الآراء ، ولكن بخطأ بطيئة ، لا تبلغ غاية ، ولا تصيب هدفاً . . . فالبضاعة في تلك المجالس الرسمية قليلة تاغية ، والعمل نادرة . ولكن خلف هذه السوق الحرة الجامدة سوقاً سوداء رابحة البضاعة متوافرة العملة ؛ تُعقد فيها الصفقات الكبيرة من الاتفاقات والمحالفات والخطط والمكاييد على حساب الشعوب التي أقيمت إليها كنسوس من خمر المبادئ الرفيعة ، والمثل الإنسانية ؛ تظل بها لاهية ساهية !

ويوماً وقع بصرنا على صديقنا الخوذى الخمور ، وهو على عرشه المتزلزل ، وارم الأنف ؛ فسألناه جولة في « غابة بولونيا » . إنه هو ؛ في دكتاتوريته الحمقاء ، يفرض الأجرة كما يشاء وراحت المركبة تكركر كركر بنا في الطريق . . .

لم ينل منجل الحرب من « غابة بولونيا » إلا قليلاً قليلاً ، ولكن شتان بين الغابة أمس والغابة اليوم .

كأننى بها طريحة المرض ، مجهودة الأنفاس ؛ يعودها الناس

جموعاً وفُرَادَى ، فإنَّ نظرةً واحدةً إلى وجوههم وسماتهم
وهيئاتهم لتُوحى إلينا بما يكادُ وُزَنُه من إقفار وإجداب
وعبوس إنه حقاً لعِراك عَنيف ، ذلك الذى يَعْتَلِج اليومَ فى
صدور أهلِ « بَارِيسَ » .

إنها الحربُ الأخرى أشدَّ من الحربِ الماضِيَةِ هَوَلاً ، تشنها
« فرنسا » على البؤس والفاقة والهزيمة ...

ثمَّةَ ابتساماتٍ تتخايل على الوجوه ، ولكنها ابتسامات
مُجْتَلِبَةٌ مَزُورَةٌ ، تُشِفُّ عن همومٍ وحسرات !

بدأ صديقنا الحوذى الخمور يتحدث ويسترسل فى الحديث ،
كأنه يُناجى نفسه ، وكنا على مقاعدنا وراءه نُصْغى .

كان يشكو ويتذمر ، وينتحلُّ المعاذير من دكتاتوريته
فى المُغَالاةِ فى الأَجور ، وكأنما يأخذُ علينا استكثارنا
لما فَرَضَ من أَجْرٍ ، على حين أننا لم نساوِمْه فى شئ ،
ولم نُبْدِ أَقْلَ اعتراض .

إنه ليدافع عن نفسه ، معاتباً مرةً ، مغلظاً فى القول
مرةً أخرى ...

إن روحَ التمرّدِ تشيعُ فى نفسه ، ولكنْ على أىِّ شئٍ يتمرّدُ ؟
(١٦)

إِمنْ أَجلنا ، وقد أذعننا لمطلبه ؟

إنه ليتسخطُ على الزمن ، على ذلك الغلاء المتهادى ...
يشكو الاضطراب الذى تفشى مرافق البلاد منذ أدركها
عهد التحرر من احتلال الألمان ، ودخلت فى ذلك العهد الجديد .

ليت شعرى ، ماذا يُريدُ أن يقول ذلك المأفون ؟

وأية فكرة يرمى إليها ؟

لقد استرسل فى الكلام ، مُشتطاً محتد للجهة ...

إنه لقولُ جرى وإيْمُ الله !

حَسِبَ ذلك المأفونُ أنَّ عهدَ التحرر من رُبُفَةِ الألمان ،
راجع إليه بفيضٍ من الخير غزير ، فروَّعهُ ألاَّ يتحققَ له من
ذلك شىء . . .

إنه لا يتورع عن أن يترحمَ على ذلك العهد السابق البغيض
كان فى ذلك العهد يملأ كَرِشُهُ ، ويحصلُ على النيدِ بِشْمَنِ
حاضرٍ ، فيطعمُ هنيئاً ، ويشربُ مريئاً .

بهذا القول كان يثرثرُ ، والعهدُ عليه ، أخزاه الله !

لقد كانت مرْكَبَةُ الأجرة هى الوسيلة الأولى للانتقال فى
باريس ، عصر الاحتلال ، وكان سائقها سيد الموقف ، غير منازع !

لم يكن أمامه منافس في الميدان ؛ فراح يصول ويجول ،
وقد خلا له الجو . فكيف لا يتغنى بمغانم تلك الأيام ؟ وكيف
لا يتبعها واسع الرحمات ؟

لم يكن الحوذى نفسه هو الذى يتكلم ويتألم ويتندّم ، وإنما
كان بطنه الخاوى هو الذى يعوى ...

انسرحت أفكرُ فيما يقول الرجل ...

أهكذا تذوبُ الوطنيةُ في أتون الأحشاء المتوقد ؟

أهكذا تتحللُ المشلُ العالية في قدر الجوع هذا التحللُ الزرى ؟

ليس البشرُ جميعاً قدّيسين وأصحابَ مثل رفيعة ، فإن الدنيا

تموج بتلك الحشرات التى تعيش لتأكل ، حتى تنبعج البطون !

ومهما يكن من أمر ، ففي حديث هذا الرجل معنى يجب

ألا يكون نصيبه من الغفلة أو الإغفال .

ليس لنا أن نزدري فلسفة البطون .

إن اللقمة لها مكانتها المرموقة في تاريخ البشرية .

وإنها لن تفقد هذه المكانة على مرّ الأحقاب والدهور .

إنى لأرى فلسفة البطون تندسّس إلى كل شيء ، وإنى

لأراها تدفع بالأفراد كما تدفع بالشعوب ...

ليس الجوعُ أو خوف الجوع وما يتفرّع عنه من
النشهى والنّهم والجشع إلا المحرّك الأوّل فى قيادة الأمم
وسياسة الدول .

ولقد تحوّلت تلك الكلمات فى معجم السياسة اليوم إلى كلمات:
« المجال الحيوى » ، و « المنافذ على البحار الدافئة » ، و « المواقع
الاستراتيجية » ، و « حرّية مسالك المياه » ، وما إليها . .
وتفسيرُ هذه الكلمات الجديدة فى مُعجم الحقائق المستورة
هو معدّة طاويةٌ خاويةٌ تبحثُ عما يملؤها ، فإن امتلأت اشتد
كلبُها ونطابت المزيد ، وكأما تخشى أن يعجزها سُعارُ الجوع
من بعدُ ، فهى تتمادى فى الأكل ، لا فتور ولا وناء !

وقد أدرك بعض عقلاء السياسة أثرَ البطون فى حكم
الشعوب ، فاستبدلوا بالحكمة التليدة :

« جوع كلبك يثبّثك » .

تلك الحكمة الجديدة :

« أشبع كلبك يحبك » .

فالحاكمُ الحصيف الذى يريد أن يسيطر وأن يتأمر ويأمن
الخروج والعصيان يتوحّس دائماً إشباع البطون !

فالتَّخَمَّةُ تَوْرِثُ الكسلَ والفتورَ والتَّبلدَ. وليس بعد امتلاء
البطون إلا الجودُ والخودُ ، فيخبو الذَّكاهُ والحيَّةُ ، وتتعطَّلُ
الفطنةُ والتَّحُمُّسُ ، وتسحبُ الراحةُ والدَّعةُ والاستسلامُ !
لا طاقَةَ لِبَطِّينٍ على ثورةٍ ، ولا صِيحَةَ لِمُتَّخِمٍ وَخِيمٍ ...
تركنا « بَاريسَ » لِخُوزِيها يُوازِنُ بينَ الحُرِّيةِ والرَّغيفِ
وأقلَّتنا الطَّائرةَ إلى « جنيف » بعد طيرَانِ ساعةٍ
ونصفِ ساعةٍ ..

رحلةٌ كان مقدراً لنا أن يقطعها بنا القطارُ في عشرِ
ساعاتٍ ، ولم يكن لنا بُدٌّ من أن نُمضِّيها وقوفاً في ممرَّاتِ القطارِ
مرَّهقينَ بالزَّحامِ بينَ كُومَاتٍ من الأمتعةِ والأنايِ ، لانكادُ
نظفَرُ بِكسرةٍ من خبزٍ أو جرعةٍ من ماءٍ !

بُورِكَ فيكَ يانسورَ الجوِّ مِنْ خَلْقِ الإنسانِ ...
وإن كانت غراتك لا تُقالُ !

٥ أكتوبر

أى بُنَى:

إني لأكتب إليك هذه الرسالة ، من مَعاً أن تكون خاتمة
رسائلي إليك من بلاد الغُرْبَة .

أكتبُها قبيل أو بقی إلى أرض الوطن ، فلم يبق على موعد
الإرتحال إلا يومٌ وبعضُ يوم .

أكتبُها وأنا في جلسة رَخيّة تجاهَ بُحيرة « ليان » في
« أوْشِي » ، أو بالأحرى في « لوزان » ، تلك المدينة التي خطوت
أنتَ على أديمها مرة طفلاً ، وزُرتها مرة أخرى وقد أيفَعْتَ ،
وكان يودى أن تراها وأنتَ في مُكْتَمَلِ رجولتك ...

لمدينة « لوزان » ، ولأخواتها من المواطنِ السويسرية
مكان التقديس من قلبي ، فأنا أحُجُّ إليها أستعيدُ فيها ذكرياتك ،
وأبتعثُ أطيافك ...

إني لأدعُ نفسي الزمنَ الأطول ، في غفواتٍ طيبة ، سابحاً
في أعماقِ الماضي ...

في هذه الغفوات أراك صبيّاً كما كنتَ ، وأحسُ وجودك ،

وَأَسْمَعُ إِلَى صَوْتِكَ، وَأَجِدُنِي آخِذاً بِيَدِكَ الْبُضَّةَ الْغَضَّةَ، مَجْتَازاً
بِكَ الْمَسَالِكَ وَالطَّرِيقَ، مُطَوِّفاً بِكَ فِي الْمَكْتَبَاتِ نَخْتَارُ الْكُتُبَ
إِلَى وَلَدِكَ، وَنَنْتَقِي مِنَ الرُّسُومِ وَطَوَائِعِ الْبَرِيدِ الْغَرِيبَةِ مَا يَهْجِكُ،
جَالِساً إِلَيْكَ فِي الْأَنْدِيَةِ وَالْمَشَارِبِ، نَرْتَّبُ مَا جَمَعْنَا مِنْ كُتُبِ
وَطَوَائِعِ، عَلَى حِينِ أَصْغَى إِلَى ثُرْتُرَةِ طُفُولَتِكَ الْحَيِّيةِ، وَإِلَى
فَيْضِ أَسْئَلَتِكَ السَّاذِجَةِ تُغْدِقُهَا عَلَيَّ

هنا في كلِّ ركنٍ منك أثرٌ، وفي كلِّ مشهدٍ طيفٌ، وفي
كلِّ نسيمٍ نفحةٌ...

فِي ذَلِكَ الْحَانُوتِ دَخَلْتُ بِكَ أَشْتَرَى لَكَ أَوَّلَ مَرَّةٍ حُلَّةَ الرِّجَالِ
أَمَامَ هَذِهِ الْبَحِيرَةِ جَلَسْنَا يَوْمًا نَتَأَمَّلُ مَفَاتِنَ الطَّبِيعَةِ،
فَجَعَلْتَ تَعُدُّ لِي قِمَمَ الْجِبَالِ وَتُسْمِيَهَا، لَا تُخْطِئُ مِنْهَا جَبَلًا
عَلَى ذَلِكَ الْجِسْرِ الْعَظِيمِ، حَدَّثْتُ إِيْلَكَ أَوَّلَ حَدِيثٍ عَنْ
عَظَمَةِ الْإِنْسَانِ فِي تَطَلُّعِهِ إِلَى التَّحَضُّرِ وَالتَّعْمِيرِ

ماذا أنا السَّاعَةُ كَاتِبٌ إِلَيْكَ؟

إِنَّكَ لَتَعْلَمُ مِنْ مَعَالِمِ هَذِهِ الْمَوَاطِنِ وَزَوَايَاهَا فَوْقَ مَا أَعْلَمُ
وَلَقَدْ كُنْتُ تَجُوبُ مَعَ أَخْتَيْكَ مِنْ دُرُوبِ الْجِبَالِ وَشِعَابِهَا
مَا لَمْ تَضْرِبْ فِيهِ قَدَمَايَ، وَتَعْتَلِي مَعَهُمَا هَضَاباً يَتَعَذَّرُ عَلَى مِثْلِي

أن يعتليها ، وطالما ركبت الزلاجة تندفع بها على مزالق الجليل
فلا أستطيع اللحاق بك إلا بعد لآي !

أنت بكل ما في هذه البلاد خير . . .

وإني إذ أتحدثُ إليك الساعة في شأنها ، وأنا من الرحيل
قاب قوسين ، فإنما هي تَعْلَمُ أَلْتَمَسُهَا لَأُفْلِكَ الحديث في شيء
ألفناه جميعاً ، فنحن نستعيدُ مَرَاتِيهَ وَذَكَرِيَاتِهِ ، فكأننا نجد
بتلك الاستعادة مرحلة من العيش معاً . .

مهما أقل فما أنا بكاشف لك جديداً ، فحديثي مُعَاد ، ولكن
قد يتدوَّق المرء في بعض الأحاديث المعادة اذة لا تُعَدُّ لها لذة
الجديد من الحديث . . .

لقد سَلَخْتُ من صيفي هذا العامَ شَهْرَيْنِ في هذا البلد ،
وتلك فترة ضئيلة لا يقاس بها ما قضيناه هنا معاً في سواف
السنين . ولقد زُرْتُ مواطنَ قليلة لا تُعَدُّ شيئاً مذكوراً
بالنسبة للمواطن التي اشتركنَا في زيارتها في تلك الحقب
الخوالي . . .

لقد كنَّا نزل هذا البلدَ رُؤُوداً سَائِحِينَ ، تَضَرَّعُ بَيْنَ جَنُوبِنَا
نزعة الكشف والارتياح ، فلأنحلُّ مشابهة حتى نكتسب خفاياها ،

ونعصر زبدَها ، ثم ندعها إلى أخرى بشوقٍ جديد ، وطموحٍ
إلى المزيد ...

أما اليوم فإنني حلٌّ بهذا البلد لا لكشفٍ أو ارتياد ، بل
لأتمس الدَّعة ، وأتطلب التراخي ، وأظفر بسكينة النفس ،
وطمأنينة الأعصاب .

كنّا في «أمريكا» كأننا مشدودون إلى طاحونة ، ندور
حولها ، ولا نفقأ ندور ، فجئنا هنا لنقف ، لنجلس ، لهدأ ،
لننام ...

إذا قلت « سويسرا » فقل من فورك :
بحيرات ورواسي وأدغالا ومسايل ماء ...

ما أحفل هذا البلد بمشاوي الاستحمام !

بلد عجيب هذا الوطن السويسري .

يجمع بين روعة القديم ، وفتنة الجديد .

تلك « لوزان » أقوى رمز لذلك الجمع بين المظهرين .

هنا طُرُقٌ فِساسٌ ، تَصْطَفُ على حفافها شواخُ الأبنية ،

تقوم على حواشٍ أبيض المتاجر والخوانيت ، تعرضُ

أحدث النماذج من السلع ...

وعن كَثَب من هذه الطرق المعبّدة تطالعك مسالكُ ضيقة

متداخلة ، يفتش أديمها باعة زخراتٍ سلاهم بالخضر والفاكهة

والرياحين ، فكأنك تجوسُ خلالَ مدينةٍ من مدُن « أوربا »

في عصورها الوسطى .

وإنّ هذه المسالك لتبرّج وتخذُ زينتها الكبرى في الأعياد

القومية ، إذ تبدو في تقاليدها المتوارثة حاشدةً بالناس في أزيائهم

الوطنية ، وقد حُجبت فيها السماء عن ناظريك بالأعلام الملونة

التي تمثل شعارَ الولايات ...

وَأَنْتَ حِينَ تَرُجِعُ الْبَصْرَ بَيْنَ هَذِهِ الْأَسْوَاقِ الشَّعْبِيَّةِ وَبَيْنَ
تِلْكَ الْمَتَاجِرِ الْعَصْرِيَّةِ تَرَاكَ تُؤَثِّرُ شِرَاءَ سِلْعِكَ مِنْ هَذِهِ
الْأَسْوَاقِ ، مَا خُوذَ بِمَا لَهَا مِنْ سِدَاجَةٍ ، وَبِمَا تُنْفِخُهُ مِنْ عَطْرِ
العصور السَّوَالِفِ !

هَذَا الْمَبْنَى الْأَثَرِيُّ الْمُنَوَاضِعُ يَحْتَفِظُ بِعِزَّتِهِ وَجَلَالِهِ إِزَاءَ
ذَلِكَ الصَّرْحِ الْمُتَمَرِّدِ مِنْ نِتَاجِ الْمَدِينَةِ الْحَدِيثَةِ . وَقَدْ تَتَأَمَّلُ
جِسْرًا عَظِيمًا وَلَيْدَ الْحَاضِرِ الْقَرِيبِ ، مَبْهُورًا بِمَا لَهُ مِنْ عَظْمَةٍ
وَرَوْعَةٍ ، فَيَأْخُذُ بِصَرَكَ دُونِهِ جِسْرٌ آخَرٌ يَزِينُ حِمْلَهُ جِسْرٌ عَتِيقٌ
تَرَادَفَتْ عَلَيْهِ مِثُونٌ مِنَ السَّنِينَ ، فَتَحْسُ بِأَنَّكَ مَشْغُولُ الْخَاطِرِ
مَقِيدُ النَّظَرِ بِهِ عَنْ ذَلِكَ الْجِسْرِ الْحَدِيثِ الْعَظِيمِ . تَرَى فِي طَرَازِ
صَنْدُوعِهِ وَالتَّوَائِجِ جَوَانِبَهُ وَمَا حُلِيَّتْ بِهِ جِدْرَانُهُ مِنْ رَسُومٍ مَلَوْنَةٍ
وَزَخَارِفَ بَهِيَّةٍ ضَرَبًا مِنَ الْعَظْمَةِ لَهُ مِيزَاتُهُ وَخِلَابَتُهُ . . . الْقَوْمُ
هُنَاكَ لَا يَجِدُونَ فِي الْإِبْقَاءِ عَلَى مِثْلِ هَذَا الْجِسْرِ تَشْوِيهًا لِلتَّنَاسُقِ
الْعُمَرَانِيِّ ، بَلْ يَلْتَمِسُونَ مِنْ وَجُودِهِ وَسِيلَةً مِنْ وَسَائِلِ التَّجْمِيلِ .
قَلْبُ السُّوَيْسِيِّ تَتَنَازَعُهُ عَاطِفَتَانِ قَوِيَّتَانِ :

الْأَنْسُ بِالْمَاضِي ، وَالتَّشَبُّثُ بِمَعَالِمِهِ ، مَا وَسِعَتْهُ الْحِيلَةُ .
وَمَتَابَعَةُ الرِّقْيِ وَالتَّحَضُّرِ فِي خُطَا سِرَاعٍ .

وإنهما لعاطفان تنكاملان في نفسية الألة السويسرية .
وتتجليان في وضح النهار ، فهما للسويسرى قوام الحياة
وأساس الوجود !

نزلنا « سويسرا » فكأننا حملنا جنة زهراء تحف بها
السنة من لهب ..

حول « سويسرا » خرائب أشتات : خرائب في الأبنية ،
في الأسواق ، في الأوضاع ... في النفوس !

إن للأقدار يداً تتلاعب بمصائر الدول ، كما تتلاعب
بمصائر الأناسى ...

لم يكن محالاً أن تغدو « سويسرا » وقوداً للحرب ،
فتُمنسى طعمةً للخراب ، كما كان شأن جاراتها من الدول
الأوربية ، ولكن يد الأقدار ارتفعت تُجسبها ويلات الحرب
والخراب ، فتفسيأت وحدها ظلال السلام !

هو القدر ، لا عاصم غيره ولا دافع ، فخلّ عنك حيلة
السياسة ، وعدة الكفاح ، وما تُزيّنه العقول من أسباب
للهزيمة أو الانتصار !

إن « سويسرا » بلد طريف حقاً .

طريفٌ هذا البلدُ في مصايفه ومشاتيه التي يتودّد لها الناسُ من أقطارِ الأرض جميعاً... في مشاتيه تَمْتَعُ بمسارح الثلوج، وفي مصايفه تَبْهَجُ بالغابات والبحيرات.

طريف هذا البلدُ في ضآلته مساحةً وعددِ سكان... فهذه الضُّمُولَةُ قد تَقِفُ بجانب أعظم الدول شأناً وأكبرها خطراً تسامياً وتطاوُلها، حتى تبلغ ما تصوّبوا إليه من معاملة الندِّ للنَدِّ. طريفٌ هذا البلدُ في نظمِهِ السياسية، فلقد ابتدع لنفسِهِ وضعاً من أوضاع الحكيم الديمقراطيّ الأصيل، كلما تراخى به الزمنُ تماسكاً وتوثّق...

طريف هذا البلدُ في فلسفته السياسية، وفهمِهِ للسعادة الاجتماعية بمعناها الحق. فهو دليلٌ ساطع على أن كلَّ بلد في مُمكنَتِهِ أن يعيش رخياً هائلاً بموارده الطبيعية في حدوده الأصلية، ما دام له تَفْطُنٌ وذكاءٌ وعبقريّةٌ في استغلال تلك الموارد، وما دام أهلوه قوى عاملة تؤدى الواجب العام. وهو برهانٌ دامغٌ على فسادِ نظرية «المجال الحيوى» و«التوسّع الإمبراطورى»، وهو حجةٌ قائمةٌ تثبتُ أن الأُمّةَ يمكنُ أن تعيش حرةً موفورةً الكرامة ملحوظةً المكانة، دون أن تعْتَلِي

ظهور أمم أخرى لتطيلَ قامتها بعواملَ مصنوعة متكلفة .
وتستطيع أن تُشيعَ نهما دون أن تنتزعَ من الأمم الأخرى
ما بين يديها من لُقيّات !

لا يتطالعُ السويسريُّ إلى شبرٍ من أرضٍ غيره ، ولا يُعنى
نفسه بمشكلاتِ آبارِ البترول والمضايق والمسالك البحرية
والنُقط العسكرية . فهو رافيه النفس ، ناعم البال ، داخل
حدوده . وإن طمحَ إلى شيء فطمُوحه يرمى إلى الإذكاء
من نشاطه ، والانتفاع بموارده على خير الوجوه ، وأساس
اقتصاده هو تبادل المنفعة دون جورٍ أو اعتساف .

إننا لنجدُ « الوطنية » تحظى أول مرة في هذا البلدِ بمعنى
جليل غير معناها الشائع ، فإن السويسري يرى أن الوطنية
قد تنشأ وتستفحل وتوقد دون أن ترتكبن إلى اتحادٍ في اللغة
أو الدين أو الثقافة أو نزعاتِ الشعوب ...

هذه « سويسرا » مناطق ثلاثاً أصلية :

منطقةُ ألمانية ، وثانية فرنسية ، أما الثالثة الأخرى فايطالية .
لكل منها كيائها الداخلي ، وخصائصها القومية ، من عقلية
وثقافة ونشاط اجتماعي . ولكنها تتجمعُ أمةً واحدة ووطناً

فرداً وراء الحدود السويسرية !

يحق لنا أن نتساءل :

ما هي مقومات الوطن على وجه التحقيق ؟

تُعَدُّ اللغة والدين والثقافة والدم ، وما إليها من عوامل جغرافية واجتماعية واقتصادية — مقومات للوطنية .

ولكن ثمة عاملٌ أصيل هو روح تلك المقومات ، ذلك هو عامل المنفعة ، اتحاد المصالح ، توافق الأهداف ، تلاقى المشاعر ...

قد تختلف فئة من الناس أجناساً وأدياناً ولغات ، فإذا هم قد جمعت بينهم الأقدار في رقعة من الأرض ، واضطرتهم ملابسات العيش أن يحبوا في هذه الرقعة مجتمعى الشمل ، فاستقر بهم هنالك المقام ، وراحوا يتظاهرون على إسعاد مجتمعهم وحياطته من المتآلف والأخطار ، فتوثقت بينهم روابط العمل في سبيل المصلحة المشتركة ، والهدف الواحد . فكلما تشابكت المصلحة وعظم الهدف اشتدت وشائج الاتحاد .

وإن ما يخشونه من خطر خارجي داهي ليؤلف بين قلوبهم

ويجعلهم بنياناً مرصوصاً تجاه ذلك الخطر ، إذ يستشعرون
أنهم سوا سية فيما يكون لهم من نفع ، أو ما ينوبهم
من الضراء .

وليس عسيراً أن تبين هذه الظاهرة جلية في أصغر المجتمعات
عدد أنفس . فأنت على ظهر الباخرة فوق العُباب ، وقد أخذت
بك الباخرة تنأى عن الشاطئ ، وتضرب في الأثباح ، تحس
من فورك عاطفة ألفة وترابٍ بينك وبين رُفقة السفر ، على
الرغم مما يكون من تغاير في اللغة والجنس والدين والبلد .

ذلك لأن مصلحة مشتركة نشأت بينك وبين رُفقتك ،
ولأن هدفاً واحداً قد أصبح نُصبَ أعينكم جميعاً ، هو الوصول
إلى البرِّ في أمن وسلام .

وإذن فتلك الباخرة وطن وقى لك ، تحيا فيه مع مواطنيك
بضعة أيام ، وما شعورك آنئذ إلا وطنية عارضة تجنّد لها
ما تملك من يقظة واهتمام .

فإذا جازت بك باخرة أخرى أحسست أنها وطنٌ غريب
عنك ، يؤوى مواطنين لا يعنك من أمرهم إلا علاقات المجاملة
وحسن الجوار ، وربما كان في رُفقة تلك الباخرة الأخرى

من هم أقرب إليك رُحماً وأوثقُ بك صلوات من رُفقتك في
ياخرتك التي تحملك .

فالوطنية الحقّة بذرتها عامل المنفعة وتوحد الأهداف .

وعلى مر الأيام تنشأ حول هذا العامل عاطفة الألفة التي
هي التعوّد . وكلما تراخى بها الزمن ازدادت رسوخاً في النفس ،
وصادفت هوى في الفؤاد . فإنك تألف المكان لا عتيادك إياه ،
ومن ثم تحوطه بإعزاز وإجلال .

ولا مِرْية أن أثر التعوّد في النفس البشرية أثرٌ قوى بالغ
الخطر ، فهذه النفس يلدّها أن تترك بالتعوّد إلى الأشياء مادية
كانت أو معنوية ، وذلك الركون مبعثه الطمأنينة والثقة ، لأن
في مواجهة الجديد مغامرة محجّبة المصير ، تبعث في النفس
مشاعر الحذر والرّهبة والاندكاش .

ليست الألفة مقصورة على الأحياء ، فإننا لنألف من
المادّيات توافيه لا يؤوبه لها ، فتحسُّ وجودها ، ونحيا معها ،
ونأنسُ بها ، كأنّ لها روحاً يُبادلنا الأُنس والحياة .

ألم تقف مرة أمام كشير لك من قلم أو دُمّية أو ثوب
اضطربت إلى التخلّي عنه ، وقففة مُودّعٍ محزون القلب يشيعُ
(١٧)

في أوصاله أسفٌ لذّاع ؟

أَلستَ تجدَ نفسك كأنك تودّع عزيزاً عليك لا تبخل عليه

بقبلة حرّى ، أو نظرة حسرى ؟

هى خطراتٌ تُحوِّمُ فى الرأس ، وأنا جالسٌ جلستى

المترامية ، مُسْرِفاً على بحيرة « ليمان » ، أتطلعُ إلى ذلك المشهدِ

الخلابِ الذى يتألقُ لعينى تحت أشعةِ الشمس ، وأرى

القُرى تتناثر على الشواطئ ممتدة فى صُعودِها على سفوح

الجبال ، تكتنفها المروجُ والغابات ...

لبحيرة « ليمان » خصائص عجيبة ... إنها متحوّلة متبدّلة
لا يستقرُّ لها حال ، فهي تتشكّل وتتلوّن وفقاً للجوِّ في تطوُّره
واختلافه . وإنّ مشهدَ البحيرة في كلِّ طورٍ ليختلف أبينَ
اختلاف عنه في سائر الأَطوارِ ، حتّى إنك لتُنكر بصرك
أو تستريبُ بمشاعرك ، فيخيّل إليك أنك بين يديّ بحيرة
سحرية يتلعب بها جنّ عتيّ .

هي في بواكير الشروق غيرُها في وهج الظهيرة .
وهي في ذلك الوهج غيرُها في فترة الأصيل .
وكأنما هي تخلق خلقاً جديداً حين تنسدُّ أستار الظلام ،
أو تتكاثف أطباق الغيم والضباب .

ليست البحيرة إلا لوحاً فنيّاً رائعاً يتجددُ في كلِّ وقت ،
فإذا صفا الجو ، وسطعت الشمسُ قوينةَ الشعاع ، وصحّت السماءُ
صافية الزرقة ، لا تشوبها رُقعة من السحب ، برزت لك الجبال
جليّة المعالم ، ناطقة الملامح ، كأنك تشهدها خلفَ مجهر ،
وتوضّحت لك الألوان نيرةً مشرقة . فهذه خُصرةٌ ناضرة ، وذلك
صُقع قاحلٌ ناتيء الصخور والأحجار ، وتلك قِمّةٌ ثلجية ناسعة .

ودونك صفحة الماء ملتمة لنا ظريـك كمر آة مصقولة مجلوة،
تهتز صفحتها بين الحين والحين تحت الشمس الساطعة، كأنها
حسناؤه متجردة تهتز خفراً واستحياءً إذ يباغتها ضوء كشاف!
إن صورة البحيرة في هذه الحالة هي صورة للسفور
والوضوح في أجلى مظاهره...

فإذا تلفعت السماء بغيومها، وتهاوت السحب على هام
الجبـال تخفي قممها، وشح الضوء، وشاعت في الجو سارية من
القرّ تحمّل معها الغموض والخفاء؛ ألفت صورة البحيرة
قد شجبت ألوانها، وغشيت بها وحشة ورهبة وانقباض.
أمواج رجـاجة تعلو وتهبط عليها غبرة، وجمال قد
اختلطت معالمها لا تدرى أمور قه الجنبات هي أمام ما حلة جدباء؟
وقد يحيط الظلام على هذا المشهد، فإذا الرهبة تتناقل،
فتحس كأن الأدغال قد عمّرت بأساطيرها القديمة وراحت تزخر
بالمهولات والأمساخ، من العمالق والأقزام. وترى صفحة
الماء كأنما غصت بسفائن الأقدمين تشبك في حرب وفتال.
وإذا بشبح «وليم تل» المرهوب ذي اللحية الكثية والشعر
المسترسل يروح ويحيى سابحاً في الجو بقامة المبسوطة، متكباً

قوسه التليدة ، وقد دوَّتْ من حوله الأناشيد الوطنية دُخاناً
يعقدُ سحائبه في الآفاق ...

وثمة صورة ثالثة أخرى لنلك البحيرة ، هي مزاجٌ من
الصورتين السالفتين : مزاجٌ من الوضوح والحفَاء ... شمس
ساطعة تحس حرارتها وقوة ضوئها ، ورقيقٌ من الضباب تكسو
غلالته مسرحَ النظر ، فأنت ترى بعينيك كأنك تُبصرُ من
وراء منظار علاه الغبار ... فالبحيرة قبالتك لا تستين لها
معالمُ في ذلك الفيض المختلط من السَّنا والضباب . والماء
لا تدرى أما هو حقاً أم هوائٌ ؟ والقوارب لا تعرف وهي
تتراقصُ أقوارب هي حقاً أم ظلال هائمة شواردُ ؟ فأما
الشاطئ . وما دونَه من جبال وأدغال ، ومن صخور ومروج
فقد احسَّت وترايلت خلف تلك الغلالة البيضاء ، حتى إنك
لتتوهم ألا شاطئ ، ثم ولا أصقاع !

إنك وأنت آخذٌ مجلسك تجاه البحيرة كل يوم لا تستشعر
ضجراً ولا ملالةً ، لأنك تُجاه ألواح رائعة تتجدد . أو فلم ،
سينمائي للطبيعة الحية تتوالى مناظره في بهاء ورواء .

وليست فتنة هذه البحيرة بمقصورة على ما يحبوها به

الجوّ وما تنفّحُها به السّماءُ ، وإنّما هي فاتنة بسكانها السّادة
وأهلها الكرام

وما أعنى بهؤلاء السّكانِ إخواننا بني آدمَ المقيمين في
تلك المِنطقة ، وإنّما عنيت جماعة الإوزَ . إنّها صاحبة السّلطان
المطلّق في تلك البحيرة . وقد عُرِفَت البحيرة بذلك الإوزَ
منذ الغابر البعيد ، فأصبح لها طابعا أصيلا لا يتم رسمُها إلّا به ،
فهو دائماً يوشىها ويتوجّجُها ويجذبُ إليها أنظار المعجِبين .

يسبح ذلك الإوزُ زَرَافاتٍ وفُرّادى على متن الماء ، أو يدرج
على الشاطئ مُتهادى المشية في رقّة ووداعة ، وإنّه إذ يلبّحك
ليُسارع إلى أن يحْيِيَّكَ من بعيدٍ أو قريب تحية فضولى متظرف
يتطلّع إلى ما تجود به عليه من لُقيمات !

وهو يتفطنُ إلى مواقيت النزهة ، ومواعيد إقبال الناس
على البحيرة . فيوزّع أسرابه فئاتٍ تتقاسم جوانب الشاطئ ،
وتستقبل الزوار بأناشيد الحفاوة والترحاب .

وأنت ترى هذه الأسرابَ تشرّيب بمناقيرها ، وتدف
بأجنحتها ، تحاول أن تثير بهجَتِكَ وإيناسك بما تُبديهِ من
اللاعب ومعايشت ، ثم إذا بها تقبل عليك بعد قليل تتقاضاك

الأجر والجزاء ، فتلقى إليها القِيَمَاتِكَ ، فلا تفتأ تلتقيها في مهارة ونشاط ...

كذلك لا يخطئ الإوز معرفة المواعيد التي تنتقل فيها البواخر ، فتراه يتأهب لتوديعها في مُنصرفِها يؤدي لها تحية التوديع ، فإذا تحركت باخرة أُلْفِيَتْ سرباً من الإوز قد أحاط بها إحاطة كوكبة الفُرسان بالموالك الفخام ، ولا يزال متابعاً للباخرة وقتاً حتى ينال مكافأة الحفاوة ومُقابلة الجمل بالجميل ... فيرتد إلى قواعده تشيعُ فيه الغبطة والمِراح ! سجل هذا الإوز لنفسه موقفاً مشهوداً في الحرب العالمية الماضية ، وسينسى السويسريون كثيراً من مواقف تلك الحرب ، ولكنهم لن ينسوا ذلك الموقف الطريف أبد الدهر ...

يُعَوِّل هذا الإوز في جانب كبير من عيشه على ما تقدمه له الحكومة من الزاد ، وما يبذله له الزوار من عطايا الخبز . وكان بديهاً أن تُشغَل الحكومة عن ذلك الإوز إبان سني الحرب ، إيثاراً للآدميين بما تستطيع الحصول عليه من غذاء ، واقترن ذلك بيلة الزوار ، أو على الأصح الزوار الكرام ...

فابتلى الإوز بمحنة عسراء ، ولم تعد صغار السمك تكفيه

قُوتًا، وربما أحس هذا السمك أنه أصبح الطعام الوحيد للإوز،
فأمعن في الفرار والاختباء، نجاءً بنفسه من الهلاك...
فاشدت الضائقة بالإوز. وتوالت عليه أيام صعب، وطال
انتظاره على الشواطئ يتلس ما كان يُلقى إليه من اللقيمات دون
جدوى!

فاجتمع بعضه إلى بعض يتشاكى سُعار الجوع ولهب
السغب، ولم يجد بُدًا من أن يأتمرَ توسلاً للخلاص.
فأجمع أمره أخيراً على أن يخرج في مظاهرةٍ ثائرةٍ يُعلن
فيها مطالبه.

وماهى إلا أن رأى سكان مدينة «أوشى» جمع الإوز يغادر
البحيرة، وقد تقدمه قائد مهيب، متخذاً سبيله في الطريق
العام، مرتباً صفوفه على نسق يحسده عليه الإنسان، وهو
يمشى في تَوَدَّة ووقار، ويجار بصوته يناشدُ الناس
عدلاً وإنصافاً!

وتابع الإوز سيره... ولكن إلى أين؟
أكان يعرف له رِجْه سِير، وخُطّة مطاف؟
وإلى من يتوجه بالظُلامة والشكَاة؟

لو عَلَّمَ الإنسانُ منطقَ الطير ، وأوتي معجزة « سليمان » ،
لاشتبك مع هذا الإوز في مُرافعة ودفاع ، وجعل يفاوضه
ويناقله الحديث ، حتى يُفرض الأمر إلى سلام ووافق !
ولكن الإنسان الغشوم استطال بسطوته وقوته ، فشهّر
على الإوز السلاح الذي كان طابع التفاهم الدولي في ذلك
الوقت ، فردّه إلى مغارة ، يشكو البغي والحرمان !

ليست البحيرةُ أئمن شيء في المواطن السويسرية ، فشمة
الجليل : تاجها الذهبي ، وهو ثروة ضخمة لهذا البلد لا تغد لها
ثروة أخرى ، هو ثروة طبيعية لا تتمثل في معادن نفيسة ،
أو وقود منشود . فالجليل هناك كنزٌ غيرُ مستور ، غير مقصور
على إنسان دون إنسان .

إنه ثروة شائعة لكل من يريد الانتفاع بها ...
لقد حَبَّت الطبيعة « سويسرا » بهذا الجبل متفرداً بجماله ،
متميزاً بما يحويه من أشات المتنع ...

ولم يعزب عن السويسري ما في الجبل من ذخائر ، فنشط
يستغلها أتم استغلال . ولذلك ترى الجبل قد عملت فيه يدُ التجميل
ما شاءت لها العبقرية أن تعمل ، فبدلاً من رخاا لمختلف ضروب
الرياضة والألعاب الملائمة لفصول السنة على تنوعها : طرق
معبدة ، ووسائل انتقال منظمة على أحدث طراز ، وتيسير
أكمل تيسير لتسلق القمم ، والانزلاق على الجليد ، والتنزه في
الغابات ، والإقامة في مرابي الجبل وفق مطالب الاستشفاء .
فلا غرو أن ترى الجبل السويسري نُصَّب الأعين من

أقطار العالم المسكون ، يلوذه طلاب المتعة والرياضة والصحة
من كل موطن وجنس .

ولا مريّة أن من أروع المهرجانات وأبرعها ذلك
المهرجان الجليديّ الذي يتبارى فيه المنزلقون بالمزاج ،
يتحدّون من القمم السامقة إلى السفوح الدنيا ، تحسبهم جنساً
قد انفرجت عنهم أبراج السماء ، فندفّقوا يمرقون لا تكاد
تقيّدُهم الأبصارُ .

وإننا لنذكر ما وصف به « امرؤ القيس » حصانه في قوله :

مِكْرٍ مِفْرٍ مَقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعَا

كجُلْمُو صخر حطّه السيل من عل

فنسائلُ أنفسنا : لو كان « امرؤ القيس » قد شهد أحد هذه

المهرجانات ، فبأيّ شيء كان يشه أولئك الجنّ من الأدميين

وهم في هويّتهم من حالق ، أعدى من الرّيح ، وأسرع من

وئبات الخيال ؟ ..

لقد كان كسب « سويسرا » من جبلها ، وهي قابضة

لم تتخطّ حدودها ، ولم تشره عينها إلى سواها ، أضعاف

ما تحاول أن تكسبه الدول بقوافل التجارة وأساطيل الاستعمار

ولهذا الجبل كبير الأثر في حياة أهله ، فقد طبعهم بطابعه .
ولست قسّمت السويسري وشيمه إلا مستمدةً مما للجبل من
قسّمت وشيم . . .

السويسري بشرةٌ مشدودةٌ معروقة ، صحّةٌ سابعة ، قامّةٌ
صلبة ، مشيّةٌ متزنةٌ تدلّ على ثباتٍ وثقة ، فأما شيمته فهي
الصرّاحة والجدُّ والاستقامة ..

هذا السويسري أظهر الغريبين سخاءً نفس ، وكرمَ ضيافة .
ولعله يحسّ أنّ حياته موصولةٌ بالنزلاء والغرباء ، وأنّ له من
ألفتهم إياه مغنماً جديراً بالرعاية والحرص !

أولئك السويسريون لا يحفلون بزُخرفٍ أو تنميق .
فرجالهم ونساؤهم يبدون في ثيابٍ عليها طابعُ السّذاجة والاحتشام
وجمالُ المرأة السويسرية هو على وجهٍ عامٍّ منحةُ الطبيعة ،
وصبغةُ الخلقة ، لا يد فيه للصّنع ووسائل التجميل .

فهي تستمد مفاتن النّضرة والوسامة من وفرة الصّحّة
وفورة النشاط .

شيئان في « سويسرا » يتماثلان عظمة وقوة أثر ، وإن
اختلفا في الضخامة والكِبَر .

الأول ضخْمٌ بعيد الأطراف ، مديدُ الأكناف ، يكل في
جنباته البصرُ الحديد ؛ والآخر ضئيلٌ دقيق لا تكادُ تراه
وإنْ أُنعمتَ النَّظَرَ ...

في الأول تتجلى الطبيعة سهلةً ميسورة ، وفي الآخر
تتمثل عبقرية الصنعة في التركيب والتعقيد .

حياة الأول انطلاقٌ وانسراحٌ لحدودٍ ولا قيود ،
وحياة الآخر نظامٌ مرسومٌ في دقّةٍ وضبطٍ وإحكام .

الأول : هو الجبل

والآخر : هو الساعة .

« سويسرا » منذ الغابر البعيد موطنُ الساعات ...

تطالِعُكَ السَّاعَةُ أينما سُرَتْ ، مَخْلِيفَةُ الألوان ، متباينة
الأشكال ، لا تكادُ تحصى أنواعاً وأفانين ...

وإنْ رَجَّهَتْ المناجرِ والمخازنُ لنزخَرِ بها ، وإنْ دَقَّاتُها العالية

لتطرق سمعك ، وقد تجاوزت بها ذُرا الأبراج في الميادين
والسّاحات ، فكأنها تتبادل التّحايا والمناجاة ...

أنت في أيّ وقت بصير بوقتك ، تتعرفه بتلك الدّقّات
التي تبلغ مسامعك كل ربع ساعة ، مصاحبةً لك طول النهار ،
ساهرةً عليك آناء اللّيل ، لا تدعُك حيث كنت !
إنها لتنفذ إلى مخدعك ، وأنت أرقّ ، تؤنّسك ، وتزجي
لك اللّيل البطيء الكسول ...

وربما جلست إلى البحيرة غافٍ البال ، فإذا بتلك الرفيقة
تسائلك على استيحاءٍ في أنغامها الرّقاق :
أعلى موعد أنت غفلت عنه ؟

أحان وقت الطعام وأنت عنه لاهٍ ؟
أطالت جلستك في مكانك ، وآن لك أن تستمتع في بقية
يومك بنزهة أخرى ؟

ليت شعري ، أكانت « سويسرا » منزل الوحي « لشوقي »
في بيته الخالد :

دقّات قلب المرء قائلة له إن الحياة دقائق وثوان ؟
وإنك لتجوز بالمسالك والدروب ، فإذا بالساعة

الحياة

تواجهُك في كل ناحية وركن ...
وقد يُعَيِّيك في إحدى القرى أن تجد مطعماً تتبلغ فيه بشيء
من الزَّاد ، ولكنك لن تفقد الساعةَ ما خطوت !
لقد كانَ لاهتمام السويسرى بصنْعِ الساعة ، وإقباله عليها ،
وتفننه فيها ، أثرٌ بالغٌ في حياته ... فقد أشرَبَتْه خلال الدقة
والمثابرة والجِدِّ والنظام والاتساق .
فالسويسرى يعيش حياةَ الساعة ، ولست تغلو إن قلت :
إن السويسرى ساعةٌ آدمية ... ساعة سويسرية !
نحنُ اليومَ في « سويسرا » تدق لنا فيها ساعة وداع ،
ويتعيَّن بها وقت رحيل ...

١٧ أكتوبر

أى بُنى :

أَبْقَى شَيْءٌ أَنَا جِيكَ بِهِ فِي شَأْنِ تِلْكَ الرِّحْلَةِ الَّتِي نَأَيْتُ
بِهَا عَنِ الْوَطَنِ سِتَّةَ أَشْهُرٍ ؟

ثُمَّ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً جَدِيدَةً أَنْ يَجْرِيَ بِهَا الْقَلَمُ ..
لَقَدْ كَانَ هَذَا الْقَلَمُ سَهْلَ الْمَقَادَةِ وَثَابَ الْخُطَا فِي مَضَامِرِ
الصَّحَائِفِ ، وَأَنَا ذَاهِبٌ عَنِ الْوَطَنِ ، فَمَا بِهِ الْيَوْمَ يَعُتْنِي .
وَأَنَا فِي يَوْمِ الْمَلَأَبِ ، فَلَا أَجِدُ مِنْهُ إِسْلَامًا وَلَا طَوَاعِيَةً ؟

أَلَا أَحْدَاثُ ؟

أَلَمْ تُزَعْجْ عَنِ فِرَاشِنَا فِي حِضْنِ « جَنيف » وَالسَّاعَةِ تَدُقُّ
حَقَّتْهَا الثَّانِيَةَ بَعْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ ، لَكِي نُنْعِدَ الْعِدَّةَ لِلرَّحِيلِ ؟

أَلَمْ نَرُضْ أَنْفُسَنَا عَلَى فَضِيلَةِ الصَّبْرِ وَالِانْتِظَارِ فِي الْمَطَارِ ،
تَقْبِيلَ نَهْوِضِ الطَّائِرَةِ . كَمَا حَدَثَ مِنْ قَبْلُ فِي الْمَطَارَاتِ الْأُخْرَى ؟
أَلَمْ نَلْبِثْ فِي الطَّائِرَةِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَاعَةً بَيْنَ « جَنيف »

و « الْقَاهِرَةِ » ؟

أَلَمْ تَكُنْ هَذِهِ السَّاعَاتُ الْمُنْتَاطِلَةَ عَامِرَةً بِالْأَحْدَاثِ

والمشاهد والصور، بين علو وهبوط وبطء وإسراع، ووقفات
في مختلف المطارات، كتنقل الطير من فنن إلى فنن؟
أليس في ذلك كله ما يهزّ القلم إلى الملاحظة والوصف
والتعقيب؟

ربّ قلمٍ جمدَ في يدِ الكاتب لا يدري لجوده سبباً، فإن
راحَ يتفحص سنّه ومداده لم ير به منهما شيئاً...
رب كاتب يرى صدره جيّاشاً بالعواطف والإحساسات
والموضوعات، ولكنه مع ذلك يظل عيياً محصوراً، كأن عائقاً
مستوراً يسد عليه منافذ الإفصاح...

القلب البشري شأنه كشأن ذلك القلم، بيتاً هو خفاق
يستقبل الدم ويرسله في حرارة وقوّة، إذا به يُحسّ عجزاً عن
مزاولة مهمته، فيحتبسُ الدم عن مجراه، لما قد يكون
من عقبة في الطريق، أو تقاص في الأوردة، ويظلّ القلب
مضطرباً حيران يتساءل عن سر هذا الانقلاب!

نحن مقبلون على أرض الوطن بعد غيابٍ طال...
ستكتحلّ أعيننا بعد ساعاتٍ بمرأى وجوه الأحياء من ذوى
القربى، وأطيايف الراحلين الأعزاء...

ماذا أستطيع أن أجتلي من المشاهد والأحداث التي تدور
حولى خلال هذه الساعات المطوية ، وأنا معقود الناظر بأشبات
من ذكريات أثارَ ثأرتها في نفسي شعور القدوم إلى
معاهد الذكريات ...

أنى لئنفسى أن تستجيب لما يكتنفي من الأحداث
والمرئيات ، وأنا حاضر بجسدى وحده ، على حين أن رُوحى
هائمة شرمود^١ تسبق الطائرة وتتعجل الوصول إلى غاية الطريق ،
في هذه ان ساعات الاثنتي عشرة تقلبت بنا الأجواء بين
أطباق السماء ، وتعاقبت علينا أنسام^٢ مختلفة أيما اختلاف ،
ولكنى — على الرغم من تقلب الأجواء وتعاقب الأنسام —
ظلمت لا أستنشى إلا جواً واحداً ونسباً واحداً ، ما أطيّب
شداه ، وما أكرم رياه ، ينفذ إلى سويداء القلب ...

ذلك هو نسيم « مصر » . عطر الوطن !

ولكن ما لي وقد رحلنا عن « أثينا » واقتحمنا سماء بحر
الروم ، واتجهنا صوب وادى النيل ، أحس^٣ وحشة غريبة
تهب^٤ دفعة واحدة من جوف ذلك الغسق الذى نشق أستاره ،
إنها وحشة غريبة يختلط فيها السرور بالأسى ، واللذة بالآلم

أَفُصِّحْ أَيُّهَا الْقَلْبُ عَمَّا بَكَ السَّاعَةُ !
إِنَّكَ لَمُثْقَلٌ بِالْمَشَاعِرِ الْغَامِضَةِ الْمِهْمَةِ ...
إِنَّكَ لَمُخْتَنِقٌ ...

إِنَّكَ لَتَكَادُ تَمْزُقُ ...

لَا يَسْعِفُكَ فِي ضَيْقَتِكَ إِلَّا سَاكِبُ الدَّمْعِ .

وَلَكِنْ أَيْنَ غَوْتُهُ وَغَيْشُهُ ؟

عَابِرَ النَّبْعِ غَائِرًا غَائِضًا لَا يَنْضَحُ وَلَا يَبْضُ !

الطَّائِرَةُ تَدْفُ .

وَالْغَسَقُ يُحْتَلِكُ .

وَالْقَلْبُ يَزْدَادُ مِنْ وَحْشَةٍ وَضَيْقَةٍ وَانْقِبَاضٍ !

٨ أكتوبر

أى نى :

هأنذا أرجع الساعة إلى دارى : بعد أن وقفتُ على قبرك ،
وطوّفتُ بمزارك ...

أرجعُ لأخطّ إليك كلماتٍ عجلاً ، هي أخرى كلماتى إليك
فى هذه الرسائل ...

كانت ليلتى الماضيةُ ليلةً حافلةً حائرةً ، ليلةً قلقةً أرقّةً .
لم نكد نبارحُ الطائرة ، ونخطو بواكيرَ خطانا على ثرى
الوطن ، حتى طالعتنا وجوهٌ عزيزةٌ خفتت للقاءنا . وكانت
فرحةٌ تجاوزت بها القلوب كما تجاوزت الألسُن عبارات
التحية والترحاب .

وبداً من بين تلك الوجوه وجهٌ محبّبٌ يتدانى إلينا ،
ويهتف باسمينا .

إنه وجهُ عزيزنا الصغير^(١) الذى لم يغربُ عن ذاكرتنا
لحظةً واحدةً خلال تلك الغيبة الممدودة ...

(١) يعنى الكاتب ابن بنته .

وإذا بهذا الوجه الصغير يعظم حتى ليصبح شغلنا الأكبر ،
لا نرى أحداً دونه .

ظلمنا وقتاً في ضجّة من الحديث ، وهيجة من المشاعر ...
وبينما نحن في هذه الضجة والهيجة ، إذا بشيء يستيقظ في
قرارة نفسى ، وإذ بي أتلقت حولى باحثاً عن شخص ...
وجعلتُ أحدّ بصرى ، بل أذكى بصيرتى ، أتحمس وجوده ...
ولكننى لم أعثر عليه ، فغشيتنى غاشية من التحسر والتفجع .
لم لا أجذك يا بنى تستقبلنى ، كما وجدتُك معى تودعنى
يوم الرحيل ؟

أعدتُك عن الحضور عواد ؟

ليس لعادية أن تعدوك عن التصرف حيث تشاء ، فأنت
اليوم ربّ معجزات تقصر دونها طاقات الأحياء النافهين
من بنى البشر ..

ليس ثمة من سلطان عليك لتلك المظاهر ، من زمان
ومكان ، وصعاب مادية ودنيوية !

لقد اختلق الإنسان الحى هذه المظاهر ، لى يوازن بها
ويقايس ، والى يعبّد طريق المعاش والتقاب في جنبات الأرض .

إنك لتحيي في العالم الأبدى السرمدي ، حيث لا حاجة
بالروح إلى قيود من زمان ومكان . فهي تشيع في الفضاء المطلق
شمس يوع الضوء السيار .

ما بالك يا بُنى تتخلف عن استقبالي ، وقد كنت آملاً أن
أحسَّ مَقْدَمَكَ في تلك اللحظات ؟

أكبرُ الظنَّ أنك آثرتَ التخلفَ إشفاقاً علينا من أن تثيرَ
بوجودك أشجاناً يضطرم بها القلبُ في ساعةِ الفرحَةِ ببقاءِ
الأحباب من الأحياء !

لقد كبرتْ نفسك أن تراحم هذا الصغير المحبَّب في خفَّتهِ
وسعيه ، فتركتَ له الميْدانَ يُبرِّزُ فيه !

على أني ما كنتُ آخذُ سبيلي إلى المنزل ، حتى هتَفَ بي
هاتفٌ كأنه يضرب لي موعد زورة ، ويوجهني وجهة لقاء !
وهأنذا يا بُنى قَصْدْتُكَ ، دخلتُ خاشعاً في ذلك المزار
الأعزَّ ، وجثوتُ أعفَّرُ جبهتي بترابك المطهر ، وإذا أنت
تترامى لي كما كنتَ دائماً ، وضَّاح الحياء ، تتلألاً في عينيك فورةِ
القوَّة والشباب !

أقبلتَ تضربُ الأرضَ بخُطاك في ثقةٍ واثمنان ، أقبلتَ

تأخذُ بيدي تُنسِضُنِي ، ثم انتحيتَ بي ناحيةً جاستَ فيها إلى ..
أحدقُ فيكَ وتحدقُ في .. .

ليس المقامُ مقامَ كلامٍ ، إنه مقامُ السكونِ والصمتِ ..
مقامُ التأملِ والنَّجْوَى ...

لقد أفضيتُ إليك بما عدى ، وأجبتني إلى ما سألتك إياه ..
ولكن هل كان في النجوى من جديد ؟

الم تكن تعلمُ من شأني كل شيء ؟

الم تكن رفيقي في كل مكان ؟

أخفقَ قلبي خفقةً لم يكن لك منها نصيب ؟

لست ولدي الذي قضى وغَيَّبَه الماضي في ألفائه ..

أنت فكرةٌ خالدة تغمُرُ جوانبَ القاب . وتسيطر على

مناطِقِ التفكير ...

لا فراقَ بيني وبينك أبدَ الدهر .

إنك لمُلازمي على النحو الذي تهوَى :

شعوراً مرة ، وصوتاً تارة ، وطيفاً تارة أخرى !

لم تَدَسَّجَ بجديد ...

وأى جديد ننتظر ؟

أين الجديدُ في هذا الوجود ؟

ليست الحياةُ إلا حقيقة واحدة أزليّة أبدية ، وإن تباينت
صوراً وألواناً ومظاهر . . .

لا جديد في الإنسان منذ تقلبه في مهده ، إلى أن يورأى
في ثرى رَمسه . . .

إنه ليظلُّ ذلك الوليد بما رُكب فيه من عناصر جوهريّة .
يظلُّ وليداً وإن اكتهل ، وإن تشيخ ، وإن رُدَّ إلى أرذل العمر
وليس ما يعتريه مما نتوهمه تغيراً وتطوراً إلا عوارض
لا شأن لها بجوهر النفس ولباها الأصيل . . .

منك يارب نستعير قبسة تلك النفس حَقبةً من الزمن ،
ثم ترجع إليك لتشيّع في نورِكَ الشامل العظيم . . .
أما أن نسأل :

لماذا أعرت ؟

ولماذا استرددت ؟

فهذا ما لا قبيلَ لنا بجوابه !

ثمة شيءٌ واحدٌ ، هو جواب السائل ، وملاذم الحائر :

هو الاستسلام ، ولا شيء غير الاستسلام !

إنه يابني سبيلي الذي أترامى فيه . . .

أن أستسلم حتى يجتمع شملنا غداً في فيض نور الله !

إليك

إليك يا شريكتي في العمر ، ويا رفيقتي في السفر والحضر .
إليك أكتب هذه الأسطر تسجيلاً لما كان من جميلك عليّ . . .
هذا كتاب ما كان أخلفه أن يؤسم باسمك ، فإنه أثره منك
وحدك ، ولولا أنت لم أخط منه حرفاً ، ولم يظهر له وجود .
لقد صحبتيك إلى العالم الجديد ، وما كنت لأطأ أرضه لولا
ما كان من رغبتك في الانتقال إليه ، طلباً لعلاج واستشفاء .
وما رحلتنا هذه إلى العالم الجديد ، إلا مرحلة من رحلتنا
معاً في هذه الدنيا ، جنباً إلى جنب .
وما رحلة الدنيا التي تتأمل فيها بأقل روعة من تلك
الأسفار التي قنابها ، نرتاد الأصقاع والآفاق ، ونستمع
بالضرب في أرض الله الواسعة !
إننا دوماً على سفر . . .

هي رحلة ممدودة ، تتقلب فيها الأيام بنا بين سرٍّ وضرٍّ ،
وكلما اجتزنا منها مرحلة ، أحسنا قوة الألفة والتعاطف
تأصل وتأنل . . .

وإني لأرى طيف ابننا العزيز ينظر إلينا من وراء الغمام

السرمدى ، مقتفياً خطانا فى الطريق ...

لقد لاحَ بسمَةٌ فى أفق حياتنا حيناً ، بسمَةٌ وصَل وميضها
القوى بين روحينا ، وشدهما برباط وثيق ...
ثم عاد حيناً آخرَ دمعَةٌ تساقطت من عينينا معاً ، فازداد
بها ذلك الرباطُ من توثق واستحكام ...

ظللنا عمرنا نتساقى كؤوس العيش ، وننقاسمُ أعباء الحياة
فى تعاون وتآزر ، ومن هذا التعاون والتآزر غدت للحياة قيمة
ومعنى ، فقد أكرمنا الله بأن لم يجعل حياتنا هباءً لا معنى
لها ولا قيمة ...

وحسبنا من معنى الحياةِ جوهرُ الحب ...

الحب فى صورته الشاملة الواسعة ...

الحب الذى يعيش وينمو ، تغذوه السعادة طوراً ويُمدده
الآلم أطواراً ...

ذلك هو الحب الخالد الركين !

إليك شريكه حياتى :

تحيّة حب .

ورمز تقديرى

محمود نيمور

أحدث مؤلفات محمود تيمور

اليوم خم — ر

حياة امريء القيس في مسرحية

سلوى في مهب الريح

قصة تبسط حياة فتاة لعبت بها ضروب من تصارييف القدر

ملامح وغضون

صور رائعة لشخصيات لامعة

نداء المجهول

قصة فتاة أخلصت في هواها لمن أحبته ، نغابت آمالها ، مع هذا الخليل ،
فهجرت وطنها متخذة من الخيال مجالا لغامراتها ، جريا وراء مجهول خاب
مثلها في حبه فتجد فيه ضالتها المنشودة .

خلف اللثام

مجموعة قصص يظهر فيها اللون الانساني الرفيع . وتصوير للغرائز البشرية
في أعلى مظاهرها في مختلف الأوطان والأزمان

شفاه غليظت

مجموعة من أقاصيص مصرية

كليوباترة في خان الخليلي

قصة الصراع الدائم بين عالم الحقيقة وعالم المثل

المنقذة

مسرحية عن أميرة في عصر المماليك ، فقدت كل أهلها فأضافها أمير
إلى قصره ، وأكرم مشواها ، ففز عليها أن تكون أسيرة معروفة
طوال الحياة وأخفت هواها عنه وإن كانت تحبه من صميم قلبها

المخبأ رقم (١٣)

مسرحية من وحى الحرب تصور الغرائز البشرية الأصلية داخل مخبأ
يخوى أشتاتاً من اللاجئين — في أثناء غارة جوية على القاهرة ، فلما أمنوا
داخله عادت إليهم محبة الحياة ونسوا الموت .

حواء الخالدة

قصة المرأة منذ الأزل وقصتها إلى الأبد

غن القصص

فصول جامعة لدقائق الفن القصصي
(طبعة ثانية مزيّدة)

كل عام وانتم بخير

الكتاب القرى الذى أحرز جائزة الدولة للقصة العربية سنة ١٩٥١م .

GENERAL BOOKBINDING CO.

72 423WB N 103

610

DATE DUE

JAN 20 2015

OCT 03 2016

GAYLORD

PRINTED IN U.S.A.

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES



0043752799

PJ
7864
.A5
A64
1966

NOV 16 1972

NOV 28 1972

